الشيخ حسن الصفار

عالمًا.. مُفكّرًا.. مُصلِحًا

الشيخ حسن الصفار

عالمًا.. مُفكِّرًا.. مُصلِحًا

بأقلام عدد من الفقهاء والمفكرين والأدباء

إعداد وإشراف
عبدالعظيم حسين الصادق

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَة الأوْلى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحیم

كلمة شكر وامتنان

الأستاذ عبدالعظيم حسين الصادق[1]

ورد عن الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه انه قال: «من وقَّر عالماً فقد وقَّر ربه». ومن هذا المنطلق جاء هذا السفر الحافل بالخواطر الصادقة، والأفكار النابضة، عن رجل الفكر الهادف، والكلمة الصادقة.. عن رجل فذ عاش ولايزال لغيره أكثر مما يعيشه لنفسه.

وكما جاء عن الإمام علي عليه السلام: «العلماء باقون ما بقي الدهر» بهذه العبارة الموجزة يلخص سيد البلغاء والمتكلمين فكرة خلود العلماء في الذاكرة البشرية. والتي تتجلى في نوادر من النوابغ النافذة في العلم والفكر والثقافة. فهم كما قال شاعرنا الفذ المتنبي رحمه الله:

التارِكينَ مِـنَ الأَشـيـاءِ أَهوَنَها ... مَراتِبٌ صَعِدَت وَالفِكرُ يَتبَعُها
وَالراكِبينَ مِنَ الأَشياءِ ما صَعُبا ... فَجازَ وَهـوَ عَلى آثارِها الشُّهُبا

(١) أخصائي في علم النفس وناشط اجتماعي – صفوى.

بين يدي القارئ الكريم كتاب «الشيخ حسن الصفار عالماً.. مفكراً.. مصلحاً» يلقي النور على السيرة العلمية العطرة لهذه الشخصية الفذة، ويسلط الضوء على أهم الأفكار والآراء العلمية والثقافية، من قبل مجموعة مختارة من الفقهاء والمفكرين والادباء، والتي تتحدث عن الآراء والأفكار التي يتبناها سماحته بالتحليل والموضوعية.

جزيل الشكر والتقدير، وكل العرفان والامتنان، لهؤلاء الافاضل، وننحني إجلالاً وتقديراً لتلك الجهود التي بذلوها، والعطايا السنية التي أتحفونا بها، لإنجاز هذا العمل الفذ الذي يقدم صورة مشرقة عن العطاء المتدفق من فيض أستاذنا الجليل سماحة العلَّامة الشيخ حسن بن موسى الصفار، الذي تربينا على عطاء منابره الهادفة منذ نعومة أظفارنا ولا نزال نبحر في أفكاره النيِّرة، وآرائه الخلَّاقة، والتي عمَّقت ارتباطنا الوثيق بالفكر الإسلامي الأصيل.

وفي ختام هذه المقدمة المتواضعة، نقدم شكرنا وعظيم امتناننا لكل من ساهم في أن يرى هذا السفر النور، ونخص بالذكر -والألم يعتصر قلوبنا- رجل العطاء وصاحب الأيادي البيضاء، أخي وصديقي ورفيق دربي المرحوم المهندس ميرزا بن حسين بن علي الملا، الذي التحق بالرفيق الأعلى مطلع شهر ذي الحجة لعام ١٤٤٣هـ، قبل أن يرى هذا الكتاب النور، وقد تكفَّل بطباعته على نفقته الخاصة، نسأل اللَّه له الرحمة والمغفرة، وأن يسكنه فسيح جناته، ويحشره مع الحبيب المصطفى وآله الأطهار صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

عبدالعظيم حسين الصادق

٥/ ١٢/ ١٤٤٣هـ

٤/ ٧/ ٢٠٢٢م

بين يدي الكتاب

الشيخ الصفار - هل هو بحاجة إلى تعريف؟

السيد عدنان السيد محمد العوَّامي[1]

تعارف ذوو العلم والأدب -حين ينجز أحدُهم مؤلَّفًا، أو ديوانًا- أن يأخذه إلى عالم أو أديب كبير، ذائع الصيت، عريض الشهرة؛ كي يُتوِّجَه بمقدِّمة تُزيِّنه، وتُضيف قيمة إلى قيمته، هذا هو ما اصطُلح عليه؛ حسب علمي المتواضع؛ لذلك صُدمت دهَشًا حين شرَّفني الأستاذ عيسى العيد، وفضيلة الشيخ (زكي الحبيب) بزيارة ومع فضيلته مسودَّة كتابٍ عنوانه: (الشيخ حسن الصفار - عالمًا.. مفكرًا.. مصلحًا)؛ بغية أن أكتب مقدِّمته.

وبقدر ما أسعدتني تلك الزيارة من الأخوين الكريمين، فقد دهشت -للغاية- منها، فهي تشي بثقة أكيدة بي، وحسن ظنٍّ لست أهلًا لهما، فأنا أعرف نفسي، ورحم اللَّه امرَأً عرَف قدر نفسه فأحلها محلها، وكذا أبا العتاهية القائل:

رحم اللَّه امرَأً أنصف من نفسه، أو قال خيرًا فسكت

(١) باحث وشاعر من القطيف وأديب سعودي بارز.

ولولا الحياء من ردِّ الأخوين الأستاذ عيسى، وفضيلة الشيخ لأنشدتهما بيتين أُثرا عن الحريري قالهما لرجل وفد عليه مسترفدًا علمَه، فأنشده:

مـا أنـت أول سـارٍ غـره قمر ورائـدٍ أعجبته خضرة الدمن
فاطلب لنفسك غيري، إنني رجلٌ مثل المعيدي، فاسمعي بي، ولا ترَني

فمن جهة الكتاب؛ فهو بأقلام نخبة من الكاتبات الفضليات ذوات المقامات الشامخات، والكتَّابِ الأجلاء، ذوي القامات السامقات، منهم مراجعُ تقليد، وعلماء دين، وأساتيذ أكاديميون، وصحفيون مشاهير، ومربون معروفون، وشعراء مبدعون، من بلاد شتى؛ عربية، وإسلامية، ومنتمون لديانات ومشارب متنوِّعة، ومن جهة موضوعه، فمداره رجل غنِيَ بنفسه عن التعريف، فكأنْما عناه القائل:

بَيتٌ نَماه سَمَت لِلنَجمِ شُهرَتُهُ وَأَصلُهُ ثابِتٌ مِن أَعـرَقِ الأُسَـرِ

ولولا كثرة ترحاله في بلاد اللَّه العريضة، وأسفاره الكثيرة لصدق عليه قول أبي البحر الخطي:

لم يسرْ ذكـر من تـداولـه السيـ ـر، وتمسي ثـاو، وذكـرك يسري

فمواهبه ومناقبه المتعدِّدة، وأدواره الإصلاحية أكبر من أن يفي بها كتاب، ويعلم اللَّه أنني لم أقل هذا مزايدة أضيف بها شيئًا ذا بال، فالأستاذات والأساتذة الأجلاء لم يقصر أحد منهم في شيء، فقد أوفوا الموضوع استقصاءً، وبذلوا الجهد قدر الطاقة والإمكان، وأدْلَوا بما طمَت به دلاؤهم من شهادات صدق، تنوَّعت بين المنثور والمنظوم بما لا مزيد عليه، لكن مقام الرجل ومآثرَه لا يستوعبها كتاب.

هلمَّ ألقِ نظرة خاطفة على عناوينهم لترى إن كانت قد أوعت كل مناقب الرجل، فمن تلك الأدوار تناولت: المشروع الفكري، التسامح الديني، الحرية

والتعددية، مشروع العبور نحو الدولة، التعايش، مناهضة التطرف، مواجهة الإرهاب، علمه بزمانه، العلم الرباني، عقليته المنفتحة، وبصيرته الواعية. خبرته بعالم النفس البشرية، اهتمامه بحقوق الإنسان، سعة الدائرة، المولد والنشأة، مؤلفاته وكتبه، منهجه الإصلاحي، أفكاره، دعوته لتنمية روح التعاون في المجتمع، حثّه على مقاومة الخوف من التجديد، اعتبارَه من مصابيح الفكر والمعرفة، العالم والمُعلِّم، خُلُقه النبيل، علمه الرسالي، جرأته في نقد الذات، أفقه الإسلامي والإنساني، خطاب التجديد والمعاصرة، دعوته للتقارب، الانشغال بقضايا الخلاف، رؤيته للمشكلة الطائفية وحلولها، كسر الحواجز الاجتماعية، التركيز على الإطار الوطني، وتحييد العوامل الخارجية، أصالة الماضي وشفرة التحديث، الموازنات الخمس، مكانة المرأة في فكره، الحضور النسائي في مجالسه المنبرية، محاضرات الأربعاء، المحاضرات الخاصة بالنساء في مجلس أم سمير البيات، المرأة في كتبه، عندما تجسَّد عقله رجلًا، جهود الرُّوَّاد والمصلحين في فكره، تنوُّع عطائه العلمي والثقافي، نشاطه الخطابي، الدور الاجتماعي ومسؤولية التبليغ، تجاوز حالات الانفعال ومواجهة الواقع بروح الأمل وعدم اليأس، التجديد الديني والتطوير في لغة الخطاب، العالم الرسالي الناجح، ملامح خطابه الاجتماعي، قراءة في التجربة الإعلامية، رجل المرحلة، قدرة الإدارة، إدارة الخلافات، ضرورة الإدارة المجتمعية، كاريزما خاصة، التواصل الجيد مع الغير، الثقة بالنفس، التحلِّي بروح الدُّعابة، التواضع، الإنسانية، النشاط الدائم، البعد العلمي والمعرفي، البعد الأخلاقي، رؤى المستقبل، عبور الحقول، الصفار المواطن، حكيم القطيف، استثمار الوقت وإدارته، المرونة الذكية، المفكِّر العامل، قيادة صنع الوعي، نيله الدكتوراه في الإبداع، رجل التنوع والتعايش الوطني، المسألة الطائفية في خطابه، التغيير

بالحوار، استثمار السيرة المحمدية للتغيير، النبي وآله في كتاباته.

هذا مسرد لمجمل العناوين الرئيسية التي اشتمل عليها الكتاب، وهي -كما يرى القارئ الكريم- ليست قليلة، ومع ذلك لم تستوعب نشاط الشيخ، فلم أجد بينها دَورَه مُشاركًا في الوفود المتردِّدة على الرياض وغير الرياض إما لمقابلة الملك، أو غيره من رجالات الدولة، آنًا للتهنئة، وآخر للتعزية، وثالث لالتماس مطلب من مطالب البلد.

شامي القطيف:

كانت القطيف -قديمًا- غنيةً بخطبائها الكبار كالسيد محمد المعلم العوامي (ت: ١٣٦٠هـ)، الملا علي آل إبراهيم (١٣١٣ - .....هـ)، الملا مكي بن قاسم آل مدن الجارودي (١٣١٤هـ صباح الاثنين ١١-٢-١٣٨٩هـ، ٢٨/ ٤/ ١٩٦٩م)، وغيرِهم كثير يضيق بهم الحيِّز المتاح لو أردت الاستقصاء، وكان أسلوب الخطابة القديم يتم بأن يقرأ الخطيب الخطبة من كتاب مطبوع، أو مخطوط، فاستبدله الشيخ منصور المرهون (١٢٩٨ - ١٣٦٢هـ)، بالأسلوب المعروف الآن، وهو الخطابة الارتجالية، وسار معاصروه على طريقته، كالملا حسن الجامد (١٣٠٠ - صباح الجمعة ٢٧/ ٢/ ١٣٧٥هـ)، أول من جدَّد الخطابة المنبرية ونقلها إلى الخطبة غيبًا من الذاكرة، واقتفى أثرهما الرعيل الثاني من الخطباء إلى انتهت إمارة المنبر إلى الأخويين البريكيين الفاضلين؛ الشيخ محمد صالح (١٣١٤هـ، ١٨٩٦م - ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م)، وأخيه الشيخ ميرزا حسين (١٣٢٤هـ، ١٩٠٦م - ٢١/ ١٠/ ١٣٩٥هـ، ٢٦/ ١٠/ ١٩٧٥م)، وغيرهم لا يتسع المجال لذكرهم.

وبسبب ازدهار الحياة الاقتصادية، وتحسُّن الحال الصحية أخذ تعداد

السكان في الازدياد، والنطاق العمراني في التوسُّع، فنشأت الحاجة لزيادة عدد خطباء المنبر، فشرع ذوو اليسار ومتولُّو الأوقاف المحبوسة على المآتم، في استقدام خطباء من خارج القطيف، من أمثال الشيخ أحمد بن رمل (عراقي انتقل من العراق وسكن المحمرة)، والشيخ إبراهيم (لا أعرف لقبه، ولا موطنه، وأحسبه من المحمرة)، ومن الأحسائيين المهاجرين إلى العراق السيد مهدي السويج، والسيد محمد الشخص، وأخيه السيد علي، والسيد حسين الشامي، من العراق، وهؤلاء جميعًا نالوا شهرة واسعة، وحضورَ جمهور كبير، لكن السيد حسين الشامي كان (عصا موسى) المنبر بلا منازع.

بعد وفاة الشيخ محمد صالح البريكي، وكبر سن أخيه الشيخ ميرزا ومرضه ثم وفاته - راجت في القطيف مقولة مؤدَّاها أن المنبر قد خلا من بعده، فإن صدقت هذه المقولة فإلى حين، إذ سرعان ما تسنَّم المنبر نجومٌ شابة ساعدها العصر ومبتكراته على السطوع، في طليعتهم فتى يافع يخطو نحو العاشرة من العمر، استقطب جمهورًا غفيرًا من المستمعين، شِيبًا وشبَّانًا لم يعهده المجتمع من قبلُ إلَّا لدى السيد حسن الشامي؛ لذلك أطلقوا عليه (الشامي الصغير)، وسمَّيته (شامي القطيف) تكريمًا له عن عبارة (الصغير)، وإن كان المراد منها صغر العمر، لا القدر، ذلك هو الشيخ حسن بن الحاج موسى الصفار.

موهبة الارتجال:

يُولي الشيخ اهتمامًا مميّزًا وحِرصًا شديدًا على حضور المناسبات الاجتماعية، وخصوصًا محافل تكريم الشخصيات ذوي المساعي والأعمال الخيرية، فيدعو لتكريمها، ويحثُّ عليه، فندر أن يُقام حفل لا يشارك فيه متسنِّمًا منصَّته مرتجلًا، كأنما بينه وبين الورق خصام، فمقدرته النادرة على

الارتجال وفَّرت جهد الكتابة للبحث والتأليف.

احتفالات التكريم:

أشعر أنني أطلت كثيرًا، فالبحث لا ينتهي في سيرة رجل تحتل شهادات ودروع وأوسمة التكريم التي نالها معرضًا كاملًا من مكتبة تبرَّع لها بمقتنيات مكتبته من الكتب والصحف والأجهزة[1]، وحبسها على النفع العام، فيحسن أن أختم وقفتي معه بما وصل إلى علمي القاصر أنه كُرِّم مرتين:

الأولى - في بيت النجمة المحمدية بدمشق، (دار الدكتور عصام عباس) حي السيدة زينب، يوم الاثنين ١٣ جمادى الثانية، ١٤٢٤هـ الموافق ١١/٨/٢٠٠٣م، لمناسبة نيله شهادة الدكتوراه من جامعة الإبداع التابعة للاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية.

الثانية - حفل تكريم أقامه له الشيخ عبد المقصود محمد سعيد خوجة بقصره بجدة في العاشر من ربيع الثاني سنة ١٤٢٧هـ، الموافق للثامن من مايو سنة ٢٠٠٦م.

أطال اللَّه عمره، وأمتعنا بسني عطاءاته.

(١) تبرع بكل ما تحتويه مكتبته الخاصة ونقلها إلى قاعة من قاعات مجلس الحاج سعيد المقابي رَحِمَهُ اللَّهُ.

مدخل..
المشروع الفكري للشيخ حسن الصفار
التسامح الديني والتعايش الوطني

«إن الحق في التعصُّب، هو حق عبثي وهمجي»، فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨).

كان «جان كالاس»، تاجراً بسيطاً وطاعناً في السنّ، عاش في مدينة تولوز على ضفاف نهر «غارون»، جنوب غرب فرنسا بالقرب من الحدود الإسبانية، وكان ضمن أقلية تعتنق البروتستانتية في محيط من الكاثوليك المتعصّبين، وفي العام ١٧٦٣م، اتُّهم بقتل ولده جان أنطوان، بعد أن وجد منتحراً، وكان حجّة السلطات الفرنسية ورجال الكنيسة التي تمثّل الأغلبية الكاثوليكية، أن الرجل قتل ولده لمنعه من التحوُّل من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، وعليه تمّ سوقه للمحكمة، واقتيد معه ولده الباقي وزوجته وبناته الثلاث، وحكم

رجال الدين المتعصّبون على الرجل المفجوع بالإعدام على الدولاب، كما حكموا بالموت على ولده، وعلى زوجته بالنفي، وعلى ابنتيه أن تُودعا في دير كاثوليكي، كما تمَّت مصادرة أملاكه.. وقبل أن يصل «كالاس» إلى منصة الموت، كان قد قضى نحبه تحت التعذيب.

كانت مأساة هذه العائلة، نموذجاً للتعصّب الديني والمذهبي الذي شهدته أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، كانت أوروبا تحترق بغلواء التعصّب والقمع الفكري والحروب الدينية، وقد مرّت تلك القرون على القارة العجوز، بأبشع صور الانتهاكات الظالمة بين سكانها، وقد تبنَّى فولتير قضية «جان كالاس»، ورأى أنها نموذج لما يمكن أن تصل إليه الإنسانية من انحطاط، عبر استخدام الاعتقاد الديني لممارسة القمع والاضطهاد، ونجح فولتير أولاً في استخلاص شهادة ببراءة للرجل الذي قُتل ظلماً تحت التعذيب، وتمّ ردّ الاعتبار لعائلته سنة ١٧٦٥م، كما شرع في تلك الفترة في تأليف كتابه: «رسالة التسامح»، التي عُدّت واحدة من أهم ما كتب عن المساواة وحرية الاعتقاد ونبذ التعصّب وقبول الآخر المختلف دينيًّا أو طائفيًّا، والدعوة للحريات المدنية، والكرامة الإنسانية، كما رسخ هذا الكتاب فولتير واحداً من أهم دعاة التسامح والحرية الفكرية. بل إن هذه الرسالة في التسامح كانت واحدةً من الأعمال التي توّجت فولتير رائداً لعصر التنوير، الذي انبثق في أوروبا خلال القرن الثامن عشر.

يجادل فولتير بأن الأصل هو «اللاتسامح»، حين تنزع النفس نحو الاستئثار والاستحواذ والاستملاك والتفرُّد، ويجري استخدام الموروث الديني كعامل لتحقيق هذه الرغبات. لكن «من مصلحة الجنس البشري الفحص عمَّا إذا كان يفترض في الدين أن يكون رحيمًا أو بالعكس أن يكون

همجيًّا» حسبما يقول في رسالته. بالنسبة لفولتير فإن المشكلة لا تكمن في الدين ذاته، بل في رجال الدين الذين حوّلوا النصوص إلى مادة للهيمنة وتقسيم الناس، حتى أشاعوا العنف والتعصّب.

كانت القصة رغم فظاعتها، تمثّل مساراً من مسارات الحروب الدينية المشتعلة في أوروبا، حيث انفجرت في أوروبا الحروب الدينية منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، من بينها حرب الثلاثين عامًا بين الكاثوليك والبروتستانت، وكانت ألمانيا المسرح الأول لهذه الحرب، لكنها امتدت لتحرق القارة بأكملها، وأدَّت لارتكاب الفظائع وتهجير الناس، وانتهت بانتشار الأمراض والأوبئة والمجاعة والمشرَّدين. في كتاب «قصة الحضارة» نقرأ: «هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من عشرين مليونًا إلى ثلاثة عشر (مليونًا) ونصف مليون، وبعد عام أفاقت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلَّت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال».

لم يقتصر التوحُّش على المذاهب المسيحية، فقد سادت أوروبا سنوات من القتل والحرق والصلب والتهجير، كان المسلمون -أيضاً- ضمن ضحاياها؛ حيث جرت عمليات تطهير ديني في الأندلس، يصفها المؤرّخ الفرنسي غوستاف لوبون، في كتابه «حضارة العرب»: «يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائصنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرون على المسلمين المنهزمين (...) لقد تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي»، وكان من نتائج تلك الحقبة الكالحة من تاريخ البشرية، الحروب الصليبية، وحتى الاستعمار.

لقد صدرت أوروبا للعالم، كيف ترسم الكراهيات حدود الهويات،

«فلا شيء أقوى من الكراهية في رسم حدود الهويات». وما شهدته أوروبا من عصر النهضة، وعصر التنوير، جعل أوروبا أيقونة للعلم والحضارة والتقدُّم والمدنية والاستقرار السياسي، رغم أنها ظلَّت تمزج بين حضارتها الناشئة على الحقوق المدنية، وبين جنوح نحو تصدير العنف عبر الغزوات والاستعمار، وبروز الاتجاهات المتعصِّبة وإن لم تكن على أساس ديني هذه المرَّة، مثل النازية والفاشستية والعنصرية وغيرها، وكان قادتها أبطال الحربين الكونيتين اللتين خلَّفتا مئات الملايين من القتلى والجرحى والمهجَّرين، لكن هذه المجتمعات وصلت في النهاية لبناء حداثتها وتقدُّمها ونهضتها، إن بفعل التطوُّر الإنساني، أو بتلك القيم في التسامح التي زرعها أمثال فولتير وقبله المفكّر الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤)، والتي أعطت العالم مصدراً أساسيّاً لابتكار مبادئ حقوق الإنسان، والقانون الإنساني، والحكم المدني، وفصل السلطات، واحترام حرية الرأي والمعتقد، والنزوع لحل الخلافات بالطرق السلمية، واعتبار الناس شركاء في أرضهم وثرواتهم، ويملكون وحدهم السيادة عليها.

الطريق نحو التسامح:

من المهم التذكير بالمسرح الدامي الذي كانت تدور فوقه الأحداث في أوروبا؛ لأن هذا المسرح أصبح اليوم مضيئاً وبرّاقاً، وجاذباً للأضواء، من المهم التذكير بأن هذه البقعة الخضراء الهانئة كانت قبل قرون قليلة مكاناً للتوحُّش والعصبية، تمّ استخدام الدين كوسيلة لقهر الناس والوصاية عليهم والاستيلاء على إيمانهم وضمائرهم، وكانت النتيجة الحتمية الثورة ضد الكنيسة، والانتصار عليها، ثم تحجيم دورها في الحياة العامة، كمقدّمة

ضرورية لصناعة النهضة والحداثة التي شهدتها أوروبا منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

وكأن التاريخ سفينة فوق صقيع لا تتحرَّك، فإن العالم العربي ظلّ مفتوناً بالنزعات السلطوية ذات الصبغة الدينية، مع تفشِّي ثقافات الاستعلاء القومي والقبلي والطائفي والطبقي، وهي جميعاً ظلَّت على الدوام بيئة خصبة للتناحر والتنازع والتنافر والانقسام، كما هشَّمت المحاولات القليلة لصياغة مفاهم المواطنة المتساوية، وقيام الدولة العادلة الحاضنة لأبنائها بالتساوي.

باعتبار مركزية رجال الدين في المجتمعات العربية، فإننا لم نشهد إلَّا قليلاً الدور الطليعي لرجال الدين في النقاشات الكبيرة التي تستهدف استقرار الناس ومصائرهم وعمران ديارهم، عوضاً عن السرديات الفائضة عن الحاجة عن واجباتهم وعن تطهيرهم من المخازي والذنوب، أو تلك الأصوات المندفعة نحو تقسيم الناس وإشعال نيران التعصُّب بينهم وتدمير التعايش السلمي في بلدانهم.

المشروع الفكري للصفار.. الحرية والتعددية والتسامح:

منذ نهاية الثمانينات الميلادية، كرّس الشيخ حسن موسى الصفار، (القطيف، السعودية، مواليد عام ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م)، وكان وقتها مقيماً خارج بلاده، ويتعاطى العمل السياسي والديني، ويمتلك شبكة واسعة من العلاقات بمختلف التيارات الفكرية والدينية والسياسية في العالم العربي، كرّس خطابه لإنضاج مشروع يتَّصل بمشروع أوسع شهده العالم الإسلامي منتصف القرن التاسع عشر، وهو مشروع الإصلاح الديني. الحقيقة أن الجهد الأكبر بذله الصفار نحو تقديم خطاب إسلامي متحرِّر من أثقال التاريخ

وتراث الخصومة والانشقاق، وتقديم خطاب إسلامي أكثر تقدمية، وقادر على تحفيز الناس نحو الحركة والإبداع عوضاً عن الاستكانة للحظة الآسرة المعيقة لمسيرتهم نحو المستقبل.

الخطاب الجديد للصفار، لا يخلو من براغماتية أيضاً، هو يهدف إلى دفع الناس الذين يشعرون بالتهميش والإقصاء، إلى كسر قيودهم والخروج من التابوهات المظلمة التي يعيشون فيها: «إذا كان هناك بالفعل من يهدف إلى حشركم نحو الهامش، فعليكم أن تكسروا هامشكم، وتسيروا نحو المتن!. أن تعبروا الجسر للوصول إلى القلب». أما السبل والوسائل فتبدأ من الذات، من الثقافة المقيّدة لحركة الناس للخروج نحو عالم أكثر انفتاحاً.

يعيّ الصفار أن العزلة التي يعيش فيها مجتمعه ليست قَدَراً، ويمكن اختراقها. والسبيل الأبرز لكسر العزلة عن هذا المجتمع هو أن يبادر هو نفسه للتواصل والانفتاح. وهذا يتطلَّب ثقافة جديدة قائمة على تعظيم المشتركات، وتصغير الفواصل، وتحييد الخصوصيات.

معلوم أن الانعزالية لا تقود أصحابها سوى نحو التعصُّب والتطرُّف، هكذا يخبرنا عالم الاجتماع العراقي علي الوردي، في كتابه: «مهزلة العقل البشري»، يقول: «كلما كان الإنسان أكثر انعزالاً كان أكثر تعصُّباً وأضيق ذهناً».

ولذلك، كان الانفتاح والتواصل بين أبناء الوطن، هدفاً سامياً سعى اليه. أدرك الصفار أن أحداً قبله لم يحرّك عجلة هذا الانفتاح سوى عبر مبادرات فردية لا تُشرك المجتمعات في نسج شبكة الأمان الاجتماعي هذه. ولذلك يمكن أن تكون هذه الحركة، مشروعاً حقيقيّاً ومتبلوراً وناضجاً،

مهما كانت نتائجها؛ لأنها فتحت الطريق نحو خروج الناس من عزلتهم، ثم سعت -أيضاً- لدعوة الآخرين للتلاقي في منتصف الطريق. كان استضافة شخصيات من التيارات الدينية التي اعتبرها قطاع واسع من جمهوره تمثّل أصواتاً للعصبية والتشدُّد وإبداء الخصومة، دعوتهم إلى القطيف عملاً مهمّاً للغاية؛ لأنه يستهدف تطبيع العلاقات بين أبناء الوطن، وكسر الحواجز النفسية، ودفع الناس للتعامل مع شركائهم في البلاد، وإسقاط ثقافة العزلة والقطيعة.

مضادات التواصل:

كان المشهد تحت سطوة خطاب التطرُّف غارقاً في التشاؤم، فقد تقطَّعت أوصال المجتمعات في بلد واحد، بفعل الفروقات الدينية والفكرية، ورغم الانفتاح السريع للعالم وثورة التواصل الإعلامي آنذاك، كان الناس في البلد الواحد من جميع الأصناف لا يرون شركاءهم في الوطن والإنسانية ولا يتواصلون فيما بينهم أو يتحاورون أو يخرجون اختلافاتهم للنقاش العام.. فلازال كل شاب يعيش ويكبر ويشيخ وهو لا يعرف صديقاً خارج جماعته الفكرية والطائفية، وربما كان ذلك الشاب زميله في مقعد الدراسة أو جاره في الحي المجاور.

عليك أن تُحرِّر نفسك وجماعتك أولاً من عقدة الخوف من الآخر. فالخوف مفتاح كل الشرور؛ لأنه أسرع الطرق لبناء الفاصلة الشعورية بين السكان، ونصب الحواجز وجدران الفصل، وترسيخ الكراهية، وتعميق الشعور بالعزلة. المجتمع الخائف كالفرد الخائف، فريسة سهلة لقوى الشر في الداخل والخارج.

كان الصفار يكرّس في مستمعيه عبر خطاباته المنبرية، أو لدى قُرَّائه ومتابعيه، أو من خلال التواصل الحثيث الذي كان يقوم به؛ الثقة بالنفس وبالذات الجماعية والقدرة على خق التميّز والإبداع بالتعاون مع الآخرين دون خوف أو توجُّس أو ريبة. وبمقدار ما كانت العزلة تُضعف المجتمع وتخنقه وتسلبه القدرة على التأثير والتمدُّد، فإنها كانت قادرة -أيضاً- على إشغاله بنفسه.. حيث البحيرات المغلقة يصبح ماؤها آسناً، وحياتها بائسة!.

دعائم المشروع الإصلاحي للصفار، هو النقد الذاتي أولاً، ثم تحويل المخزون التراثي إلى عنصر للتقدُّم نحو الأمام عوضاً عن المراوحة في المكان. والجرأة في التواصل مع الآخرين. هذا التواصل الذي يحتاج أولاً إلى بناء قاعدة من الثقافة تقوم على المشتركات، وتعزيز الثقة بالشريك الوطني، واعتبار الوطن وعمارته مسؤولية مشتركة تستحق التضحية والعطاء.

التنوع قوة:

في حديث له خلال حفل الاستقبال أقامته (جمعية الطلبة السعوديين) في جامعة (فيرجينيا كومنولث) في عاصمة ولاية فرجينيا (ريجموند) يوم الاثنين ٢٤/ ٥/ ٢٠١٠م، تحدَّث الشيخ حسن الصفار للطلاب الشباب عن مفهومه للتنوُّع، قائلاً: «إن التنوُّع يمنح المجتمعات قوة؛ لأن التنوُّع تكامل بمعنى آخر، ولذلك فإن المجتمع، أي مجتمع، الذي يؤمن بهذه الحقيقة ولا يسعى إلى تجاوزها أو إلغائها يكون مجتمعًا متطوِّرًا ونامياً وإيجابيًّا، أما المجتمع الذي يلغي في حساباته التنوُّع، إن بسياسات الإقصاء أو إلغاء الآخر أو التزمت والتعنُّت، فإنه بذلك يحارب سُنَّة اللَّه تعالى في خلقه، ولذلك فإن مثل هذا المجتمع يفشل ولا يتمكَّن من النهوض، بل إنه يعيش المشاكل

المزمنة، كما هو الحال في الكثير من المجتمعات التي ترى مجموعة في نفسها أنها الأفضل من غيرها، فتسعى لإلغاء الآخر والاستئثار بكل ما في البلد من خيرات وإمكانيات، وهذا ما يجب أن ننأى بأنفسنا عنه».

وأضاف: «لقد حدَّد اللَّه تعالى الطريقة المثلى لتوظيف التنوُّع لصالح المجتمع، والتي تكمن في الحوار الذي هو الباب الحضارية للتعارف الذي يفضي إلى التعايش، ولذلك فإن اللَّه تعالى حدَّد (التقوى) التي تعني الأداء الحسن، كمعيار وحيد للتفاضل بين أفراد المجتمع بعيدًا عن العنصرية والعصبية والتمييز بكل أشكاله».

مشروع العبور نحو الدولة:

كثير من الباحثين يعتبرون العام ١٩٩٠، وما شهده في الثاني أغسطس (آب) من الغزو العراقي للكويت، بداية التحوُّل الرئيسي في المشروع السياسي للشيخ حسن الصفار. المشروع القائم على أن الوطن قيمة عليا، وعلى مرجعية الدولة وسلامتها ووحدة أراضيها ومنع التدخل في شؤونها أو الاستقواء عليها، واعتبار أن الإطار الوطني السلمي والقانوني هو المرجعية الوحيدة لحلّ كافة الإشكالات الناشئة.

لكن التحوُّل الفكري كان سابقاً عن هذا التاريخ، فقبل شهور من هذا التاريخ كان الشيخ يحاضر عبر منصات متعدِّدة لآلاف المستمعين الذين أدهشهم خطابه الفكري الجديد. مثّل كتاب «التعددية والحرية في الإسلام: بحث في حرية المعتقد وتعدُّد المذاهب» صدرت الطبعة الأولى منه في بيروت ١٩٨٩، وكان الكتاب وقتها ولا زال أحد أهم الأصوات الداعية لحرية المعتقد والحرية الدينية والتعدُّدية والوحدة ونبذ التعصُّب والتكفير

والإرهاب الطائفي.

مثل هذا الكتاب باكورة المشروع الجديد الذي أصبح الشيخ حسن الصفار يُبشِّر به. وهو الحرية الفكرية والتسامح الديني. التأصيل العميق لفقه التسامح استدعى جهداً ملحوظاً، ولأن الكتاب كان جزءًا من مجموع واسع من الخطاب الديني الجماهيري فقد سعى الشيخ الصفار في هذا الكتاب وما بعده لتنقية التراث الديني من ثقافة الاستحواذ على الحقيقة، والتعسُّف في استخدام النصوص لتنزيه الذات، والاستعلاء على الشركاء في الدين والأرض والوطن، بل إنه عالج بنحو واسع وشفَّاف ثقافة التبرير التي تمنح الأعذار للذات الجماعية حتى في توجُّهاتها نحو الانعزالية والقطيعة.

قبل الشروع نحو الآخر كان الخطاب الجديد للشيخ حسن الصفار يُحرِّض الناس على التخلِّي عن المسلَّمات الفكرية التي تجعلهم رهينة للأحكام الجاهزة التي تقدّمها المرويات والسرديات غير المثبتة. بعضها يقوم على ترسيخ العدائية مع الآخر، أو الاستجابة السلبية نحو مصدر العداء والتحدِّي، أو الشعور بنشوة خلاصية توفرها تلكم النصوص لأتباعها، وتُشعرهم بالاستغناء عن محيطهم.

الخطاب الجديد لا يُغذِّي نشوة التميّز عند الأتباع، كما أنه لا يرضى بالاستكانة لشعور المظلومية، ويُعمل مبضع النقد في كل الثقافة الدينية خصوصاً التي تمنح أتباعها خنوعاً لواقع متخلّف، أو التعالي عن التغيير، أو الرغبة في الركون إلى السائد. مع ما يلزم من تضحيات عميقة يقدّمها الشيخ وهو مدرك لما يمثّله هذا النوع من الخطاب في تحريك المياه الراكدة وإيقاظ الوحوش من سباتها، الفكر السائد، أو المتشدّد كلاهما يشعر بالقلق من

التغيير، وثمَّة من نصَّبوا أنفسهم حُرَّاساً على العقيدة والضمير يشعرون أن هذا الخطاب يمسّ مكانتهم ونمطهم في العيش والتفكير. وجميع هؤلاء، ومعهم على المقلب الآخر متطرّفون إقصائيون؛ وجدوا قوة وسلاسة في هذا الفكر تُمكِّنه من كسر الحواجز واقتحام السدود، لذلك التقى المتشدّدون مهما تنوَّعت مشاربهم، في الشعور بالذُّعر من هذا المشروع، ومحاولة احتوائه وتشويهه والتصدِّي له.

في تقديمه لهذا الكتاب، يرى الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، أن هذا الكتاب «يعالج مسألة الحرية والتعدُّدية في الإسلام. وهو يشقُّ طريقًا في مجال غير مطروق في الأبحاث الفقهية والفكرية الإسلامية».

يضيف: «أستطيع أن أقول: إن فضيلة الشيخ الجليل قد وُفِّق توفيقًا كبيرًا في إثارة الأسئلة الصعبة في هذا الحقل، ووُفِّق إلى حدٍّ كبير في تقديم الإجابات الملائمة عن الأسئلة المطروحة حول التعدُّد والتنوُّع فكرًا وفقهًا، واستطاع أن يثبت أن الموقف الإسلامي من التنوُّع والتعدُّد هو موقف إيجابي وليس سلبيًّا. فالإسلام يُعطي شرعية الوجود في العقائد والمذاهب والاتِّجاهات الفكرية المخالفة له، ولا يفرض على أصحابها الإذعان له من دون قناعات، ولا يُكره على اعتناقه أحدًا».

أما المفكّر الإسلامي الدكتور محمد فتحي عثمان، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة جنوب كالفورنيا، فرأى أن الكتاب يظهر «كيف يضمن الإسلام للبشر الحرية التي تُصلح وتصون وتُنمِّي طبيعتهم في الفكر وحرية الإرادة من جهة، وكيف يكفل لهم في تعدُّديتهم وحريتهم التكامل والتعاون بما يحقّق لهم إطاراً من الوحدة يتناسب مع كرامة بني آدم، فهي ليست وحدة

القمع والمسخ والتشويه وصبّ الأفراد والجماعات في قالب واحد مفروض من الفكر والسلوك».

ثمّ يلاحظ أن الكتاب يبرز المشروع الفكري لصاحبه، فيقول: «أشهد أنني استمعت إلى الشيخ المؤلِّف وهو الداعية الإسلامي الملتزم بأحكامه، فوجدته على خلاف كثير من الدعاة الملتزمين غفر اللَّه لنا ولهم، يؤكّد حقوق الإنسان وحريته باعتبارها من نعم اللَّه الكبرى (...) وكتابه حِداء عذب جميل للحرية، وتأصيل لها في طبيعة البشر ودين اللَّه، وتأكيد لها في عالمنا المعاصر وقضايانا وواقعنا، وهو حريص على رفض تراث القهر والقمع والقسر وكشف زيفه وبطلانه مهما تعدَّدت مزاعمه أو تطاولت أحقابه».

تلا هذا الكتاب، سلسلة من المؤلفات من بينها كتاب: «التنوُّع والتعايش: بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية»، والذي طبع عدة طبعات قدّم لطبعته الثانية الراحل الدكتور محمد عبده يماني، وزير الإعلام السعودي الأسبق، ويعالج الكتاب التنوُّع كظاهرة كونية، والتي بدورها أفرزت حالة التنوُّع العرقي، واللساني، والديني، وهي مظهر للقدرة والحكمة الإلهية. كما يعالج الكتاب تنوُّع المذاهب الإسلامية، وتعدُّد المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية.

وينتهي الكتاب إلى ضرورة التعايش باعتبارها الإطار السلمي لحفظ التنوُّع والتعدُّد، وأن التعايش والاعتراف المتبادل يمثّل الخطوة الأولى على طريق التنمية والتقدُّم وعمارة الأرض وسلامة الأوطان.

وكتاب «التسامح وثقافة الاختلاف: رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات» الذي صدر في طبعتين الأولى في العام ٢٠٠٢، وهو كتاب

في العلاقات الداخلية للمجتمعات، ومن خلال خمسة فصول، يبحث الكتاب في فلسفة العداوة، وفي ثقافة الاختلاف، وبناء العلاقات المشاركة والاحترام، والمسؤولية الاجتماعية، فـ«العلاقات داخل أي مجتمع ليست مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة، كان المجتمع مهيَّأً للتقدُّم والانطلاق. وعندما تسوء العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه»، كما يقول الكتاب.

وتتالت المؤلفات التي شقَّت طريقاً واسعاً نحو النقاش المفتوح الذي بدأ الشيخ حسن الصفار يطرحه أو يشارك فيه من خلال المنابر الفكرية والإعلامية، من بينها كتاب «رؤية حول السِّجال المذهبي»، ويضم مداخلات تلفزيونية، تدعو للحدّ من السجالات المذهبية، وتغليب لغة الحوار، والإيمان بمرجعية الدين والوطن كقيم عليا للتعايش والتعاون بين مختلف المكوِّنات. يتضمَّن الكتاب كذلك نص الحوار مع الشيخ الصفار ضمن برنامج (الشريعة والحياة) في قناة الجزيرة بتاريخ ١١ يوليو/ تموز ٢٠٠٤م.

ويمكن -أيضاً- إضافة كتاب «السِّلم الاجتماعي: مقوِّماته وحمايته» (طبعة دار الساقي، لندن ٢٠٠٢) ضمن سلسلة المؤلفات التي تناولت ثقافة التعايش وترسيخ المواطنة، يتناول هذا الكتاب مقوّمات السِّلم الاجتماعي، وكيف تتم حمايته من تأثيرات العوامل المناوئة؟ ويؤسِّس المؤلف إلى حقيقة مفادها «أن تحقُّق السِّلم الاجتماعي عامل أساسي لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع. وإذا ما فُقدت حالة السِّلم الداخلي أو ضَعُفت، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هي تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار. وفي رحاب السِّلم الاجتماعي يمكن تحقيق التنمية والتقدُّم نحو المصالح المشتركة،

وتتعاضد الجهود والقدرات في خدمة المجتمع والوطن». كما يشتمل على نص محاضرة للشيخ الصفار في ندوة فكرية في العاصمة السعودية الرياض، وكتاب «الحوار والانفتاح على الآخر»، وكتاب «المذهب والوطن: مكاشفات وحوارات صريحة».

صحب هذه المؤلفات -أيضاً- بعض الدراسات المعمَّقة مثل كتاب «الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ٢٠٠٥م. وكتاب «السياسة النبوية ودولة اللاعنف»، مؤسسة العارف، بيروت - لبنان ٢٠٠٦م، حيث يستعرض هذا الكاتب جملة من النماذج التي ضربها نبي الإسلام في تأسيس مجتمع قائم على الإخاء والتعاون وبناء الوحدة السياسية والاجتماعية بين أطرافه، والعمل على إنهاء الصراعات والانقسامات، حيث كان مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام ممزَّقًا يعجّ بالصراعات بين القبائل المتناثرة فيه، وجاء الإسلام ليُوحِّد تلك القبائل تحت الهوية الإسلامية ذات الأهداف السامية، واعتبار أن المسلمين تربطهم رابطة الإسلام، وأنهم إخوة.

رؤية للتعايش:

في الخامس من مارس (آذار) ٢٠٠٧، كتب الشيخ حسن الصفار في صحيفة الأيام البحرينية، ما أسماه «رؤية حول التعايش المذهبي»، قال في مقدمة المقال: «تهبُّ على الأمة الإسلامية عاصفة فتنة طائفية هوجاء، تُهدِّد بتمزيق مجتمعات الأمة، وتقويض أمنها واستقرارها، وإشغالها عن مواجهة تحدِّيات الهيمنة الأجنبية، والتخلُّف الحضاري. وتنطلق هذه الفتنة من حال الاقتتال والمجازر اليومية الفظيعة في العراق، هذا الحال الذي يعرف

الجميع دور الاحتلال الأمريكي البغيض في صنعه، كما يعرف الجميع الدافع السياسي للأطراف المشاركة فيه، حيث يسعى كل طرف لأخذ موقعه وحصَّته في الواقع العراقي الجديد، بعد عقود من الاستبداد وهيمنة الحزب الواحد والقائد الفرد، الذي همَّش وقمع الجميع، وصادر إرادة كل الشعب العراقي».

ثمّ يقول مشدِّداً: «مع وضوح هذه الخلفية للأحداث المؤلمة في الساحة العراقية، إلَّا أن هناك إرادة وإصراراً على إثارة الفتنة الطائفية من خلالها، وتصويرها وكأنها احتراب مذهبي، والترويج لخطر داهم من قبل الشيعة على السنة ومن قبل السنة على الشيعة» .

وقد اشتكى في هذا المقال من عودة الخطاب الطائفي التحريضي في وسائل الإعلام ومنابر المساجد، كما اشتكى أن هذا الخطاب اجتذب فئات جديدة لم تكن معروفة بانجذابها نحو هذا الخطاب، وهم التيارات الليبرالية والعلمانية الذين انساقوا خلف هذه الخطابات. ثم يؤكد: «أمام هذه الفتنة الهوجاء كان متوقَّعاً من علماء الإسلام أن يأخذوا دور التحذير والتنبيه، حتى لا تسقط الأمة في هذا الفخ الخطير، وأن يتحرَّكوا سريعاً لمحاصرة الحريق المشتعل في العراق، حتى لا يمتدَّ لهبه إلى سائر المناطق، ومن ثَمَّ العمل على مساعدة الشعب العراقي للخروج من محنته بأقل قدر من الخسائر والتضحيات».

يضيف: «لكن المؤسف جدّاً انزلاق بعض العلماء واستدراجهم إلى أوحال الفتنة، ومشاركتهم بوعي أو غفلة في تأجيج إضرامها، عبر التعبئة وإثارة الضغائن والأحقاد، وفتح ملفات الخلافات العقدية والفقهية، وتجميع

أوراق السقطات والأخطاء».

إلَّا أنه يتوقَّف أمام الوعي السياسي والشعور بالمسؤولية الذي تميّز به المرجع العراقي الأعلى السيد علي السيستاني: «الرجل الذي ضرب أروع الأمثلة المعاصرة في التزام المبدئية، والحرص على وحدة الأمة، والتسامي على الجراح».

في ٢٠٠٧ طرح الصفار رؤية للتعايش المذهبي. لاقت وقتها رواجاً مؤقَّتًا في وسائل الإعلام، الرؤية تستند إلى وعي بالمخاطر المحدقة بالأمة جميعها، و«إن من يعي هذه التحدّيات الخطيرة يجب أن يرفض أيَّ إضعاف لجبهة الأمة الداخلية، وأي إرباك لساحتها بالنزاعات والخلافات» .

وهي ترى «أن التنوُّع المذهبي وما يعنيه من اختلاف في بعض المعتقدات والأحكام ليس شيئًا طارئًا، ولا حادثًا مستجدًا، بل هو واقع عاشته الأمة طيلة عهودها السابقة، فلا بد من قبول هذا التنوُّع والتعدُّدية المذهبية، وهذا ما نصَّت عليه توصيات قمة مكة الاستثنائية بين قادة الدول الإسلامية، في ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م».

كما تؤكِّد على «تحقيق التعايش السلمي على أساس الاعتراف والاحترام المتبادل، وحفظ الحقوق الإنسانية والوطنية، ونبذ المشاحنات والمهاترات المذهبية والطائفية. والتأكيد على: حرمة دم كل مسلم سنيّاً كان أو شيعيّاً، وحرمة عرضه وماله، والتبرؤ من كل من يسفك دماً حراماً أيًّا كان صاحبه».

في (١٦ فبراير/ شباط ٢٠١٠) نشرت جريدة «القدس العربي»،

أن الشيخ الصفار كشف خلال خطبة الجمعة في مدينة القطيف عن بنود ميثاق التعايش الطائفي الذي جرى التداول بشأنه بين رموز سنية وشيعية في السعودية، وتضمَّن وقف التكفير وتجريم الإساءات الطائفية ورفع التمييز وتعزيز وحدة الأمة. وقال الصفار: «نحن بحاجة لمعالجتين، الأولى عبر الأنظمة والقوانين التي تجسد المساواة بين المواطنين، ولكننا بحاجة -أيضًا- لجهد على الصعيد الأهلي والاجتماعي».

وقال «نحن نتحدَّث عن ميثاق شرف يتعلَّق بالعلاقات الأهلية بين السنة والشيعة مع أننا نجزم ونعلم بأن المسألة بحاجة إلى معالجة رسمية». مستدركًا بأن توقيع ميثاق تعايش بين العلماء من الطائفتين لن يحلَّ المشكلة، «نريد أن نُهيِّئ ونصنع الأجواء المناسبة التي تدفع لحفظ حقوق جميع المواطنين ومعالجة الطائفية».

وفي حوار تلفزيوني مع قناة (الإيمان) التابعة لمكتب المرجع اللبناني الراحل السيد محمد حسين فضل اللَّه، بتاريخ ٣/ ٧/ ٢٠١٢، تحدَّث الشيخ الصفار مؤصِّلاً لرؤيته بشأن التعايش، يقول: «في هذا العصر، تعاني مجتمعاتنا الإسلاميّة معاناةً كبيرة فيما يرتبط بقدرتها على التّعايش واستيعاب حالة التنوّع والتعدّد الّتي هي حالة طبيعيّة في كلّ المجتمعات البشريّة. وطوال تاريخ الأمّة، كان هناك تنوّع في الآراء والمدارس والمذاهب، إلَّا أنّ السّاحة ولا سيّما في القرون المتأخّرة، بدأت تضيق ذرعاً بالرأي الآخر وبالاتجاه الآخر، فأصبحت هناك معاناة سبّبت حالات من الإقصاء والتّغييب والتّهميش، وأدّى ذلك إلى النزاعات والصّراعات فيما بين المذاهب والطّوائف».

يضيف: هذه المعاناة دفعتني لكي أهتمّ بدراسة ثقافة الفكر الإسلاميّ من خلال مصادره الرّئيسة من الكتاب والسنّة، وسيرة رسول اللّه ﷺ، وسيرة الأئمّة الطاهرين عليهم السلام، وسيرة الأولياء الّذين كانوا يمثّلون حالةً من الالتزام بالقيم والمبادئ الدينيّة، «ورأيت أنّ ما تعانيه الأمّة من حالات الإقصاء والتّهميش والقمع والإرهاب الفكريّ، لا تنسجم مع المبادئ الدينيّة الّتي تصدح بها آيات القرآن الكريم، والّتي تتحدّث عنها أحاديث السنّة الشّريفة وروايات أهل البيت عليهم السلام، وبدأت أتساءل: لماذا نحن نعيش هذا الواقع، مع أنّنا ننتمي إلى دين يتحدَّث عن حرية الفكر والتّعبير عن الرأي، ويتحدّث عن كرامة الإنسان وحقوق الإنسان، بغضّ النّظر عن دينه ومذهبه ورأيه الفكريّ والسياسيّ. هذا ما دفعني للاهتمام بهذه الأفكار وبهذه القضايا».

مشروع التطرف ومشروع الاعتدال:

يحسب للشيخ حسن الصفار، أنه لا يكلّ ولا يملّ من بذل الجهد المضني والمخيب للآمال، وعديم الجدوى أحياناً لبناء الجسور مع المختلفين معه ومع بيئته المذهبية، بل إنه قطع شوطاً لم يسبقه أحد من أبناء بلده للعبور نحو الضِّفَّة الأخرى والدخول في حوارات أساسها فكّ الاشتباك وتحرير الناس من أغلال التعصُّب.

في مقال نشرته جريدة «الوطن» القطرية (٢٠ أبريل/ نيسان ٢٠٠٨)، يقول الشيخ حسن الصفار: «من الطبيعي أن تكون هناك إفرازات لاتجاهات التشدُّد المذهبي، تتمثَّل في فتاوى التكفير، وخطابات التحريض على الكراهية، وتبادل الاتهامات، وحالات العداء، والانتهاك للحقوق المادية والمعنوية، كسياسات التمييز الطائفي، وحوادث العنف والعدوان. إن هذه

الإفرازات منتج طبيعي لاتجاهات التشدُّد المذهبي، ولواقع التباعد والتنافر بين المنتمين للمذاهب المختلفة. والدعوة إلى الانفتاح والتقريب والوحدة إنما جاءت لإنقاذ الأمة من هذا الواقع السيِّئ، ولإصلاح خلل العلاقة بين أتباع المذاهب، بما يضع حدّاً لتلك الإفرازات البغيضة».

ثم يقول: «إن صدور إساءات ضد هذا المذهب أو تلك الطائفة يجب أن يُشكِّل مبرِّراً ودافعاً للاهتمام بدعوة التقريب والوحدة، وللتدليل على ضرورتها وإلحاح الحاجة إليها، لأنها تقدّم المعالجة الجذرية، وتبشّر بعهد جديد من الأخوة والتفاهم والتعاون». (المصدر السابق).

كان الوصول للآخر المختلف في أشد الأزمان تعصُّباً وتطرُّفاً يعني أول ما يعنيه خسارة قطاع واسع من الجمهور المتعطِّش نحو الخطابات الشعبوية والتحريضية، والتعبير الحاد بلغة الانتقام والتشفِّي. يرى الشيخ حسن في هذا المقال أن «المتحفِّظين يُوظِّفون حصول هذه الإساءات لتعزيز الشكوك في مصداقية الدعوة إلى الانفتاح والتقريب، فكلما وقع حدث طائفي، أو حصلت إساءة مذهبية، استغلَّها المتشدِّدون لتعزيز مواقعهم، وتبرير مواقفهم المتطرِّفة، ورفع المتحفِّظون عقيرتهم تجاه دعاة الوحدة والتقريب، ليضعوهم في موقع المساءلة والمحاكمة، كيف تدعون إلى الوحدة مع هذا الطرف وقد فعل هكذا؟ وكيف تريدون التقارب مع تلك الجهة وقد قال أحدهم كذا؟». (المصدر السابق).

كما يقول في حوار تلفزيوني مع قناة (الإيمان) اللبنانية، بتاريخ ٣/ ٧/ ٢٠١٢: «هذه الثّقافة التحريضيّة التعبويّة، يجب أن تواجهها ثقافة تبثّ التّسامح، وتجعل أبناء الأمّة يقبلون بعضهم بعضاً، ويتّجهون نحو التعايش

والانسجام فيما بينهم (...) (كما) أنّنا نحتاج إلى النّماذج الوحدويّة وشخصيّات من القيادات الدّينيّة ومن المؤسّسات الدّينيّة ومن الجماعات الدّينيّة، لتقوم بمبادرات تتبنَّى قضيّة الوحدة، وتتبنَّى ثقافة التَّسامح؛ كما أنّ المبادرات الفعليّة العمليّة لها دور كبير، فلا يكفي أن نتحدّث عن الوحدة دون أن نصنع مؤسّسات، ودون أن نصنع تجمّعات ومبادرات تجعل من الوحدة واقعاً على الأرض تعيشه الأمّة وتشاهده جماهيرها؟».

التعايش لمواجهة الإرهاب:

في أعقاب الأحداث السياسية والأمنية العاصفة التي شهدتها المنطقة منذ مطلع الألفية، ابتداءً من أحداث سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١، ثم غزو أفغانستان، واحتلال العراق ٢٠٠٣ وما أعقب هذه الفترة من موجة عالية من التطرُّف الإرهابي وظهور التنظيمات التكفيرية، التي راحت تشيع القتل في المختلفين معها على أساس الدين والانتماء المذهبي، صعدت للسطح هواجس من الهيمنة والتمدُّد المذهبي، وسط فوضى من الاحتراب والاقتتال الطائفي غير المسبوق. مع تصاعد نبرة الخطاب التحريضي والفتنوي، وقد صاحب انقلاب موازين القوى في العراق لانقلاب موازين القوى في الإقليم، وكان نذيراً بإشاعة المخاوف كلّ من الآخر.

أعقبت أحداث العراق الدامية، حرب لبنان، ٢٠٠٦، ثم اضطراب الأوضاع هناك، وتلتها أحداث الربيع العربي ٢٠١٢، والحرب في سوريا تحديداً، والاضطرابات الأمنية، وغيرها، كل ذلك أدَّى لشدّ العصب الطائفي ورفع وتيرة التشنُّج المذهبي، وتراجع شعارات الحوار والتعايش للخلف.

وكان أخطر تلك الأحداث، وأشدَّها فظاعة؛ التفجيرات المتوحِّشة

التي استهدفت المصلين في المساجد في السعودية، حيث سقط نحو ٥٦ شهيدًا وأكثر من ١٤٠ مصابًا في ٦ تفجيرات استهدفت المساجد في الأحساء والقطيف والدمام وعسير ونجران وسيهات، ثم أمتدت لمسجد في الكويت.

بدأت شرارة هذه العمليات التي اتَّخذت أساليب انتحارية ضد المدنيين في أماكن عبادتهم في نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠١٤، حيث دخل الإرهاب في السعودية منعطفًا جديدًا استهدف السِّلم الاجتماعي، وسعى لضرب الوحدة الوطنية، ابتداءً بتفجير حسينية في قرية الدالوة بالأحساء في يوم العاشر من محرم ١٤٣٦ (نوفمبر «تشرين الثاني» ٢٠١٤) أدَّى الانفجار لمقتل وإصابة ١٥ شخصًا.

تلاها تفجير مسجد الإمام علي في القديح (محافظة القطيف) في ٢٢ مايو (أيار) ٢٠١٥، وأدَّى لاستشهاد ٢٢ شخصًا وإصابة ١٠٢ آخرين.

تلاه تفجير مسجد الإمام الحسين في حي العنود بالدمام في ٢٩ مايو ٢٠١٥ وأدَّى لاستشهاد ٤ أشخاص كانوا يحمون المصلين.

إرهاب المساجد أصاب في ٦ يوليو (تموز) ٢٠١٥ مسجدًا لقُوَّات الطوارئ في أبها التابعة لمنطقة عسير جنوب غرب السعودية، وأدَّى لاستشهاد ١٥ شخصًا بينهم ١٢ من قوَّات الطوارئ.

وفي يوم الجمعة ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١٥ (٣ محرم ١٤٣٧هـ) استشهد خمسة أشخاص في مدينة سيهات وأصيب عدد آخر من المواطنين بعد هجوم استهدف مسجدًا بحي الكوثر بسيهات في محافظة القطيف.

وفي ٢٧ أكتوبر ٢٠١٥ فجَّر انتحاري نفسه داخل مسجد في نجران

أثناء صلاة المغرب، ونتج عن التفجير الإرهابي مقتل شخصين فيما جُرح ١٩ آخرون على الأقل.

وفي صلاة الجمعة في شهر رمضان (٢٦ يونيو/ حزيران ٢٠١٥)، فجَّر انتحاري نفسه وسط المصلين في مسجد الإمام الصادق بمنطقة الصوابر في الكويت، وأدَّى لمقتل ٢٧ شخصًا وإصابة ٢٢٧ آخرين.

هذه الأحداث الدامية، دفعت عدداً من المتنوِّرين، وبينهم الشيخ حسن الصفار إلى مضاعفة الجهد، لمنع الوقوع في الفخ الذي تريد الجماعات المتطرِّفة أن تسوق الناس بمختلف أطيافهم إليه. وقد آذنت هذه الأحداث بوصول النار التي كانت تستعر في الإقليم إلى الدار، وهي استهدفت الوحدة الوطنية والسِّلم الأهلي.

في بيان نشرته الصحف السعودية، (الشرق الأوسط ٦ نوفمبر ٢٠١٤) ردّاً على الحادث الأرهابي الأول بحق المصلين في الدالوة بالأحساء، قال الشيخ حسن الصفار: «إن المتطرِّفين الإرهابيين الذين استهدفوا قتل أبرياء في قرية الدالوة بمحافظة الأحساء، أرادوا من ذلك تفجير النسيج الاجتماعي الوطني، وإشعال الفتنة الطائفية»، داعيًا للرد على هذه الجريمة عبر «تعزيز التلاحم والتعايش الوطني».

وقال: إن «الردّ المطلوب على هذه الجريمة النكراء، هو تعزيز التلاحم والتعايش الوطني، بنشر ثقافة التسامح، وتجريم التحريض على الكراهية، وإدانة الشحن الطائفي». مشيدًا بموقف أهل الأحساء ووطنيتهم، «حيث أثبتوا ما كان متوقَّعًا منهم، وما هو معروف في تاريخهم من التسامي على الجراح، ونضج الوعي الديني والوطني، والتمسُّك بنهج التعايش والتسامح».

كما أشاد بمواقف التعاطف والتضامن الواعية النبيلة، التي انطلقت على مستوى الوطن، من مسؤولين وعلماء وكتّاب وإعلاميين، «استنكروا هذا العدوان الأثيم، والتي تؤكّد الوحدة والمساواة بين المواطنين، وترفض نهج التطرُّف والإرهاب والتكفير، وأن هذه المواقف المشكورة هي خير سلوى وعزاء، ويجب استثمارها والتأسيس عليها لتعزيز الوحدة الوطنية، وسدّ الثغرات التي ينفذ منها أصحاب الفكر الضال».

كما ثمَّن الجهود المبذولة من رجال الأمن «الذين سقط منهم شهداء وقدَّموا أرواحهم وبذلوا كل جهدهم في مواجهة الإرهابيين وحماية الوطن»، مُقدِّمًا إلى أهلهم وذويهم واجب العزاء.

بيان الصفار كما البيان المشترك للعلماء والمفكّرين في الأحساء وبيانات مشايخ القطيف، في مجمل أحداث الإرهاب التي أصابت المصلين في المساجد، كلها شدَّدت على حماية الوحدة الوطنية، واعتبارها السور الأعلى لحماية المواطنين جميعاً، والتعويل على الدولة باعتبارها الحامي الوحيد لأبنائها.

على أنه لا بد -أيضاً- من الإشادة بالمستوى الرفيع لعلماء وشخصيات هذه المنطقة ومثقَّفيها وللنُّخب الاجتماعية وللجمهور المفجوع الذين أظهروا قدراً كبيراً من الشعور الوطني، ومن التماسك، وضبط النفس، والعضّ على الجراح، والتسليم للدولة والثقة بمؤسساتها، والامتناع عن تحويل الأحداث إلى مناسبة للتصعيد أو الفتنة. لقد وأدوا الفتنة في مهدها، ولم يسمحوا أن تمر فوق أجسادهم لتحقيق مآربها.

ماذا أنجز هذا المشروع..؟

لعل الإنجاز الأبرز لهذا المشروع الذي تبنَّاه الشيخ حسن الصفار، ورعاه، وضحَّى من أجله، ودفع ثمناً باهضاً للذود عنه، أنه جعل الناس يرون بعضهم بشكل مباشر مخترقين حواجز التعصُّب وأسوار التشدُّد. سقط مركَّب النقص الذي كان يشعر به البعض تجاه الآخرين، وأصبحت «المواطنة» حقيقة ثابتة، لا يمكن الاستهانة بها.

من نافلة القول الإشارة -أيضاً- إلى أن السعودية شهدت تحوُّلات عميقة وواسعة أدَّت لتراجع خطاب الكراهية بشكل واضح، وهي في طريقها سريعاً لتعزيز هوية جامعة تجتذب الجميع وترمي ظلالها نحو الجميع.

ما كان حلماً في تلك الأيام، أصبح حقيقة. انكفأ المتشدِّدون للوراء، وأصبح الناس يُعبِّرون عن طبيعتهم وعن حبِّهم لبلدهم وللحياة أيضاً. توسَّعت المشتركات التي يلتقي في رحابها الناس من مختلف المذاهب والأطياف بعيداً عن فحص الـ(دي إن أيه) الطائفي، والمناطقي والقبلي. ربما من المُبكِّر القول: إننا وصلنا إلى الغاية، ولكننا في الطريق. وما يجعل المسير سهلاً وجود المبادرات القيادية الخلَّاقة، وأيضاً وجود أفكار التسامح التي لازالت تُغذِّي العربة للسير نحو الأمام.

لا زال مشروع الشيخ الصفار في تنقية التراث من ثقافة القطيعة، وتعزيز الثقة بالنفس، وتجسير التواصل مع الآخر، والعمل على تعظيم المشتركات وتصغير الفواصل، وتحييد الخصوصيات، وتعزيز الهوية الوطنية، وإعلاء شأن الدولة كحاضنة لأبنائها، مع التأكيد على احترام الإنسان وإعلاء مكانته في ظلّ المساواة والعدالة والكرامة الإنسانية.

يواصل الصفار ضخَّ الأفكار الداعية للتفاعل الإيجابي مع تطوُّرات العصر والتحوُّلات التي يشهدها العالم. مع التأكيد على الحوار كنافذة للتواصل والتعاون وبناء علاقات التآخي. لا يفتأ يُذكِّر بالمسؤوليات الفردية والجماعية لرعاية التنوُّع والاختلاف واحترامهما، وأن كل ذلك يبدأ من الفرد والأسرة ثم المجتمع والدولة. مجموع ما أنتجه من أفكار وهي كثيرة جدّاً تشمل المؤلفات والخطب الموسمية وخطب الجمعة واللقاءات الإعلامية، ومعها شبكة التواصل الواسعة التي يقوم بها، كلها تقريباً تصبّ نحو هدف واحد.. هو مشروع التسامح الديني والتعايش الوطني..

الفصل الأول

الشيخ الصفار

الشخصية والرؤى والأفكار

الشيخ الصفار
سعة علم ووعي عميق

المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

رُوي عن رسول اللّه ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن من ميراث الأنبياء العلم»، فالعلماء هم ورثة الأنبياء في نشر العلم، وهداية الناس، وإصلاح الأمة، وتطبيق معالم الدين.

إن تكريم وتقدير العلماء الرَّبَّانيين الواعين يُرسِّخ قيمة العلم والتقوى في المجتمع، ويُحفِّز الناس للالتفاف حولهم، والاستفادة من هديهم وعلمهم.

من هذا المنطلق، الأمة بحاجة إلى علماء تتوفَّر فيهم شروط الكفاءة من العلم والتقوى، الذين يمتلكون من الوعي الديني والاجتماعي ومعرفة الثقافات المشبوهة، والعالم الجليل حجة الإسلام والمسلمين الشيخ حسن

الصفار من العلماء العاملين الذين يستحقِّون الإجلال والتقدير، تدلُّ مؤلَّفاته الكثيرة في معارف الإسلام المختلفة على سعة علمه واطِّلاعه، وإلمامه بمشاكل المجتمع الذي يعيش فيه، كما تكشف حواراته ومناظراته ولقاءاته مع علماء المذاهب المختلفة عن وعيه العميق، وحكمته في تبيين معارف أهل البيت عليهم السلام، والدفاع عن منهجهم القويم سيما للشباب والنُّخب، وهو حريص على وحدة الأمة وتآلف أبنائها.

نسأل اللَّه تعالى له التوفيق والتسديد، في خدمة الدين الحنيف ومعالم أهل البيت عليهم السلام والأمة الإسلامية. والحمد للَّه رب العالمين، إنه سميع مجيب، والسلام عليكم جميعًا ورحمة اللَّه وبركاته.

قم – المقدَّسة

ناصر مكارم الشيرازي

٢٤ رجب ١٤٤٣هـ

مدرسة الامام امير المؤمنين
الحوزة العلميّة
قم المقدّسة

تأريخ: ١٤٠٠/١٢/٧
رقم:

ايران، قم المقدسة
ص ب: ٣٧١٥٦١٦٧٨٣
تلفون: +٩٨٢٥٣٧٤٧٣
+٩٨٢٥٣٧١٠٢٠
فكس: +٩٨٢٥٣٧٧٤٣١١٤
www.makarem.ir
info@makarem.ir

بسم الله الرحمن الرحيم

روي عن رسول الله(ص): «إن العلماء ورثة الانبياء و إن من ميراث الانبياء العلم» فالعلماء هم ورثة الانبياء في نشر العلم وهداية الناس وإصلاح الأمة وتطبيق معالم الدين.

إن تكريم وتقدير العلماء الربانيين الواعين يرسّخ قيمة العلم والتقوى في المجتمع، و يحفزّ الناس للالتفاف حولهم، والاستفادة من هديهم وعلمهم.

من هذا المنطق، الأمة بحاجة الى علماء تتوفر فيهم شروط الكفاءة من العلم والتقوى الذين يمتلكون من الوعي الديني والاجتماعي ومعرفة الثقافات المشبوهة، فان العالم الجليل حجة الإسلام والمسلمين الشيخ حسن الصفار من العلماء العاملين الذين يستحقون الإجلال والتقدير، تدل مؤلفاته الكثيرة في معارف الإسلام المختلفة على سعة علمه واطلاعه، والمامه بمشاكل المجتمع الذي يعيش فيه، كما تكشف حواراته ومناظراته ولقاءاته مع علماء المذاهب المختلفة عن وعيه العميق، وحكمته في تبيين معارف أهل البيت عليهم السلام و الدفاع عن منهجهم القويم سيما للشباب والنخب وهو حريص على وحدة الأمة وتآلف أبنائها المتنامي.

نسأل الله تعالى له التوفيق والتسديد، في خدمة الدين الحنيف ومعالم اهل البيت عليهم السلام والأمة الاسلامية. والحمدلله رب العالمين. انه سميع مجيب والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

قم ـ المقدسه

ناصر مكارم الشيرازي

٢٤ رجب ١٤٤٣

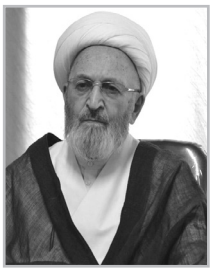

الشيخ الصفَّار
عالم باحث ومفكر قدير

المرجع الديني الشيخ جعفر السبحاني

قال الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللَّوابس»[1].

من النواميس المطّردة سريان الحركة في العالم المحسوس كلّه، فالعالم بجوهره في حال التبدّل والتغيّر وليس له القرار والثبات لحظة واحدة، فالمجرّات وما تحتوي من المنظومات الشمسية وما فيها من الكواكب والنجوم في مسير التغيّر، والأرض وما فيها من الأجناس والأنواع والكائنات الحيّة من مصاديق هذه الضابطة[2]، فكأنه سبحانه يشير إلى هذا النوع من التحوّل في الجبال بقوله: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾[3]، فإذا كان

(١) الكافي: ١/ ٢٧، الحديث ٢٩، كتاب العقل والجهل.

(٢) قد أثبتت الفلسفة الصدرائية وجود الحركة في طبائع الأشياء وجوهرها وراء الحركة الانتقالية. لقراءة تفصيلها وبرهانها لاحظ: كتاب اللَّه خالق الكون.

(٣) سورة النمل، الآية ٨٨.

المجتمع الإنسانيّ جزءًا من هذا العالم فلا يستقرّ ولا يثبت، بل يتطوّر أطوارًا مختلفة، لكلّ طور حكم، ولكلّ داء دواء.

وعلى ذلك، فحاجات الناس وإدارتها رهن التعرّف على المجتمع وخصائصه حتى تكون الإجابة على وفق الحاجات، ولذلك نرى أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يختلفون في كيفية التعامل مع المجتمع ومع الحكومات حسب الظروف التي تمرّ بهم، وما ذلك إلَّا لأنّهم يعرفون مقتضيات الزمن وكيفية التعامل معها.

وقد كان لعلماء الإسلام -وعلى رأسهم علماء الشيعة- في القرون المختلفة دور خاصّ في تلبية تلك الحاجات، ففي القرن الثاني والثالث كان للحديث والمحدّثين رواج خاصّ، ولذلك أُلّفت كتب وموسوعات في الحديث بيد أكابر المحدّثين، فألّف الأكابر من علماء الشيعة في ذلك الوقت جوامع حديثية، حتى انتهى الأمر إلى أوائل القرن الرابع فألّف الكليني قدس سره كتابه القيّم (الكافي).

ولكن نرى أن الآثار العلمية في القرن الخامس وما بعده صارت بشكل آخر، فتآليف الرضيّ والمرتضى وتلميذه الشيخ الطوسي والمتعلّمين على يديه أخذت لنفسها لونًا آخر، يتمثّل في التوغّل في العلوم العقليّة والكلاميّة؛ لأنّ مواجهة الثقافة الإسلامية مع اليونانية طرحت مسائل جديدة في الكلام والتفسير، اقتضى ذلك منهم أن يتناولوها بالبحث والدراسة، وأن يجيبوا عنها في كتبهم الكلامية والتفسيرية، وكلٌّ مرضيٌّ عند اللَّه تعالى.

نحن نعيش في عصر السرعة والتطوّر، فما من فكرة تتولّد في أقصى العالم إلَّا وتنعكس في أقطار العالم كلّه، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، فالعالِم الموفَّق مَنْ يعرف مقتضيات الزمان ويكتب وينطق حسب اقتضائه، مقتبسًا من القرآن الكريم وأحاديث النبيّ والعترة الطاهرة ما يمكن أن يكون

معالجًا لما انتشر من آراء وأفكار وشبهات.

وإلى ما ذكرنا يشير الإمام الصادق عليه السلام في كلمته القيّمة: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللَّوابس»، فإنّ العالم العارف بأحوال زمانه لا تختلط عليه الأُمور، ولا تلتبس عليه تقلّبات الأحداث، لكونه صاحب رؤية ثاقبة بما يحيط به من وقائع وأحداث، وذا بصيرة بما يجري حوله من أُمور.

وقد بلغنا الخبر أنّ فريقًا من العلماء والفضلاء بصدد إقامة ندوة تكريمية لعالم باحث، ومفكّر قدير، مدرك لمقتضيات الزمان وحاجات المجتمع، ناشر بفكره وقلمه ما يحتاج إليه الناس على اختلاف طبقاتهم، ألا وهو **شيخنا العلَّامة الفاضل الحجة الشيخ حسن الصفار** (أنار اللَّه برهانه)، فلم يزل من أوان شبابه إلى يومنا هذا ناظرًا إلى المجتمع نظر الأب الرحيم، والطبيب الحاذق، فلو قام معارضًا ومذكّرًا على إعطاء حقوق مجتمعه، كان هذا مقتضى ذلك الزمان، وأداءً لمسؤوليته الدينية، ولو أكبّ على التأليف والتفسير والوعظ والخطابة والمشاركة في الندوات العلمية فلأجل أن يُسمع كلمة الحقّ للمبتعدين عنه، بلسان علميّ مبين، وعلى وجه يقبله الطبع ويؤثّر فيه. وهذا أيضًا من نتائج الضابطة.

ونحن -من على البُعد- نبارك ونقدّر هذا التكريم لعالم كرّس عمره لخدمة الإسلام والتشيّع، وألّف كتبًا مختلفة متنوّعة، وخدم المجتمع بقلمه وبيانه، واللَّه تعالى نسأل أن يأخذ بيده ويوفّقه لما يحبذ ويرضى.

قم الحوزة العلمية

جعفر السبحاني

حرّر في ١٧ جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[1]

من النواميس المطّردة سريان الحركة في العالم المحسوس كلّه، فالعالم بجوهره في حال التبدّل والتغيّر وليس له القرار والثبات لحظة واحدة، فالمجرّات وما تحتوي من المنظومات الشمسية وما فيها من الكواكب والنجوم في مسير التغيّر، والأرض وما فيها من الأجناس والأنواع والكائنات الحيّة من مصاديق هذه الضابطة،[2] فكأنّه سبحانه يشير إلى هذا النوع من التحوّل في الجبال بقوله: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾[3] فإذا كان المجتمع الإنسانيّ جزءاً من هذا العالم، فلا يستقرّ ولا يثبت، بل يتطوّر أطواراً مختلفة، لكلّ طور حكم، ولكلّ داء دواء.

وعلى ذلك، فحاجات الناس وإدارتها رهن التعرّف على المجتمع وخصائصه حتى تكون الإجابة على وفق الحاجات، ولذلك نرى أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يختلفون في كيفية التعامل مع المجتمع ومع الحكومات حسب الظروف التي تمرّ بهم، وما ذلك إلّا لأنّهم يعرفون مقتضيات الزمن وكيفية التعامل معها.

وقد كان لعلماء الإسلام – وعلى رأسهم علماء الشيعة – في القرون المختلفة دور خاصّ فى تلبية تلك الحاجات، ففي القرن الثاني والثالث كان للحديث والمحدّثين رواج خاصّ، ولذلك أُلّفت كتب وموسوعات فى الحديث بيد أكابر المحدّثين، فألّف الأكابر من علماء الشيعة في ذلك الوقت جوامع حديثية، حتى انتهى الأمر إلى أوائل القرن الرابع فألّف الكلينيّ قدس سره كتابه القيّم: الكافي.

ولكن نرى أنّ الآثار العلمية في القرن الخامس ومابعده صارت بشكل آخر، فتآليف الرضيّ والمرتضى وتلميذه الشيخ الطوسي والمتعلّمين على يديه أخذت لنفسها لوناً آخر، يتمثّل في التوغّل في العلوم العقليّة والكلاميّة، لأنّ مواجهة الثقافة الإسلامية مع اليونانية طرحت مسائل جديدة في

١. الكافي: ٢٧/١، الحديث ٢٩، كتاب العقل والجهل.
٢. قد أثبتت الفلسفة الصدرائية وجود الحركة فى طبائع الأشياء وجوهرها وراء الحركة الإنتقالية. لقراءة تفصيلها وبرهانها لاحظ: **كتاب الله خالق الكون**.
٣. النمل: ٨٨.

الكلام والتفسير، اقتضىٰ ذلك منهم أن يتناولوها بالبحث والدراسة وأن يجيبوا عنها في كتبهم الكلامية والتفسيرية، وكلٌّ مرضيٌّ عند الله تعالى.

***

نحن نعيش في عصر السرعة والتطوّر فما من فكرة تتولّد في أقصى العالم إلّا وتنعكس في أقطار العالم كلّه، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، فالعالِم الموفَّق مَن يعرف مقتضيات الزمان ويكتب وينطق حسب اقتضائه، مقتبساً من القرآن الكريم وأحاديث النبيّ والعترة الطاهرة ما يمكن أن يكون معالجاً لما انتشر من آراء وأفكار وشبهات.

وإلى ما ذكرنا يشير الإمام الصادق عليه السلام في كلمته القيّمة: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللَّوابس»، فإنّ العالم العارف بأحوال زمانه لا تختلط عليه الأُمور، ولا تلتبس عليه تقلّبات الأحداث، لكونه صاحب رؤية ثاقبة بما يحيط به من وقائع وأحداث، وذا بصيرة بما يجري حوله من أُمور.

***

وقد بلغنا الخبر أنّ فريقاً من العلماء والفضلاء بصدد إقامة ندوة تكريمية لعالم باحث، ومفكّر قدير، مدرك لمقتضيات الزمان وحاجات المجتمع، ناشر بفكره وقلمه ما يحتاج إليه الناس على اختلاف طبقاتهم، ألا وهو **شيخنا العلّامة الفاضل الحجة الشيخ حسن الصفّار** _أنار الله برهانه _ فلم يزل من أوان شبابه إلى يومنا هذا ناظراً إلى المجتمع نظر الأب الرحيم، والطبيب الحاذق، فلو قام معارضاً ومذكّراً للسلطة على إعطاء حقوق مجتمعه، كان هذا مقتضى ذلك الزمان، وأداءً لمسؤوليته الدينية، ولو أكبّ على التأليف والتفسير والوعظ والخطابة والمشاركة في الندوات العلمية فلأجل أن يُسمع كلمة الحقّ للمبتعدين عنه، بلسان علميّ مبين، وعلى وجه يقبله الطبع ويؤثّر فيه. وهذا أيضاً من نتائج الضابطة.

ونحن – من على البُعد – نبارك ونقدّر هذا التكريم لعالم كرّس عمره لخدمة الإسلام والتشيّع، وألّف كتباً مختلفة متنوّعة، وخدم المجتمع بقلمه وبيانه، والله تعالى نسأل أن يأخذ بيده ويوفّقه لما يحبّ ويرضى.

قم الحوزة العلمية

جعفر السبحاني

حررّ في ١٧ جمادي الاخرى ١٤٤٣ هـ

العلَّامة الصفار
العالم والمعلِّم

الشيخ حسين الخشن[1]

بسم اللَّه الرحمن الرحيم وبه نستعين..

إنّ هذا المسعى الذي تداعيتم إليه بهدف تكريم سماحة العلّامة الجليل الشيخ حسن الصفار، يُعبِّر عن لفتةٍ كريمةٍ وموفَّقة لأنه أهل لذلك.. وإنّ الأمم التي تحترمُ نفسها تسعى في تكريمِ طاقاتها وأهلِ الرأي والعلم فيها في حياتهم، بدل أن تمارس التعتيم عليهم والإقصاء لهم في حياتهم ثم تُغدق عليهم ألقابَ الاحترام بعدَ رحيلهم عن هذه الدنيا!

وتجدر الإشارة إلى أنَّ تكريم العلماءِ ليس عملًا احتفاليًّا يقتصرُ فيه على الثناء عليهم ومدحهم وإطرائهم.. وإنما التكريم الحقيقي والنافع هو الذي يتم فيه تسليط الضوء على تجربتهم في الحياة، ومنهجهم في التفكير،

(١) فقيه ومفكر لبناني.

ومعالم حركتهم التغييرية، وبيان أهم مزاياهم الأخلاقية والرسالية..

وفي ضوءِ ذلك، فإننا نتطرَّق إلى أهم المزايا التي رأيناها في شخصية الشيخ الصفار، والتي نخال أنها ساهمت في نجاح تجربته، وهي في الوقت عينه من سنخ المزايا التي يمكن أن تستلهم منها الأجيال، وأن يحتذي بها أهل العلم، هي ما يلي:

أولًا: الخُلُق النبيل:

يأسُركَ في الشيخ الصفار خلقه النبيل، الذي يتجسَّد في تواضعه الجمِّ وأدبه الرفيع وحسن معشره وبِشره الذي يُلازمه، فهو يُقبل بكلّهِ على مُحدِّثهِ أيًّا كان، ولو كان يراه أو يجالسه للمرة الأولى، ولا يبخل أبدًا بإغراقه بأرقِّ المشاعر الإنسانية وأجملها، ولذا لا تستطيع مهما اختلفت معه في الرأي إلَّا أن تُقدّر فيه هذه الأخلاقية العالية.. وفي هذا السياق يلفتكَ تواضعه العلمي، فمع كونه عالمًا جليلًا فإنه لا يتردَّد في أن يُبدي إعجابَه بفكرةٍ أو طرحٍ علمي حتى لو جاء به بعض الطلاب الذين هم في رتبةِ تلامذته.. ومن هنا نراه يُثني على جهود الآخرين مشجِّعًا لهم على مواصلة البحث العلمي.

ثانيًا: العالِم الرسالي:

إنّ شيخنا الجليل هو من نسيج الرجالات الذين وقفوا أنفسهم على العمل الرسالي، وبذلوا حياتهم في سبيل خدمة الإنسان.. فكان حركةً سيّارة ومتنقِّلة، وعاش -ولا يزال- همّ الإسلام، وجنّد نفسه للدعوة إلى اللَّه تعالى ونشر القيم التي بشَّرت بها الرسالة الإسلامية، ومن هنا رأيناه حاضرًا في شتَّى الميادين، مدافعًا منافحًا، منظِّرًا ومؤصِّلًا، كاتبًا ومتحدِّثًا، وكلّ ذلك ترافق مع

مساعٍ مباركة في سبيل نهضة الأمّة وإيقاظ المجتمع من سباته العميق.. وإنّ تفانيه وإخلاصه في هذا المجال جعلاه شخصيةً مؤثِّرةً في الكثير من أبناء الأمة، ولم يبقَ شخصية محصورةً في بقعةٍ جغرافيةٍ معيَّنة.. وإنّ كتبه ومحاضراته تمثِّل غذاءً وزادًا روحيًّا وثقافيًّا للكثيرين على امتداد رقعة العالم الإسلامي.

ثالثًا: الجرأة في النقدِ الذاتي:

ولعل من أهمّ ما يمتاز بهِ شيخنا العلّامة الصفار أنه -بحسب دراستنا لتجربته الحركية- على استعدادٍ لممارسة نوع من النقد الذاتي والقيام بمراجعةٍ لأفكاره ومواقفه السابقة، وأخاله لا يرفض التراجع عن موقفٍ أو الاعتراف بوجودِ خطأٍ ما في مسيرة العمل الحركي أو حتى في الخطاب الثقافي.. وهذه الجرأة في النقد جعلت الشيخ يُقدمُ على اتِّخاذِ قراراتٍ وخطوات حاسمة وهامَّة في تاريخِ عمله الجهادي والنضالي.. وأعتقد أن من لديه القدرة على نقد ذاته وتجربته هو الأحرى والأكثر قدرة وموضوعية على القيام بقراءات نقدية لفكر الآخرين أو تجاربهم.

رابعًا: البعد الإسلامي والإنساني:

وتنطوي شخصية الشيخ الصفار على بعدٍ إسلامي عابر للمذاهب، ومن هنا آمن بفكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وعمل لها بكل إخلاص؛ لأن التقريب يُمثِّل خشبة الخلاص لانتشال هذه الأمة من حالة التمزُّق والتشتُّت التي تُعاني منها، وقضية التقريب عندهُ ليست مجرَّد مجاملات أو مظاهر وشعارات، وإنما هي مبدأٌ ودينٌ يدينُ اللَّه بهِ، ومن هنا مثّلت هذه القضية أحدَ همومهِ الكبرى، وقد انعكس ذلك على خطابته وكتاباتهِ وجهودهِ. وإنّ انفتاح الشيخ الصفار على المذاهبِ الإسلاميةِ الأخرى وانخراطه الجاد في حوارات

ولقاءات هادفة مع علماء تلك المذاهب هو أمرٌ ملحوظ في مسيرته. ويُمكنُ أنْ نضع هذه الميزة في سياقٍ أرحب، وننظر إليها من زاوية أوسع، وهي الزاوية الإنسانية العابرة للمذاهب والأديان، فإنّ خطاب الشيخ الصفار خطاب إنساني بامتياز، فهو يدعو إلى الحوار والتواصل ليس بين المسلم وأخيه المسلم فحسب، بل وبين الإنسان وأخيه الإنسان أيًّا كان دينه، وهو يرى أن الأصل في العلاقات الإنسانية هو التعاون، وذلك بالانطلاق من الأسس والمبادئ المشتركة في سبيل بناء حياة إنسانية كريمة وإرساء نوع من السِّلم العالمي.

خامسًا: خطابٌ تجديدي وحُسُّ معاصرة:

ولا ينهمك شيخنا الجليل -فيما نرصده من اهتماماته- في همومٍ ثقافيةٍ تجريدية لا تُمثِّلُ تحدِّيًا لأبناء هذا العصر، كما يفعل البعض ممَّن يعيشون همومًا مضى عليها الزمان.. إنه يعيشُ عصره، فهو عالمٌ بزمانهِ وهمومهِ ومشكلاته، ومن هنا وجدناه في كل ما كتب أو حاضرَ يعالجُ مشكلاتٍ راهنة، محاولًا وضع الحلول لها وتقديم الإجابات عليها (الإسلام والعنف، قضية الوحدة الإسلامية، مشكلات الشباب، قضية النهوض بالأمة والمجتمع، الاجتهاد والتجديد..).

هذه بعضُ اللمحاتِ عن شخصيةِ علّامتنا الجليل الشيخ حسن الصفار، دونتها -على عجل- مستندًا في ذلك إلى معايشتي لسماحته.. وبالتأكيد فإن ثمَّةَ مزايا أخرى يمكن اكتشافها في هذهِ الشخصيةِ التي نسألُ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى لها دوام التوفيق والعطاء المتواصل..

حسين الخشن

بيروت ٢١ جمادى الثانية ١٤٤٣هـ

- ٢٤/ ١٢/ ٢٠٢٢م

العلامة الصفار
بين أصالة الماضي وشفرة التحديث

السيد محمد رضا السلمان[1]

من الذين فرضوا وجودهم على المشهد العام والخاص سماحة العلَّامة المفكِّر الشيخ حسن الصفار (حفظه اللَّه). رقم خاص ليس من السهل أن تتعامل معه على نحو التجزئة والتقسيم، بل كوحدة واحدة متكاملة تُعطي الإضافة وتقوِّم المضاف.

تعرَّفت عليه قبل مدة ليست بالقصيرة بحساب الزمن، وذلك من خلال ما كان يُوصِل إليه من خطاب هنا أو هناك، أو مقالة طارت بها وسائل الإعلام -أيضًا- من هنا أو هناك. ثم تقلَّصت المسافات لتتولَّد منها بعض المسارات التي تشكَّلت منها بعض مواطن اللقاء المباشر من خلال دعوة هنا أو هناك. واشتدَّت العلاقة أكثر لعدة عوامل خاصة وعامة مع وجود بعض القواسم المشتركة فيما بيننا يُحتِّمها الواقع ويفرضها الهمُّ المشترك بكل ما فيه من

(١) فقيه وباحث وأديب، إمام جامع الإمام الحسين بالمبرز - الاحساء.

تفصيلات مباشرة وغير مباشرة، ساعد على ذلك روح الانفتاح التي سادت المشهد من جميع جوانبه الحياتية والفكرية والعملية.

وسماحته يمتلك الكثير من عوامل التكامل في شخصيته، جعلت منه رقمًا ليس من السهل تخطِّيه أو التقليل من شأنه، فهو الإنسان المتماسك في مواقفه والمُتَّزن في قراءاته وليد ما أكسبته التجارب في الحياة بكل تفاصيلها، أدبًا و سياسةً وفكرًا واجتماعًا، ولعل في كل مفردة من خطابه ما يُشكِّل دليلًا على ذلك، فالنص الديني يفرض نفسه ممثِّلًا روح الانتماء العقدي، والذي يعدُّ اليوم الميزان في ترجيح الكفَّة عند المداورة والتجديد، فهو من بيت عُرف بصدق الإيمان والولاء الثابت لأهل بيت العصمة عليهم السلام، والذي تُؤصِّله القراءة الممنهجة، وتسافر به العاطفة بعيدًا حيث فضاءات العشق المحمدي الخالص.

أما قوة شخصيته فيفرضها احترامه للآخر مهما تباعدت المسافات واختلفت التوجُّهات وتنافرت السليقة والطباع، وهو المراد أولًا وبالذات من خلال احترامه لنفسه المبني على العلم بها والمتابعة والرقابة عليها. إن الجلوس معه ولو لجلسة واحدة وإن كان ظرفها الزمني قصيرًا لكفيل بأن تخرج منه مُحمَّلًا بالكثير من الفائدة والتشخيص، حيث السفر الطويل في عالم الكتاب والبحث، والنقد على أساس من مسارات التفكيك والترتيب المستوجب للوصول إلى الهدف المنشود من خلال أقصر الطرق وأيسرها.

إن المرحلية التي مرَّ بها سماحته في كل مراحل حياته أكسبته فقه المرحلة بكل حيثياتها، ساعده على ذلك ما يتمتَّع به من عقلية وقَّادة وقبول عند الآخر مهما كان المُختلَف عليه عقديًّا أم فكريًّا أم علميًّا، فهو الإنسان

المسافر بفكره عن قناعة تامَّة غير قابلة للقسمة على اثنين من حيث المبدأ، فهو لا يمارس من خلال ذلك ما يُمليه عليه الآخر، إنها المنظومة التي أجهد نفسه في سبيل تقريب مقتضاها وفق موجباتها الأولى.

لقد لمست في سماحته حرصه الكبير في أن يُفعِّل ميدان (الجمع أولى من الطرح)، كما هي القاعدة عند المشهور من علمائنا، لذلك بظني كان مُوفَّقًا في تعاطيه مع الآخر المختلف، وكم هو جميل أن تسود هذه اللغة لتضع حدًّا لهذا النزف في العلاقات والتباعد في الأفكار والتشعُّب في الطرق.

لقد كانت القطيف وما زالت تلك الولود التي ترفد الحياة بالكثير من أبنائها الأعلام في كافة المجالات وفي جميع الاتِّجاهات، وما تعيشه القطيف اليوم لا يقل أهميةً عن ماضيها، حيث طبقة واسعة من رجال العلم والفضيلة الذين يقف إلى جانبهم طبقة واسعة من أصحاب المسارات الأكاديمية، وهم من الكثرة بمكان مع تقارب بين المسارات يبرز جوانبه الحراك في المشهد الثقافي والفكري والأدبي، والذي يشغل الكثير من المساحات اليوم في مختلف المدن والقرى مُدلِّلًا على القفزة النوعية التي باتت تُشكِّل ملتقى الطرق ووحدة الموقف.

فالمنتديات الكبيرة والهامة لم تعد حصرًا على جانب بعينه اسمه (المجالس الحسينية)، على ما لها من دور لا يُنكر، بل هناك ما هو رافد للحراك بكل عناوينه الثقافية والعلمية والأدبية، وعلَّنا نجد في مكتبه ما يُمثِّل واحدًا من المواقع التي تُعطي المتتبِّع دلالةً واضحةً وصريحةً على ما أشرت إليه، حيث القاعة الكبرى المرفقة بمكتبه الخاص، والتي تكاد لا تخلو من حراك ثقافي أو نشاط علمي يُعنى بشؤون الحياة المعاصرة، مما ولَّد عنه

مركزًا يشعُّ بأنوار البحث والتحقيق ويسافر بصنَّاع الفكر إلى الأبعد، كل ذلك تحت مظلَّته ووفق ما رسم له وخطَّط إثراءً للساحة وتحريكًا للأجواء المصاحبة والتي تحكمها آليات العصر ومعطياته.

لقد أعطى للتأليف نصيبه من وقته كأفضل ما يكون، يرفد ذلك مكتبة ثرية بكل معاني الكلمة، حيث التنوُّع الواضح يفرض نفسه على ما كتب، فيما يحكم طابعه العام من بناء الإنسان وحلحلة القضايا البعيد منها والقريب، والتي تفرض نفسها على الكثيرين، إلَّا أن التخلِّي من البعض عن القيام بدوره ربما أشعره بالمسؤولية تجاه ذلك كله، ولا غرابة في ذلك، فإنه الإنسان المسكون بحب أبناء مجتمعه الخاص والعام، لذلك نجد له في كل حادثة حديثًا وفي كل قضية موقفًا. لذلك أثَّرت التجارب على شخصيته فيما لا يدع مجالًا للشك في كل زاوية من زواياها. لذلك فهي تثري الفرد وتصقل مواهبه وتُشكِّل دافعًا هامًّا للتجديد والتغيير.

وشيخنا الصفار من الذين عركتهم الحياة وصقلتهم التجارب وذهبت بهم بعيدًا، مما ولَّد منه شخصًا مخضرمًا في الكثير من جوانب شخصيته، مما يُكسب المتلقي القناعة فيما يقول ويطرح، كيف لا والمصداقية حاضرة لمن رغب بها، ولا فرق في أن يكون تحريريًّا أو شفهيًّا، يشهد على ذلك خطاب منبره ونثار قلمه، حيث الخبرة يمازجها التوثيق للنص والتأسيس للمفردة أدبًا راقيًا تحكمه عدَّة عوامل كاللغة بكل تشقُّقاتها. إنها مرحلة النضج والعطاء المنظَّم بآلية الفكر وأريحية النفس.

إذا جلست معه وجدته ذلك الإنسان الحريص على أن يسمع منك أكثر، وقلَّ ما يتكلَّم إلَّا فيما فيه إضافة لما يطرح، وإلَّا لاذ بجانب الصمت

والمتابعة. إنها حالة لا تكون إلَّا لمن كان متمرّسًا ومراجعًا لنفسه، وأحسبه كذلك لما لاحظته خلال تردُّدي على مجلسه العامر دائمًا.

إن البعد المؤسسي يفرض نفسه هو الآخر من خلال ما تراه عليه من الحرص على الوقت وألَّا يضعه إلَّا فيما جعل له. أثبتت الأيام أن حركة الفرد الواحد لا تذهب بعيدًا، وأن العمل المؤسسي هو القادر على القيام بالدور كما ينبغي أن يكون سيّد الموقف في عالم تتقاطع فيه الصراعات وتسوده المصالح وتتشعَّب فيه العناوين المنقسمة على نفسها. ومن هنا تتَّضح معالم النقلة التي كان وما زال سماحته يتحرَّك من أجلها، إنها الرغبة الجادَّة في أن يدرك الناس أهمية المرحلة من أجل أن تسافر بها إلى مديات أكثر بعدًا في حدود ما يمليه الواقع المتعدِّد الأبعاد والمتقلِّب الاتِّجاهات والمختلف الرغبات.

أما مفردة (الوطنية) فهي المفردة التي باتت لا تنفك عن روح الخطاب عند سماحته في الكثير من مساحات الواجب، حيث إن الوطن للجميع، والحفاظ عليه من أوجب الواجبات، والرُّقي به تكليف كل فرد درج على ترابه وتنَّفس هواءه.

والوطنية اليوم باتت تُمثِّل الهم الأكبر، حيث الكل منه وإليه، تساعد على ذلك بعض المسارات المفتوحة والفرص المتاحة التي يمكن للمواطن من خلالها التعبير عمَّا يختلج في النفس من أحاسيس ومشاعر صادقة تجاه وطنه الذي تخلق من مائه وترابه ونسيم هوائه النقي والموشَّى بشذى الحب الساكن في كل ذرة من ذراته.

وشيخنا لطالما كرَّس لسانه من خلال خطابه الواضح وقلمه المُتمرِّس

في رسم معالم الطريق لتأصيل هذا المفهوم الوطني الكبير في أصله وجوهره. وكم هو جميل أن توضع دراسة متكاملة في فضاء من الشفافية الواسعة لحياة أعلامنا في حياتهم المرتبطة بهذا البعد من كل جوانبه، كي تكون الفائدة عامة لإيجاد مساحة للتصحيح والارتقاء.

من هنا أشد على أيدي هذه اللجنة الموفَّقة بإذن اللَّه تعالى والمشرفة على هذه الدراسة والتوثيق لحياة سماحته في أن تذهب إلى أبعد من ذلك، وأن يكون لها من العمل المؤسسي ما ينطلق بذلك إلى مساحات أوسع وأشواط أبعد وشخصيات طبعت بصمتها على صفحات الوطن الغالي. ومهما تحدَّثت أجد نفسي دون أن أحيط بمواطن القوة والشمولية في شخصيته، كيف لا والبضاعة قليلة وعمر العلاقة قصير، إلَّا أن تبقى هذه الكلمات شاهدًا على العصر من خلال أحد صُنَّاعه، تُحفظ للتوثيق، ليتمَّ الرجوع إليها عند الحاجة يومًا ما، وإلَّا فسماحته أغنى من أن تُسطَّر فيه بضع كلمات، فهو أكبر من ذلك، ولولا ضيق الوقت من جهة أخرى لكان لإطلاق العنان لهذا القلم المتواضع أمام شخصه الكريم مسافات أطول وعبائر أشمل، ويبقى العذر من كرام الناس مقبولًا.

٠٣ - ٠٥ - ١٤٤٣هـ

المبرز - الحمادية

محمد رضا السلمان

عن فضيلة الشيخ حسن الصفار

الأب إلياس زحلاوي[1]

سُئلت كلمة عنه، ولكم تسعدني الاستجابة.

عرفته خلال لقاء تلفزيوني، حدث لنا قبل الحرب الجهنمية على سورية بسنوات.

كنت عائدًا ذات مساء، من مخيم أقضيه مع أطفال جوقة الفرح، في أحد ربوع سورية الهادئة، في مهمة إلى دمشق.

جاءني في ساعة متأخِّرة، هاتف من صديق، وهو مذيع تلفزيوني، يدعوني فيه للقاء وصفه بالهامّ، مع رجل دين قادم من السعودية، في صباح اليوم التالي.

كنت أعرف الكثيرين من رجال الدين المسلمين في سورية، إلَّا أني ما

(١) مؤلف وباحث، راعي كنيسة سيدة دمشق – سوريا.

كنت التقيت أحدًا من السعودية.

وكان لنا لقاء! إلَّا أنه كان حقًّا مفاجئًا لي!

في وجه ذاك الشيخ الشاب مسحة من الرضا جليّة، وفي مصافحته القوية حرارة بدت لي صادقة. وأما الحوار معه فكان نَفَسًا متَّصلًا من المودَّة والسلام، متجلّيًا فيما كان يستشهد به من آيات كريمة، تدعو أبدًا لاحترام الإنسان، ولاكتشاف آيات اللَّه في خلقه، ولاستخدام الكلمة السواء في كل خلاف. ولشدّ ما لفت انتباهي، ذكره المتكرِّر والهادئ للآية القرآنية: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا﴾**...

ولم تبدر منه خلال اللقاء كلِّه أيَّة بادرة من تشنّج أو تطرّف!

وما إن أنهينا جلستنا، حتى بادرني بدعوتي للعودة معي إلى مكان إقامتي في كنيسة سيدة دمشق، في سيارة يقودها شاب سعودي، عرّفني عليه بكلمة ما كنت أتوقّع مثلها في حياتي... «نعم أب إلياس، إنه شاب سعودي يدرس اللاهوت المسيحي في جامعة الكسليك في لبنان!». وإذ أبديت مرة أخرى دهشتي وإعجابي، أردف بمنتهى البساطة:

«آن لنا، أب إلياس، أن يعرف بعضنا بعضًا على حقيقتنا، لنخرج من الجهل المتبادل الذي غرقنا فيه منذ قرون!».

حقًّا، لقد كان ذلك الشيخ الشاب، نمطًا جديدًا، طليعيًّا، بل رؤيويًّا، من رجال الدين.

بالطبع، كان لي بعد ذلك، لقاء معه في كنيسة سيدة دمشق، إذ أبدى الرغبة في زيارتها. وقد زارها بعد أيام، في احترام جمّ، وفي تلهّف صادق

لمعرفة كل شيء تقريبًا، عمّا في الكنيسة، عمارةً، وطقوسًا، وأيقونات، وإنجيلًا، وأنماط صلاة!

وكان أن حملت له، بعد أيام قليلة، نسخة من الإنجيل المقدَّس، مع بعض مؤلفاتي، إبَّان زيارتي له في مقرِّه، في مقام السيدة زينب، إذ كان هو -أيضًا- قد حمل لي نسخة من القرآن الكريم.

وأما ما كان قدّم لي، إبان زيارتي هذه له، من مؤلفاته المطبوعة، فلم أتأخَّر في مطالعتها، ولكم كان اكتشافي لها داعمًا لتفاؤلي به، إذ إن هذه المؤلَّفات أكَّدت لي بالكلمة المطبوعة، وبالتالي المسؤولة، والواعدة والصريحة، ظهور نمط جديد من رجال دين مسلمين، من شأنهم أن يُشكّلوا، كما أرى وأتمنَّى، حاجة الإسلام، الأولى والكبرى، من أجل الخروج ممَّا هو فيه اليوم، ولأمد يبدو لي بعيدًا!...

فالحمد كل الحمد للَّه، عزّ وجلّ، لوجود مسؤولين دينيين في الإسلام اليوم، من مثل أخي وصديقي، الشيخ حسن الصفّار السعودي.

وتقبَّل مني، يا أخي وصديقي في الإيمان باللَّه الواحد الأحد، خالق الأكوان وديّان الإنسان الأوحد، محبتي واحترامي.

الأب الياس زحلاوي

دمشق في ١٧/ ٢/ ٢٠٢٢م

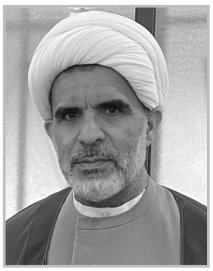

قبسات من سيرة الشيخ حسن الصفار

الشيخ حسن مكي الخويلدي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرمًا على غيره، واصطفاهما لجلاله، حمدًا يدوم بدوامه، ويزيد على رضاه، ويؤدِّي حقَّ شكره، والصلاة والسلام على خير خلقه، وصفوة بريَّته نبينا محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين وبعد:

طلب مني بعض الإخوة المؤمنين أن أكتب شيئًا عمَّا أعرفه عن سماحة العلَّامة الحجَّة الشيخ حسن بن الحاج الملا موسى بن الشيخ رضي الصفار حفظه اللَّه بحكم علاقتي الوثيقة به، ولم يكن سماحته نكرة حتى أتحدَّث عنه، فهو عَلَم بارز من أعلام المنطقة، يعرفه القاصي والداني، ولكن استجابة لهذه الدعوة الكريمة خصوصًا وأن المناسبة ترتبط بتكريم سماحته، وهو

(١) عالم دين وخطيب حسيني، وكاتب ومؤلف، إمام مسجد الكوثر- صفوى.

أهلٌ للتكريم لما قدّمه للمجتمع من خدمات جليلة وكبيرة لا ينكرها منصف.

فإني أقول: العلَّامة الحجَّة الشيخ حسن الصفار حفظه اللَّه عالم متنوِّر، وباحث متبحِّر، وخطيب متألِّق، وكاتب متفوِّق، ومُحاور متمرِّس، اتَّصف بصفات كريمة قلّما اجتمعت في غيره، ولا أقول هذا مجاملة أو محاباة لأحد، بل هو ما أعرفه عنه بلا واسطة.

فسماحته قامةٌ علمية واجتماعية، شقَّت طريقها في العمل والنشاط، فهو لا يكلُّ ولا يملّ، والمثير في شخصيته قدرته على تنظيم وقته، وبرمجة أعماله وأنشطته، فهو في الوقت الذي يقرأ ويبحث، ويحضّر ويحاضر، ويكتب ويؤلِّف، لا يترك زيارة المرضى وعيادتهم، ولا يتأخَّر عن الحضور في فواتح المؤمنين لتعزيتهم ومواساتهم، وحضور أفراحهم ومناسبات سرورهم لإدخال البهجة في قلوبهم، واستقبال الزائرين والاستماع إلى مشاكل الناس وحلّها، والسعي في قضاء حوائجهم وجبر خواطرهم، ودعم الأنشطة الاجتماعية، والجلوس الدوري مع أعضائها وإدارييها، ودعمهم وتشجيعهم وحثِّهم على مواصلة العمل التطوعي ابتغاء الثواب والأجر من اللَّه تعالى.

إضافة إلى أنه عالم مبدئي وواعٍ، يرفض مبدأ الاستبداد بكل فروعه، ومنه الاستبداد الفكري، فهو يؤمن بالتعدُّدية والحرية، ويدعو إلى التعاطي مع الاختلاف في الفكر والتوجُّه والقناعة على أنه أمر طبيعي وعادي، بل هو حالة صحية في المجتمع، ويرفض الطائفية ويُحذِّر من الوقوع في شراك فتنتها، ويدعو إلى الانفتاح على الآخرين، وله تصريحات قوية وشجاعة يرفض فيها استغلال المواطنين الشيعة واستخدامهم من قِبَل المغرضين

كورقة رابحة لإلقاء الفتنة الطائفية بين المواطنين.

كما يدعو إلى التعايش والتسامح والاحترام المتبادل بين جميع شرائح المجتمع ما داموا يعيشون في وطن واحد، وأن لا خيار لهم إذا ما أرادوا العيش بأمان وسلام إلَّا التعايش والتسامح، مع احتفاظ الكل بقناعاته، وآرائه.

وقد طَبَّق هذا على نفسه، فهو لا يتعامل مع من يخالفونه في الفكر أو القناعة حتى لو كانوا على خلاف مذهبه إلَّا بالاحترام والتقدير، ممَّا أكسبه هذا محبَّة الكثيرين من الناس، وأصبح محل ثقتهم واحترامهم.

بل هو محل ثقة الكثير من العلماء والمراجع، وأعيان البلد، وشخصياتها، ولديه إجازات وشهادات ووكالات مختلفة تشيد بمكانته العلمية، وتدعو الناس للالتفاف حوله والاستفادة منه، وبيته يكاد يغصُّ من دروع التكريم الحاصل عليها من المؤسسات والمنتديات والمراكز الاجتماعية.

وإنصافًا لا أدري من أين أبدأ الحديث عن شخصيته، فهو عالم ورع، ترعرع في أسرة علمية عريقة معروفة بالصلاح والورع والتقوى والعلم.

تعلَّم الخطابة منذ حداثة سنه، وكان له من العمر خمس سنوات، وارتقى المنبر وهو في العاشرة من عمره بعدُ لمّا يخطُّ عارضاه، وكان معروفًا وقتها في مدينة (صفوى) بالخطيب الصغير، استقى علومه الحوزوية من حوزة النجف الأشرف في العراق، وحوزة قم المقدَّسة في إيران، ومدرسة الرسول الأعظم في الكويت.

وأنا هنا لا أريد أن أتحدَّث عن دراسته الحوزوية أو شخصيته العلمية، فإن قلمه السيّال، وكثرة مؤلفاته التي قاربت المائتي مؤلف في مختلف العلوم

والمعارف الدينية والثقافية، ومحاضراته وخطاباته ودروسه الغنية والوافية والضافية، كل ذلك يكشف عن غزارة علمه ووعيه، وتنوُّع ثقافته، وتنوُّره، ونشاطه، وعلوّ همته.

ولكن الذي أريد أن أشير إليه في هذه السطور المتواضعة لهدف الاستفادة من تجربته ومعالم شخصيته، وأدعو إخواني المؤمنين خصوصًا المتفرغين لطلب العلم، والخطباء والمرشدين والمصلحين أن يستفيدوا من ذلك ثلاث نقاط مهمة:

النقطة الأولى: البعد العلمي والمعرفي:

من الضرورة بمكان أن يهتم طالب العلم بالتحصيل العلمي ولا يتوقَّف عن ذلك طيلة حياته انطلاقًا من قول الرسول ﷺ: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد»، وقوله ﷺ: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علمًا يُقرِّبني إلى اللَّه تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

وانطلاقًا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «من تساوى يوماه فهو مغبون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى نقصان».

فطالب العلم مهما طالت مدَّة تحصيله العلمي حتى لو بلغ درجة الاجتهاد، بل حتى لو أصبح مرجعًا من المراجع فإنه لا غنى له عن التزوُّد بالعلوم والمعارف الدينية، والحياتية، بل وبحاجة إلى أن يكون واسع الاطلاع، كثير القراءة، وأن يكون ذا ثقافة متجدِّدة مواكبة لتطوُّرات العصر حتى يستطيع أن ينهض بالهدف الذي من أجله طلب العلم، فإن العلم لا يُطلب لذاته، وإنما يُطلب ليُعبد اللَّه به، فبالعلم يطاع اللَّه ويُعبد، ويُعرف اللَّه ويوحّد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام.

كما يُطلب العلم لإرشاد العباد، وإصلاحهم وتقويم سلوكهم، وهدايتهم وأخذهم إلى صراط اللَّه المستقيم، قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «اطلبوا العلم فإنه السبب بينكم وبين اللَّه عز وجل».

وهذا بكل تأكيد يتطلَّب الهمَّة والعزيمة والصبر، وتحمُّل أنواع التعب، وكما قال حوط بن رئاب الأسدي:

دَبَبْتُ للمجد والساعون قد بلغوا ... جَهْدَ النفوس وشدوا نحوه[1] الأُزُرا
وكابدوا المجد حتى ملّ أكثرهم ... وعانقَ المجدَ من أوفى ومن صبرا
لا تحسبن المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرا[2]

وقال الإمام الشافعي:

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهاد وبُلغةٌ ... وصحبة أستاذٍ وطول زمان

وفوق مسألة التزود من العلم بالدراسة، والمباحثة والقراءة وغيرها، وتعليمه الناس عبر الخطابة والكتابة وأمثالها، يحتاج العالم إلى أن يكون واعيًا عارفًا بزمانه حتى لا تلتبس عليه اللوابس، وحتى لا يكون علمه جهلًا ويقينه شكًّا، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تجعلوا علمكم جهلًا ويقينكم شكًّا».

وما لاحظته ولمسته من سماحته أنه جسّد بشخصيته وجِدِّه واجتهاده وتعبه على نفسه صورة العالم المتبحِّر، والواعي الذي لا تهجم عليه اللوابس، فهو قارئ نَهِم مهتم بكل ما يصدر من كتب جديدة على الساحة، ومتابع

(١) وفي نسخة (وألقوا دونه) بدل (وشدوا نحوه).
(٢) الصَّبِر: بتشديد الصاد وكسر الباء عصارة شجر مر الطعم.

لمجريات الأحداث والأمور، قادر على وضع الأمور في مواضعها.

فحينما تُطرح مسألة شرعية في جمع من العلماء لمناقشة أبعادها الفقهية والأصولية، أو رواية لمناقشة سندها ودلالتها تراه مطَّلعًا على حناياها، قادرًا على فهمها وفتح أقفال مُبهمها.

وحينما تُطرح مسألة حياتية اجتماعية يكشف لك كلامه حولها عن وعيه وذكائه، وحنكته ومعرفته في تدبير الأمور ومسير الأحداث.

وهذا ما ينبغي أن يتَّصف به العالم الرباني الذي يحمل على كاهله همَّ هداية الناس وإرشادهم، وقد صرّح إمامنا الصادق عليه السلام بأهمية اتِّصاف العالم بالوعي والمعرفة بأمور زمانه قال عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[1].

النقطة الثانية: البعد الاجتماعي:

من صفات العالم الرباني أن يكون مهتمًّا بإرشاد الناس وإصلاحهم وتقويم سلوكهم، خصوصًا أبناء مجتمعه، فهو بينهم يمثل دور الطبيب الدوّار بطبِّه، الذي قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عُمْي، وآذانٍ صُمّ، وألسنةٍ بُكْم.

المتتبِّع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحَيرة، ولا يحسن به أن يكون بعيدًا عن مجتمعه، منجحرًا في داره، منطويًا على ذاته، فإن الهدف من العلم والتفقُّه إضافة إلى تهذيب النفس وتزكيتها به هو تبليغه إلى الناس لتحقيق مبدأ الإنذار المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ**

(١) تحف العقول.

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فالعالم الرباني يحتاج أن يعيش مع الناس، يتفقَّد أمورهم وحوائجهم، ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، وأن يكون فيهم كأحدهم يجيبهم إذا سألوا، ويبتدئهم إذا سكتوا، ويعودهم إذا مرضوا، ويحثّهم على فعل الصالحات، ويُبعدهم عن اقتراف الموبقات، يُذكِّرهم باللَّه ويدعوهم إلى طاعته، ليفوزوا بثوابه، وينجوا من عقابه، ويحثُّهم على التواصل والتباذل، ويُحذِّرهم من التقاطع والتدابر ليعيشوا في أمنٍ وراحةٍ ومحبَّةٍ ووئام.

وهذا بالضبط ما وجدته بارزًا في شخصية العلَّامة الحجَّة الشيخ الصفار، فقد كان اهتمامه بمجتمعه واضحًا وضوح الشمس في رائعة النهار فمجلسه مفتوح لاستقبال الناس والاستماع إلى مشاكلهم وقضاء حوائجهم.

وكان يدعو أعضاء الأندية الرياضية والجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية والفعاليات المختلفة إلى مكتبه، ويقوم بنصحهم وتشجيعهم ودعمهم ماديًّا ومعنويًّا، ولم يكتفِ بذلك، بل كان عنده برنامج يومي لا يكاد يتخلَّف عنه إلَّا نادرًا، حيث كان يقوم بزيارة الناس في مجالسهم، وبيوتهم، ومؤسساتهم ومنتدياتهم.

وكان يزور المرضى ويرفع من معنوياتهم، ويجلس مع أعضاء الأندية الرياضية، والمنتديات الثقافية، والشبابية، والجمعيات الخيرية، وغيرها ويشحذ هممهم ويشدُّ على سواعدهم، ويعطيهم دافعًا معنويًّا لمواصلة المسير نحو الأعمال الخيرية والتطوعية، ومع ذلك لم يغفل عن دعم وتوجيه الجمعيات والأنشطة النسوية المهتمة بشؤون المرأة.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

فلا تكاد تفقده في محفل من المحافل الاجتماعية المهمَّة في كل مدن وقرى ومناطق القطيف والأحساء، فإني ما حضرت نشاطًا اجتماعيًّا مُهِمًّا على مستوى المنطقة إلَّا ووجدته حاضرًا ومحاضرًا فيه.

وما لاحظته شخصيًّا فيه أنه يتمتع بشبكة علاقات واسعة جدًّا، وكأن المجتمع برمته لا يستغني عن حضوره ومشاركاته.

وتواصله مع الناس لم يكن محصورًا في داخل المملكة، بل هو كذلك حتى خارجها، ولقد صحبته في بعض زياراته إحدى السنوات خارج المملكة فتعجَّبت من سعة علاقاته، فكنا ننتقل معه من مؤسسة خيرية إلى أخرى، ومن زيارة شخصية علمية مرموقة إلى زيارة ناشط اجتماعي بارز، ومن مشروع خيري مهتم بعلوم القرآن إلى جمعية أخرى ترعى شؤون الأيتام، ومن حوزة دينية مهتمة بطلبة العلم الديني إلى جامعة علمية عالمية تهتم بتخريج الكوادر العلمية ذات التخصصات المختلفة.

فلقد كان ولا يزال حتى كتابة هذه السطور مهتمًّا بدوره الاجتماعي، وهذا يذكِّرني بما روته السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام عن أبيها رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قالت: سمعت أبي رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن علماء أمتي يحشرون فتوضع على رؤوسهم الأكاليل على قدر جدّهم في إرشاد العباد، حتى يوضع على أحدهم ألف ألف حلة من نور».

وعن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فواللَّه، لئن يهدِ اللَّه بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النّعم»، وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لي يوم خيبر: لئن يهدِ اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك ممَّا طلعت عليه الشمس».

ولا يخفى أنّ العمل الاجتماعي هو من أبرز مصاديق العبادة، بل إنه ما عُبد اللَّه بشيء بمثل نقل الأقدام في بر الإخوان وقضاء حوائجهم، وإن الساعي في حاجة أخيه المؤمن كالساعي بين الصفا والمروة، والقاضي حاجته كالمتشحِّط بدمه في سبيل اللَّه يوم بدر وأحد، كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

النقطة الثالثة: البعد الأخلاقي:

يعتبر هذا البعد من أهم الأبعاد التي ينبغي لطالب العلم الديني أن يتحلَّى به، وأعني به نقاء الجوهر الذي ينعكس على السلوك الخارجي، فالعلم لا بد أن يقترن بالحلم ليواجه به العالم جهل الجاهلين.

ومن الضرورة بمكان أن يكون العالم حسن الأخلاق، ليّن العريكة، سهل الطبع، متواضعًا، كريمًا، صبورًا، وقورًا، هشًّا بشًّا، حليمًا، قليلًا زَلَلُهُ، خاشعًا قلبه، قانعةً نفسه، وذلك لأن طبيعة دوره التبليغي والاصلاحي في المجتمع يتطلَّب كل ذلك.

إضافة إلى أنه لا بد أن يهتم بتهذيب نفسه وتزكيتها؛ لأنه محل القدوة للناس، فإن الناس يلاحظون على العالم كل صغيرة وكبيرة من حركاته وسكناته، وتصرُّفاته وكلماته.

وربما تسبَّب موقف صغير من تصرُّفاته أو مواقفه إلى هداية إنسان أو نفوره من الدين، وهذا ما يُفسِّر جانبًا من كون بعض أبناء العلماء ثبتوا على نهج آبائهم من العلم والتفرُّغ والالتزام الديني، وكون البعض الآخر قد أصابته ردَّة فعل من سلوك أبيه العالم، فنفر من الدين وترك الصلاة والصيام والالتزام

الديني والتحق بركب الملحدين، أو المتعاطين المدمنين، أو المروّجين المفسدين.

ما أجمل بالعالم أن يكون قلبه سليمًا نقيًّا من الأحقاد والضغائن، يتواضع للصغير والكبير، لا يحقد على أحد، ولا يضمر السوء لأحد، قد سلم الناس من لسانه ويده.

وما أجمل بالعالم أن يواجه الإساءة بالإحسان، والقطيعة بالصلة، والجمود بالبذل والعطية.

فإن هذا الخُلق مطلوب من كل مؤمن، ومطلوبيته من العالم أكبر، ولهذا ورد في وصية مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدَّته على اللين وعند جرمه على العذر، حتى كأنك له عبدٌ وكأنه ذو نعمة عليك... ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا يكبرن عليك ظُلْمُ مَن ظلمك، فإنه يسعى في مضرته ونفعك، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه».

وهذه الكلمات يجب أن تكتب بماء الذهب، وأن تطبع على القلوب لما تحمله من المنهجية في تهذيب النفس، وتطهيرها، وتخليصها من الأغلال.

إنه من خلال علاقتي بالعلَّامة الحجَّة الشيخ الصفار -حفظه اللَّه- فقد وجدته رغم سعة علومه ومعارفه وكثرة مؤلفاته، واحترام جميع شرائح المجتمع له وعرفانهم بعلوّ قدره إلَّا أن كل هذا لم يُحدث في نفسه شيئًا من الإعجاب أو الكبر أو الزهو، بل كانت صفة التواضع ظاهرة في سلوكه، حيث

كان يتواضع للصغير والكبير، وكان يحنو على الفقراء وكبار السن ويلاطفهم ويداعبهم، ويدخل السرور على قلوبهم.

وقد لمست هذا التواضع في مواقف عدّة، ففي جلسته الأسبوعية مع المشايخ والعلماء وطلبة العلوم الدينية كان يتواضع لأصغرهم سنًّا وأقلهم علمًا، وحينما يدور النقاش حول مسألة من المسائل الفقهية أو التاريخية أو الاجتماعية فإنه في الوقت الذي يطرح رأيه ووجهة نظره بكل شجاعة وقناعة كان يستمع إلى مخالفيه ويهزُّ رأسه موافقًا لاعتراضهم، ويبتسم في وجوههم، ولا يتبرَّم من مخالفتهم له.

فأحيانًا يتوصَّل الجميع إلى رأي مشترك وأحيانًا يبقى كل واحد محتفظًا برؤيته وقناعته دون أن يكون هناك تشنج أو تأفُّف، ثم تعود البسمة والبشاشة مجدَّدًا، وكان يمشي مع زائريه إلى بوابة بيته الخارجي احترامًا وتواضعًا.

وكان يتفقَّد شؤون الطلبة، فإذا علم بمرض أحدهم فإنه لا يتأخَّر عن زيارته والاطمئنان على صحته، ولا يرى نفسه فوق أن يزور أصغر طالب من الطلبة، أو خطيب من الخطباء، ولم تكن زياراته مقتصرة على أهل الصنف من الطلبة أو العلماء، بل كان يزور الكثير من عوام الناس خصوصًا كبار السن.

وكان من تواضعه انفتاحه على كل الأطراف الاجتماعية الموافقة له والمخالفة، وكان لا يجد حرجًا أبدًا من أن يزور شخصًا مخالفًا له، بل كان يتعمَّد زيارة مخالفيه، تأسِّيًا بأخلاق العلماء الربانيين، وربما وجد في بعض الأحيان حالة من النفور والصدود وعدم الرغبة منهم لزيارته ومع ذلك لم يُثنه ذلك عن التواصل معهم واحترامهم.

إنه كما أنّ مَن ساء خُلقه عذّب نفسه فكذلك من حَسن خلقه أراح

نفسه، وممَّا لمسته في شخصيته أنه حينما يصل إلى مسامعه كلام فيه خدش وتجريح لشخصه من جهة من الجهات فإنه ما كان يولي ذلك شيئًا من اهتمامه وكأن الأمر لا يعنيه.

فلم يشغله ذلك عن مواصلة مشروعه التبليغي والاصلاحي، ولا عن مواصلة طريق العلم والبحث والتأليف، فعين عطائه لا تزال تنبع بالخير والنفع للناس، وخدماته الاجتماعية تشهد عليها بصماته التي تركها في جلّ المشاريع الخيرية والإنسانية والشبابية، ومواعظه وتوجيهاته لا يزال منبره يوم الجمعة يطفح بها، وقلمه السيّال لا يزال يخط الدروس والعبر والتجارب، التي هي أهلٌ أن تُشدّ إليها الرِّحال، ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم. أسأل اللَّه تعالى أن يثبتنا وإياه بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه سميع مجيب، وصلى اللَّه على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

حسن الخويلدي

حسن الصفار...
العالِم الرسالي الناجح

الشيخ علي حسن غلوم علي[1]

كان أول تعرّفي إلى سماحة العلامة الشيخ حسن الصفار حفظه اللَّه تعالى في سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، وذلك عندما كنت في زيارة للمكتبة العامة التابعة لجمعية الثقافة الاجتماعية في منطقة ميدان حولي في دولة الكويت، حيث وقع في يدي كتيّب من مؤلفاته بعنوان: (الإمام المهدي أمل الشعوب) والصادر سنة ١٩٧٩م، فصرت أطالع فيه، وما زلت أتذكّر الموقف حين وقع الإصدار في يدي، وكنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، كما أتذكَّر فقرة من الكتيّب أثارت انتباهي. وإذا قارنا هذا التاريخ بتاريخ مولده سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، فهذا يعني أنه كان في الحادية والعشرين من عمره على أكثر تقدير حين كتبه، وهو ما يعكس في حدّ ذاته همّته العالية وروحه الرسالية.

(١) عالم دين وباحث وكاتب كويتي، خطيب وإمام مسجد سيد هاشم بهبهاني بالكويت.

ثم التقيت بسماحته لقاء عابراً في مدينة قم، ولعل ذلك في سنة ١٤٠٧ أو ١٤٠٨هـ، أي ١٩٨٧ أو ١٩٨٨ حينما كنت طالباً فيها، وكنت بمعيّة مجموعة من الأصدقاء في زيارة لأحد علماء الدين الكبار، وكان سماحته قد حضر أيضاً لزيارته.

ولكن في السنوات الأخيرة توطّدت علاقتي بسماحته بعد أن جمعتنا مناسبات محلية عديدة، وكذلك من خلال زياراته المتعدِّدة لمسجد سيد هاشم بهبهاني -حيث أقيم الصلاة وشؤون التبليغ وما إلى ذلك- ولحسينية دار الزهراء عليها السلام حيث أقيم عدداً آخر من أنشطتي فيها، وكلاهما في دولة الكويت.

ولا يمكن لمن يتعرَّف إلى سماحة الشيخ الصفار إلَّا أن يكنّ له كل تقدير واحترام وتبجيل -على أقل تقدير- لما يلمسه من اتزان في الشخصية، ورجاحة عقل، وحكمة وعلم وأدب وبيان رشيق، وابتسامة لطيفة تزيّن المجلس، وروح أخوية تبعث برسائل ودٍّ واحترام إلى الحضور.

ولا يكتفي سماحته بالتواصل مع إخوانه حين زيارته إلى الكويت، بل إنه يمدّ يد العلاقات الأخوية للآخرين من خلال تقديم بعض إخوانه من المبلغين والرساليين والعاملين في ميادين الخير، والتعريف بهم وبأنشطتهم وتوثيقهم، لتتَّسع دائرة العلاقات فلا تقف عند حد علاقته الشخصية المباشرة فقط، وهذه الميزة التي يتمتَّع بها سماحته تفتح آفاقاً من الخير والعمل المشترك في أكثر من اتجاه يحبه اللَّه جل وعلا.

كما وإن سماحته دائم التواصل وإن بعُدت المسافة بينه وبين إخوانه، ويحرص على أن يحوّل تلك المناسبة إلى فرصة لمناقشة بعض قضايا الساعة

ولو بشكل سريع ومختصر. ولا ينسى من حين إلى آخر أن يبعث بعدد من نسخ آخر إصداراته، وهي دائماً ثرية بالمعلومات، رشيقة في العبارات، مفيدة وعملية في مضمونها، تمسّ قضايا الساعة وتعالجها بروح إسلامية، وبفكر متَّزن، ومثل هذا النموذج من الإصدارات نادر في ساحتنا الفكرية والثقافية الإسلامية المعاصرة، ومن يقومون بهذا الدور النادر قد لا يوفَّقون أحياناً في أسلوب البيان، أو في طريقة العرض، بخلاف مصنَّفاته كما أشرت مسبقاً.

وهو مع حرصه على إرسال آخر إصداراته، يسأل دائماً عن أية مؤلفات تكون قد صدرت من الطرف الآخر، طلباً لاقتنائها، بل ولربما التفاعل معها إيجابيّاً دون أن يجد في ذلك غضاضة، حيث وصلني مقطع فيديو لخطبة له وهو يعرّف بكتيب (فك لغز الأسباط) الذي أصدرته قبل سنوات، ويستشهد بجانب منه، وهو ما يندر جدّاً أن يحدث في الوسط العلمي (الديني) لسبب أو لآخر، وهو تصرّف منه يستحق الإكبار والتقدير؛ إذ يعكس بُعد صاحبه عن نفسية الحسد التي قد تؤطّر العلاقات بين العاملين في الحقل الواحد، أو عُقدة الكِبر التي تُفسد على العلماء روحيتهم، فتجعل بعضهم يستسخف كل ما يقع بيده ممَّا أصدره أقرانُه، ويعفّ عن مطالعته، فضلاً عن التعريف به أو الثناء عليه، مهما كان المضمون قيماً ومفيداً!

وحين استعرضت إحدى مؤلفاته كعادتي كل أسبوع ضمن البرنامج الثقافي للمسجد، حيث أتناول إحدى الإصدارات المفيدة بالتعريف والبيان المختصر، بادر سماحته بالاتصال مقدّراً ومُثنِياً، وهذا من معالي أخلاقه وحُسن متابعته وحكمته في التعامل الاجتماعي مع إخوانه، وهي خصلة كريمة تُضاف إلى ما سبق، وبمثابة درس عملي في هذا المجال.

ولا أفشي سرّاً حين أذكر هنا، أنه عندما تُعييني الأفكار لإعداد خطبة الجمعة، ومع ضغط العمل الذي لا يسمح بوقتٍ للمطالعة المنتظمة، فإن الموقع الإلكتروني لسماحته على الشبكة العنكبوتية يمثّل إحدى المصادر الرئيسة التي ألجأ إليها لاستلهام فكرة الخطبة، والاستفادة من بعض النصوص المميّزة التي يستشهد بها وينتقيها بدقَّة وحرص.

وهذا شاهد آخر على قيمة المضمون الفكري والثقافي والأخلاقي والشرعي الذي يقدّمه سماحته من خلال خطبه ومصنفاته.

وحيث جئت على ذِكر الموقع الإلكتروني، فلا بد أن أشير إلى أن المتابعة الدائمة لأنشطة سماحة الشيخ وتغطيتها إعلاميّاً، وتوثيق كل ما يصدر عنه من بيانات وخطب ورسائل تعزية وما شابه، بالإضافة إلى المؤلفات، وحتى ما يقوم به من زيارات ميدانية أو مشاركات في مناسبات أو مؤتمرات أو ندوات وغير ذلك، هذا الأمر يُعدّ قفزة نوعية في برنامج عمل علماء الدين والناشطين الرساليين، وهو يدلّ على حُسن إدارة العمل، والحرص على تأمين كادر موظّف ومختص في هذا الشأن.

وممّا أعجبني من بين ما كان يقوم به سماحته كل عام، تقديمه البيان المالي للمداخيل والنفقات وموارد الصرف الخاصة بالحقوق الشرعية والتبرعات وغيرها، وهي شفافية نكاد لا نراها سواء في المجال الديني أو غيره، وهي خطوة أخرى مميّزة قام بها سماحته وفق ما سمحت به الظروف، تدلّ على الأمانة والنزاهة والفكر المتقدِّم، كما وتشجّع أصحاب الأيادي البيضاء على التبرّع والمساهمة في أعمال الخير ونشر المعرفة والأنشطة التبليغية.

في قناعتي، إن أسلوب إدارة وعمل سماحة العلَّامة الشيخ حسن الصفار يستحق أن يُقدّم أنموذجاً عمليّاً لتدريب طلاب العلوم الدينية والمبلغين والعاملين في الساحة الإسلامية على كيفية العمل التبليغي المنظّم والهادف والمؤثِّر والفعّال، وأتمنّى أن يصدر عنه كتيب إرشادي يتضمَّن برنامج العمل المقترح، والنصائح العملية الأبوية من وحي تجربته الشخصية، وبما يشمل الأبعاد المتعدِّدة التي يحتاج عالم الدين والمُبلِّغ والرسالي إلى أن يتفاعل معها، سواء في الساحة الدينية أو الفكرية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية أو غير ذلك.

تمنياتي لسماحته بالسداد والتوفيق والسلامة في دينه ودنياه، ودوام العلاقة الأخوية التي تربطنا ببعض.

علي حسن غلوم علي

الكويت

١٧ من ربيع الثاني ١٤٤٣هـ

٢٢ من نوفمبر ٢٠٢١م.

الشيخ الصفار..
الشخصية والمشروع

الشيخ حسن عبدالهادي بوخمسين[1]

تعرَّفت إلى شخصية سماحة الشيخ الصفار الخلوقة وعمري لا يتجاوز السابعة عشر وعمره لا يزال في بداية العشرينات.

وعلى الرغم من أني لم أتعرف وأحتك بالكثير من المشايخ والعلماء المتصدين للشأن الديني في ذلك الوقت باستثناء القلة منهم، إلَّا أني وجدت تميُّزًا واضحًا في شخصية سماحة الشيخ منذ ذلك الوقت، ما جعلني انشد وأنجذب إليه بقوه، وصرت أتحيَّن الفرص للالتقاء والجلوس معه، وقضاء الوقت الطويل برفقته، وفي سبيل ذلك كنت أشد الرحال من مدينتي الأحساء إلي مدينة القطيف في كل أسبوعين تقريبًا، إلى أن عزم الرحيل والهجرة من المنطقة في عام ١٤٠٠ للهجرة.

(١) عالم دين وكاتب – الاحساء.

ومن أبرز ما يميِّز شخصية سماحة الشيخ التي كانت تجذب الآخرين إليه:

- **دماثة الخلق**، والتي تجلَّت خصوصًا في تلك الابتسامة الجميلة العريضة، وتلك البشاشة البارزة التي كانت تغمر وجهه ومحياه حينما تلتقي به للوهلة الأولى، وفي تلك الكلمات العذبة واللطيفة التي تخرج من فمه ولسانه، وحينما يمتد المجلس واللقاء لا بد وأن تسمع منه ما يدخل السرور على القلب، ويجلب البسمة والضحكة للفم، من تلك الكلمات والعبارات المازحة وذات النكهة الفكاهية، ولذلك يعتبر سماحة الشيخ من الأشخاص الموهوبين في بثِّ روح الفكاهة مع من يجالسه، وله قدرة بارزة في استخدام أسلوب النكتة أثناء أحاديثه مع مجالسيه ومستمعيه.

- **التواضع والبساطة**، فتجد منه الاحترام الكبير للصغير والكبير، والوجيه والفرد البسيط، بلا تمييز وتفريق بينهما، فمثلما يقف احترامًا للكبير أو الوجيه عند دخوله مجلسه وتقديم التحية المبالغة له إلى حين جلوسه في مقعده، ومثلما يقوم مشيعًا ومصاحبًا له عند مغادرته المجلس، كذلك يفعل الشيء نفسه للصغير وللفرد المتواضع اجتماعيًّا.

وفي المقابل تلمس منه بوضوح عدم رغبته، بل وكرهه لمظاهر الاحتفاء به المبالغة فيها، وتجد منه رغبته الصادقة في مساواته بالآخرين الأقل شأنًا منه اجتماعيًّا في إظهار الاحتفاء به.

- **سعة صدره وحلمه**، وهذه الصفة تحديدًا قد تكون من أكثر الصفات التي جذبت الكثيرين إلى شخصيته، وأنا أعرف الكثير من الأشخاص الذين كان يكنُّون الحقد والعداء لسماحته، وبعدما عرفوه وتعاملوا معه ووجدوا

فيه كل تلك السعة في قلبه، وغضه الطرف وتجاوزه عن تعدِّياتهم اللفظية وآرائهم السيئة والقاسية السابقة عنه، والتي كانوا يبثونها ويُشيعونها عنه في غالب الأحيان، وتقبُّله السريع لهم على الرغم من كل ذلك، وانفتاحه الشخصي عليهم؛ تحوَّلوا إلى أصدقاء محبِّين جدًّا له، بل ومتفانين في الدفاع عنه.

فكم وكم تجاوز وغض الطرف عمَّن أساء له بالكلام الجارح وبذاءة العبارات، وتحمَّل الكثير من الأذى الشخصي وكتم في قلبه، في سبيل مدِّ جسور العلاقة والصداقة معهم مع إساءاتهم البالغة له، وهو ما حصل كثيرًا.

فضلًا عن سعة صدره في حواراته ونقاشاته العادية في مجالسه اليومية مع أصدقائه وضيوفه، سواء في مجلسه أو مجالس الآخرين، فتجد منه حسن الاستماع وتقبُّل الرأي الآخر واستيعابه لكل الآراء، ومن ثم طرح رأيه ووجهة نظره بالرفق واللين، وبالأسلوب المقنع القائم على المنطق والبرهان والواقعية، ما يجعل معظم من يشاركه الحوار يتقبَّل رأيه ويقتنع به سريعًا، بل ويتبنَّاه أيضًا.

هذه الصفات وغيرها -التي يطول الحديث لو تم التفصيل فيها- جعلت من سماحة الشيخ الصفار شخصية اجتماعية محبوبة جدًّا ذات علاقات اجتماعية واسعة.

فهو استطاع -وفي غضون سنوات بسيطة منذ رجوعه من الخارج واستقراره في مدينته القطيف عام ١٤١٥ هجرية- أن يكتسب محبة وصداقة معظم أبناء مجتمعه الشيعي، وقد قام سماحة الشيخ في تلك الفترة ولا يزال بزيارة جميع مدن ومناطق وقرى المنطقة الشرقية (القطيف، الأحساء،

الدمام، الخبر).

وقد صاحبته شخصيًّا في العديد من تلك الزيارات في مدينة الأحساء.

وباعتبار قلَّة زياراته للأحساء للبعد الجغرافي عن مدينة القطيف المقيم فيها، فقد كان يضطر لزيارة الكثير من أصدقائه ومحبيه الأحسائيين الذين قد يصل عددهم إلى العشرين في يوم واحد في زيارته من بداية الصباح وإلى وقت متأخِّر في المساء!

وأنا أعرف أن هناك العديد من الأشخاص في الأحساء الذين ينتظرون بفارغ الصبر زيارة وتشريف سماحة الشيخ لمجالسهم في بيوتهم وتلبية دعواتهم.

الشيخ الصفار.. المشروع:

يعتبر سماحة الشيخ الصفار اليوم من أبرز علماء الدين الشيعة (إن لم يكن الوحيد) الذي يحمل مشروعًا رياديًّا يهدف إلى إدماج أبناء الطائفة مع المكونات الأخرى في الوطن. وذلك بالحث على الانفتاح والتواصل من قبل أبناء الطائفة مع أقرانهم من أبناء الطوائف الأخرى، وإقامة العلاقات الطيبة والإيجابية الدائمة معهم، للقدرة والتمكُّن من إزالة وإذابة كل الحواجز والعوائق القائمة المسبِّبة للتباعد والفرقة، ومن أهمها إزالة اللبس وسوء الفهم القائم والحاصل في أذهان الكثير من إخواننا السُّنَّة عن الشيعة، في معتقدهم ومنهجهم المذهبي، وفي انتمائهم وولائهم الوطني.

وهذا ما سعى إليه سماحة الشيخ شخصيًّا مع مجموعة من رفاقه حثيثًا طوال ربع القرن المنصرم في التواصل والانفتاح على أبناء الوطن من أتباع

المذاهب الأخرى، وعلى رأسها الطائفة السُّنِّية الكريمة.

وقد لبَّى سماحة الشيخ دعوات العشرات من الشخصيات الوطنية البارزة في بلادنا في الحضور والمشاركة في الفعاليات والمناسبات المقامة في مجالسهم ومحافلهم الخاصة.

كما أنه قد بادر بالزيارة والتواصل مع الكثير من الشخصيات المرموقة في المجتمع اجتماعيًّا وثقافيًّا، ما أدَّى إلى تكسير الكثير من الحواجز والعوائق النفسية والفكرية، وتقريب وجهات النظر، وتقارب النفوس، والقبول بالعلاقات الدائمة.

فضلًا طبعًا عن السعي إلى الانفتاح والتواصل مع أبناء الطائفة أنفسهم وفي جميع انتماءاتهم الفكرية والاجتماعية والمرجعية.

والسعي -أيضًا- إلى إيجاد التقارب والتواصل ما بين هذه التيارات الشيعية المتعدِّدة من خلال إنشاء وإقامة العديد من المشروعات الفكرية والثقافية الاجتماعية، وهو ما حصل خلال السنوات الماضية، ومن أبرزها اللقاءات العلمائية المتنوِّعة، أو الدعوة إلى عقد المجالس الاجتماعية المتعدِّدة الانتماءات.

* **البعد الثقافي**: اعتمد سماحة الشيخ والقائمون الآخرون على تحقيق هذا المشروع خطابًا دينيًّا واجتماعيًّا تميز بالمواصفات التالية:

١- **الوسطية والاعتدال**، فقد كان الخطاب الصادر من قبل سماحة الشيخ والرموز الآخرين مسموعًا كان أو مقروءًا يتَّصف بالأفكار الوسطية الهادئة، التي تدعو إلى تحميل المسؤولية بالسعي إلى الإصلاح والتغيير

بالأسلوب الهادئ والواقعي، البعيد عن روح التطرف والعنف، واستخدام الوسائل والأساليب الغير سلمية.

وقد تحمَّل سماحة الشيخ وأصدقاؤه الكثير من الأذى من أطراف وشخوص في داخل المجتمع الشيعي نتيجة هذا التوجُّه الوسطي المعتدل في الطرح والأسلوب والمنهج فيما يرتبط بالحق المطلبي الشيعي.

٢- المرونة والواقعية، يحاول هذا الخطاب معالجة كل السلبيات والمشكلات الاجتماعية إن كان على الصعيد الوطني، وأبرزها الفرقة والتباعد، وما يقابلها كمعالجة فكرية في التقارب والانفتاح المذهبي من خلال الطرح الواقعي والقيام بما يمكن القيام به.

أو على الصعيد الشيعي الداخلي، كمشكلة الخلافات الفئوية الداخلية، أو مشكلة الفقر والضعف الاقتصادي، أو المشكلات الأسرية وما إلى ذلك، ومعالجتها بأفكار قابلة للتنفيذ والتطبيق على أرض الواقع.

٣- الإصلاح الفكري والمذهبي، فقد سعى سماحة الشيخ ورموز آخرين إلى مناقشة بعض الموضوعات الدينية الشيعية التي تحوَّلت مع الزمن إلى ثوابت عقدية، في حين أنها قد تكون دخيلة على المعتقد الشيعي.

ومن أبرز ما تم طرحه ومناقشته ما شاب الموروث الروائي الشيعي من وضع أو إضافات أو إنقاص، والدعوة إلى تصفيته وغربلته من قبل المتخصّصين في هذا الشأن، وكذلك إعطاء آراء وتصورات دينية جديدة في العمل الاجتماعي وفي التنمية الوطنية ومشاركة المرأة ودورها فيها وما إلى ذلك.

الشّيخ حسن الصّفار
والدّائرة الواسعة: قراءة عن قرب

الشيخ بدر بن سالم بن حمدان العبريّ[1]

عرفتُ سماحة الشّيخ العلّامة حسن موسى الصّفار، السّعوديّ موطنًا، الإماميّ مذهبًا، منذ أكثر من عشرين عامًا، وأنا أقرأ في بعض نتاجه العلميّ والمعرفيّ، ثمّ تعرّفت إليه أكثر في الشّبكة العالميّة (الإنترنت) من خلال موقعه على النّت، ثمّ من خلال مقابلاته في الفضائيات، حيث وجدت عالمًا لا ينظر إلى الآخر المختلف أنّه مختلف عنه، دينًا كان أم جنسًا أم مذهبًا، بل ينظر إليه قبل كلّ شيء أنّه إنسان يشاركه في بناء هذا الوجود، مستلهمًا من وصيّة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «النّاس صنفان: إمّا أخ لك في الدّين، أو نظير لك في الخلق».

كما رأيت فيه إنسان الوحدة الإسلاميّة، حيث تجسّدت فيه ليس كعادة الرّسميات الّتي لا تتجاوز حدود المؤتمرات، بل كان مشروعًا اشتغل عليه

(١) باحث وكاتب عمانيّ من المذهب الاباضي.

ولا يزال يشتغل -أمدّ اللّه في عمره- في تحقّقه، وأصدر لذلك العديد من الكتب منها على سبيل المثال: (العقلانيّة والتّسامح: نقد جذور التّطرف الدّينيّ)، فقد تطرّق فيه إلى موضوعات أكثر جرأة ممّن يتغنَّى بالتّسامح كحالة إعلاميّة، لا كمشروع وحدوي، ومن هذه الموضوعات مثلًا موضوع الخطاب الدّينيّ، حيث يركّز على حالة الشّعبويّة ومدى خطورتها؛ لأنّها «تثير المشاعر العامّة للنّاس؛ لكونها تتوجَّه إليهم بطريقة غير منتظمة، تتخطَّى العقلانيّة والوقائع، وتعمَّد إلى تضخيم بعض الأمور، للوصول إلى نتائج تناسب الرّغبات أو الأهداف المطروحة»، أي الّتي تلقى قبولًا جماهيريًّا وشعبويًّا، فيتم تسويق الخطاب الدّينيّ لهذا الغرض بطريقة بعيدة عن الواقعية والعقلانيّة.

كما تطرّق إلى موضوع التّكفير، وربطه بالهوّيّة الدّينيّة، فيرى أنّ الانتماء الدّينيّ في أصله العام مربوط بثلاث مسارات: المسار الأول حريّة البحث والتّساؤل عن الأسئلة الوجوديّة، ليصل إلى درجة «الاطمئنان النّفسيّ، والاستقرار الفكريّ»، وهنا أشار إلى الرّأي الآخر في قضيّة المرتد، وهو أنّه «يوجب القتل حين يكون التحاقًا بمعسكر العدو، أمّا إذا كان مجرَّد تغيير فكريّ عقديّ فلا يستحق ذلك».

والمسار الثّانيّ «تأمين المستقبل والمصير الأخرويّ، حيث يعتقد الإنسان أنّ تديُّنه سبيل خلاصته ونجاته في الدّار الآخرة»، وعليه تكمن خطورة التّكفير هنا أنّه «يكون افتراء على الدّين حينما لا يكون في محلّه، وللنّتائج المترتبة عليه تجاه من يصدر ضدّه»، لهذا في الكتاب يتطرَّق إلى قضيّة جدليّة وهي: لمن نعيم الجنّة؟ فيرى أنّ العقاب الأخروي ليس مرتبطًا بدين أو مذهب، وإنّما مرتبط بإقامة الحجّة وفق العدل الإلهيّ، وهذا يستند

إلى الوجدان والبرهان، فأمّا الوجدان باعتبار «أنّ الإنسان بفطرته السّليمة يرفض معاقبة من لم تقم عليه الحجّة»، وأمّا البرهان «فلأنّ ممّا يستقل به العقل هو الحكم بقبح مؤاخذة الّذي لم تصله الحجّة»، وهذا ينطبق مع النّهج القرآنيّ، ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾[1]، ولهذا يرى أنّ أغلب البشر اليوم قاصرون عن معرفة الحجّة لا مقصّرون، «فالعالَم اليهوديّ والنّصرانيّ كالعالَم المسلم، لا يرى حجّة الغير صحيحة، وصار بطلانها كالضّروريّ له»، فصار أغلب النّاس بسبب البيئة وقدراتهم قاصرين لا مقصّرين، والقاصر لا يستحق العقاب.

وهنا يضرب مثلًا بالشّهيد مطهري [ت ١٩٧٩م] حول المسيحيين [النّصارى]، حيث يقول: «رغم أننا نعتقد بطروء التّحريف عليها -أي المسيحيّة-، لو تنظرون إلى المدن والقرى والرّهبان ورجال الدّين فيها، فهل إنّ كلّ راهب فاسدٌ وإنسان سيِّئ؟، واللّه، إنّ بينهم نسبة السّبعين إلى الثّمانين في المائة هم أشخاص أتقياء، يملكون حسًّا إيمانيًّا وإخلاصًا، وكم علّموا النّاس التّقوى، ونشروا الصّلاح والإخلاص والطّهارة باسم المسيح ومريم، ولا ذنب لهؤلاء النّاس، وسوف يدخلون الجنّة، وأساقفتهم كذلك أيضًا».

والمسار الثّالث الحماية الاجتماعيّة، فاختلاف دينه ومذهبه لا يرفع عنه الاعتبار والحماية الاجتماعيّة، «فيتمتع بمكاسب وامتيازات العضويّة»، مرورًا «بعصمة دمه وماله، وطهارته، وحمله على الصّحة في أقواله وأفعاله...»، ولهذا يرى أنّ «نعم اللّه شاملة ومتاحة [لجميع البشر]، على اختلاف أعراقهم وأديانهم».

(١) سورة الإسراء، الآية ١٥.

ومن خلال لقائي مع سماحته كما سيأتي ذكره يرى أنّ العديد من المصطلحات ظرفيّة ومنها مصطلح التّكفير، ونحن «لسنا مقيَّدين كثيرًا بالمصطلحات، لو وجدنا أنّ هناك مصطلحًا في القرآن وفي السّنة، لكن أصبحت الظّروف غير مناسبة لاستخدام هذا المصطلح؛ لا مشكلة في أن يكون هناك مصطلح آخر، مثلًا: نحن الآن حينما نعبّر عن شخص تُوُفّي بأنّه «هلك»، هذا مصطلح سيِّئ عندنا، فلا نقول «شيخ فلان هلك»، بينما القرآن الكريم يستخدم هذه الكلمة في نبي اللّه يوسف عليه السلام ﴿**حَتَّى إِذَا هَلَكَ**﴾[1]، فإذًا قد يكون هناك مصطلح في وقت من الأوقات متداول، في وقت آخر تكون هناك ظلال سيئة لهذا المصطلح، نحن لسنا مجبرين على استخدام مصطلح له ظلال سيئة، يمكننا أن يكون عندنا مصطلح جديد»، وعليه ممّا سبق ندرك مدى تأثير التّكفير على الهوّيّة الدّينيّة خصوصًا إذا ضاق وترتَّب عليه إقصاء دينيّ ومجتمعيّ ومدنيّ من جهة، واتّسع في إطلاقه بلا ضوابط من جهة أخرى كما عند بعض الجماعات المتطرِّفة.

ومن الموضوعات المهمّة الّتي تطرق إليها الكتاب موضوع سننيّة الاختلاف، وربطه سماحة الصّفار بالتّفكير الملازم لعمل العقل؛ لأنّ التّفكير في نظره ينتج اختلافًا، لهذا يرى «أنّ البعض يزعجه اختلاف الآراء، ويتمنّى لو أنّ أبناء المجتمع يكونون نسخة واحدة في أفكارهم وآرائهم، لكن الاختلاف نتاج طبيعيّ لعمليّة التّفكير، وإذا أردنا النّاس ألّا يختلفوا في الرّأي؛ فعلينا أن نصرفهم أو نمنعهم عن التّفكير، بأن نحظر عليهم التّفكير، أو نقنعهم بالاعتماد على من يفكر عنهم، وإذا تنازل الإنسان عن التّفكير فقد تخلَّى عن أهم ميزة لإنسانيته، ويكون حينئذٍ أسوأ من سائر الحيوانات».

(١) سورة غافر، الآية ٣٤.

ويرى «إذا كان التّفكير يؤدِّي إلى اختلاف الرّأي؛ فإنّ ذلك ليس أمرًا سلبيًّا سيئًا، بل هو أمر مفيد؛ لأنّه يثري المعرفة، ويوصل إلى الرّأي الأفضل، ويبيِّن ثغرات الآراء، وهو ما يدعو إليه الدّين، ويؤكِّد عليه».

لهذا ينقد الصّفار بعض المتدينين عندما «يتصوّرون أنّ ما يؤمنون به من أفكار، وما يعرفونه من أحكام، وما يمارسونه من طقوس وشعائر؛ هي حقائق دينيّة صلبة، لا تقبل المسّ والتّغيير، ولا يصح مناقشة شيء منها، ويرون أنّ من يخالفهم الرّأي في شيء منها، فهو منحرف مبتدع ضالّ مضلّ، وقد يخرجونه من الدّين أو المذهب».

وعليه «إنّ رفض الاعتراف بمشروعيّة الرّأي الآخر، والسّعي لفرض رأي واحد على النّاس؛ هو الأرضيّة الخصبة للتّطرف، ونموّ توجُّهات القمع والعنف، وهو ما أوصل ساحتنا الإسلاميّة لتفريخ حركات العنف والإرهاب»، «وإنّ رفض أيّ فكرة أو رأي لا ينبغي أن يقود إلى نصب العداوة لصاحب ذلك الرّأي، فلو أطلق إنسان رأيًا أو فكرة خطأ وفق تقويمك، فمن حقّك أن ترفض ذلك الرّأي، لكن ذلك لا يعني أن تعادي صاحب الرّأي، أو تتبنَّى موقفًا عنيفًا ضدّ مطلق الفكرة».

وبما أنّ التّفكير حالة ملازمة للعقل؛ لهذا يُخصِّص الصّفار موضوعًا مستقلًّا حول التّلازم بين الدّين والعقل، فيرى أنّ بعض المتديّنين «حينما تناقشهم حول آرائهم وأفكارهم وممارساتهم على ضوء العقل والمنطق؛ يغلقون باب النّقاش والحوار، على أساس أنّ قضايا الدّين تعبديّة، وأنّ دين اللّه لا يصاب بالعقول»، لهذا «تدور في أوساط بعض المتديّنين أفكار تخالف العقل والمنطق، هي أشبه بالأساطير والخرافات»، «فمن ينتسب إلى الدّين،

ويحمل شعاره وعنوانه، ويمارس عباداته وطقوسه، لكنّه غير مستخدم لعقله، ولا مستثمر لفكره؛ فإنّ تدينه سيكون مبتورًا ناقصًا، بل مشوّهًا قاتمًا».

ويرى «من مظاهر تهميش العقل في أوساط المتديّنين الجمود على فهم الأسلاف للدّين، ولا شك أنّ الظّروف متغيِّرة، والحياة متطوّرة، والأسلاف فهموا الدّين حسب مستواهم، وضمن ظروف عصرهم وبيئتهم، ونجد أنّ منهجيّة الدّين قائمة على مراعاة التّطوّر، لذلك تجدَّدت الشّرائع عبر الأنبياء، مع أنّ الدّين في جوهره واحد».

لنجد كتابه السّابق صدورًا وهو «الطّائفيّة بين السّياسة والدّين»، يعالج موضوع الطّائفيّة بشكل أعمق وفق كتابات في مناسبات مختلفة، منطلقًا من أنّ العلاج يبدأ من الدّاخل، وليس رهين نظرية المؤامرة، لأنّ «محاولات العدو إنّما تحصل وتنجح من خلال المنافذ الموجودة في واقعنا وأوضاعنا، وهي الأرضية الخصبة الحاضنة لبذور الفتنة، الّتي يسقيها وينميها العدو»، وتشتدّ الطّائفيّة عندما يلازمها انسداد سياسيّ يُقصي الآخر، ويحجب المشاركة السّياسيّة، مع سياسات التّمييز، وارتفاع العدل بين الجميع، ليلازمه التّعبئة المذهبيّة المؤجّجة للخلاف والصّراع بين المختلفين في المجتمع الواحد، فتحدث بهذا القطيعة الاجتماعيّة بين أتباع المذاهب كالزّواج والتّزاور والدّفن مثلًا.

ويتبع هذا الكتاب كتاب «التّسامح وثقافة الاختلاف: رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات»، وإذا كان الكتاب السّابق يُركِّز على الطّائفيّة وهي حالة سلبيّة، فهذا الكتاب يُركِّز على التّسامح، وهي حالة إيجابيّة، منطلقًا من معالجة المرض المانع من تحقق التّسامح، متمثِّلًا في العداوة والحسد،

ليدخل في أدبيات ثقافة الاختلاف واحترام الآخر، وثقافة الاعتذار وبناء مجتمع متسامح ومتعايش.

بعد هذا التّعارف المعرفيّ، والتّتلمذ على يديه معرفيًّا عن طريق كتبه ونتاجه وخطبه، شاء القدر أن يشرّفني سماحته متواضعًا في منزلي في ولاية السّيب بمحافظة مسقط، بتأريخ ٢٧ ربيع الثّاني ١٤٣٩هـ، يوافقه ١٥ يناير ٢٠١٨م، لأسجِّل مع سماحته حلقة حواريّة يوتيوبيّة في قناتي المتواضعة (أُنْس)، بحضور مجموعة من الإخوة الباحثين العمانيين، وكان الحوار حول «تأمُّلات في بعض قضايا التّفكير الدّيني»، ونشر الحوار كاملًا في مسارات في ثقافة التّنمية والإصلاح في جزئه العاشر، والّذي ينشره مكتب سماحته في القطيف، وذكر في مستهل اللّقاء علاقته بعمان، فقد جاء إلى عمان وعمره حوالي سبعة عشرة سنة، قائلًا: «دعيت إلى الخطابة لإلقاء محاضرات دينيّة، وبقيت أتردَّد على مسقط من سنة ١٩٧٤م إلى ١٩٧٨م، وكنت أقيم الجماعة والجمعة في مسقط، وألقي المحاضرات في مطرح، والحمد للّه بالتّعاون مع مجموعة من الشّباب الواعين من أهالي مطرح، تمّ تأسّيس مكتبة باسم مكتبة الرّسول الأعظم على سطح مسجد الرّسول الأعظم على كورنيش مطرح، وتمّ إصدار نشرة شهريّة بعنوان «الوعي»، ننشر فيها مقالات الشّباب النّاشئين الّذين أسّسنا دورات لتعليمهم على الكتابة والاهتمام الثّقافيّ. والحمد للّه تربَّى منهم مجموعة من المثقفين الذين استمروا في أفق الثقافة والفكر، وأعتبر أن تجربتي في العمل الاجتماعّي نشأت وتأسّست في هذه البلاد الطيِّبة «سلطنة عمان» وفي مسقط ومطرح بالذّات».

ومن الابتداء ذكر علاقته التّواصليّة مع الرّموز الدّينيّة والثّقافيّة في عمان، حيث يقول: «وأتذكَّر على هذا الصّعيد زيارتي للمفتي السّابق للسّلطنة الشّيخ

إبراهيم بن سعيد العبريّ -رحمة اللَّه عليه-، وفوجئت بتواضعه مع أنّي كنت صغيرًا في السّن، وكان هو كبيرًا وفي مقام المفتي، وله شخصيّته العلميّة، استقبلني بحفاوة وبتشجيع، وأعجبتني جدًّا أخلاقه الطّيِّبة، كما رأيت إحاطته في المجال العلميّ والفقهيّ لآراء المذاهب المختلفة، وأيضًا كانت لي علاقة من ذلك الوقت مع مفتي السّلطنة الحاليّ سماحة الشّيخ أحمد الخليليّ -حفظه اللَّه-، واستمرت العلَّاقة معه من لقاءات في المؤتمرات الّتي كانت تنعقد في الخارج، وكان يشارك فيها، وأنا كنت أشارك فيها، ولا زلت أكن له الكثير من الاحترام لفضله ولعلمه وللفكر التّسامحيّ الّذي يطرحه، أيضًا تعرَّفت آنذاك على فضيلة الشّيخ سالم بن حمود السّيابيّ، وكان قاضيًا في المحكمة في مطرح، وجلست معه في أكثر من لقاء، ودعاني إلى منطقته في عمان الدّاخل، وذهبنا إلى هناك، وكنّا في ضيافته مع مجموعة من الإخوة الشّباب، وأعجبني تواضعه وخلقه وعلمه وأدبه لأنّه كان أديبًا، وتعرّفت على ولده الشّيخ هلال والّذي كان في السّلك الدّبلوماسيّ فيما بعد، حينما تعرّفت عليه كان في إدارة المطبوعات، وبعد ذلك أصبح في السّلك الدّبلوماسيّ، وزرته قبل سنوات حينما كان سفيرًا في دمشق».

وفي الحوار تحدّثنا حول جدليات عديدة، وعلى رأسها آلية الجمع بين البراءة والدّائرة الإنسانيّة، فيرى سماحته أنّ «البراءة من أعداء الدّين الّذين يكونون في موقع العداوة، وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[1]، ولا يجتمع التبرِّي مع البِرّ والقسط، وقد استعمل مصطلح «البر» الّذي استعمله مع الوالدين، بر

(١) سورة الممتحنة، الآية ٨.

الوالدين. نعم، نحن نفارقهم فكريًّا وعقديًّا وسلوكيًّا فيما يرتبط بالسّلوكيات المخالفة لديننا، أما القيم الإنسانيّة العامّة فهي مشتركة بين أبناء البشر، وإن كانوا من ديانات أخرى».

وتطرقنا كذلك إلى رواية الفرقة النّاجية، حيث يرى أنّ حديث «الفرقة النّاجية» فيه «إشكالات كبيرة في سنده، وقد ورد بعدّة إسناد، ولكن لا يوجد سند واحد من الأسانيد الّتي ورد بها هذا الحديث يكون سندًا صحيحًا معتمدًا، وإذا تجاوزنا مسألة السّند، فإنّ هناك إشكالًا في المتن، الحديث إذا قرأناه كلّه، وأنّ الفرق كلّها هالكة، أو كلّها في النّار إلّا فرقة واحدة، هذا خلاف ثقافة الدّين في إشاعة الثّقة بين أبناء الأمّة الاسلاميّة ببعضهم بعضًا، وخلاف ما نقرؤه من سعة رحمة اللّه سبحانه وتعالى، إذا اعتقدنا بهذا الحديث أنّ كلّ غير المسلمين لا يدخلون الجنّة، وضمن المسلمين لا يدخل من المسلمين إلّا فرقة واحدة؛ فما الحاجة إلى جنّة كعرض السّماوات والأرض، لا نحتاج إلى جنّة بهذه السّعة، ولا نحتاج إلى حديث عن رحمة اللّه بهذه السّعة» أيضًا.

كذلك تطرق في الحوار إلى ضرورة «وجود مصالحة بين المسلم وبين العصر الّذي يعيش فيه، المسلم إذا عاش في عصر يتصادم معه في كثير من قضايا الحياة، إمّا أن ينكفئ على نفسه، ويعيش العزلة والانغلاق، وإمّا أن تضطرب وترتبك حياته، نحن نجد في المجال السّياسيّ كثيرًا من الدّينيين والإسلاميين كتبوا ضدّ الدّيمقراطيّة، وتحدّثوا ضد الانتخابات، لكن عملًا الآن كثير من البلدان الإسلاميّة، وحتّى من تتّجه باتّجاه الحكم الدّينيّ مثل الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، قبلوا الدّيمقراطيّة كممارسة».

ثمّ التقينا مرة أخرى في ديوانيّة تجمع الميثاق الوطنيّ لصاحبها الأستاذ

أبي عمار نبيل المسقطيّ في دولة الكويت بمنطقة الدّسمة، يوم الثّلاثاء ٢٤ شعبان ١٤٣٩هـ، يوافقه ٨ مايو ٢٠١٨م، في ندوة مشتركة حول التّسامح، تجربة عمان أنموذجًا، وضيوف النّدوة سماحة حسن الصّفار من السّعوديّة، والأستاذ خميس العدويّ وكاتب المقالة من عمان، وأدارها الأستاذ حسن الخواجة من الكويت، وبيّن سماحته في كلمته أنّ «التّسامح اكتسبت في الثّقافة الحديثة معنى أوسع من اللّغة العربيّة والتّراث الإسلاميّ، بحيث تقبل الرّأي الآخر وتعترف به، ولا تعتقد أنّك تحتكر الحقّ والحقيقة، فلك الحق أنّ تعتقد ما تراه حقيقة، ولكن من حق الآخر -أيضًا- له الحقّ أن يعترف به، ويرى أنّ هذا المصطلح شاع في أروبا بسبب هيمنة الكنيسة المتحالفة مع السّلطات الحاكمة في أروبا حينها، فجاء المصطلح لنقل المجتمع الإنسانيّ من الهيمنة والتّعصُّب الفكريّ والثّقافي والدّينيّ، ثمّ قرَّر أنّ ديننا وقرآننا يدعو إلى التّسامح والاعتراف بالآخر، وترك الحساب للّه؛ لأنّه فرق بين القاصر والمقصّر والمعاند، ومع هذا كفل للجميع حقّ الاعتقاد»، وقد كتبتُ حول النّدوة واللّقاء في الرّحلة الكويتيّة، والّتي أضفتها في كتابي إضاءة قلم، الحلقة الأولى حول التّعايش.

ثمّ التقيت به مرة أخرى في فندق سفير انترناشيونال في الصّفاة بدولة الكويت في ذات الرّحلة صباح الخميس ٢٦ شعبان ١٤٣٩هـ، يوافقه ١٠ مايو ٢٠١٨م، وسجّلت معه حلقة حواريّة يوتيوبيّة على قناتي (أُنْس) حول تأملات في وحدة وإنسانيّة الصّيام، ودوّنتها في الرّحلة الكويتيّة المشار إليها آنفا، وبيّن سماحته فيها «أنّ من رحمة اللّه تعالى أن جعل شعائر المسلمين موحدة من صلاة وصيام وحج، وهذا الشّعائر توحّد المسلمين؛ لأنّهم يتّفقون في فرضيتها، ويتّفقون بنسبة كبيرة في تفاصيلها العمليّة، والخلافات في

مسائل فرعيّة ومحدودة، فمن المساوئ أن نترك المشترك الكثير، ونركز على المختلف القليل، والعقل يدعو إلى التّركيز حول المشترك».

وبيّن -أيضًا- أنّ «الإنسان تكوينًا يمرُّ بحالتي جدل: حالة جدل داخليّ؛ لأنّه لا يُقرِّر رأيًا إلَّا بعد جدل مع نفسه، مع عقله وشهوته، وحالة جدل خارجي بينه وبين الآخرين، إلَّا أنّ الجدل يكون أحيانًا هادفًا، كهدف الاستفادة من الآخرين، أو بهدف إفادتهم لفكرة وصل إليها، وهناك جدل غير هادف كجدل الانتصار للذّات، أو استعراض العضلات».

وحول مصطلح الغزوة والسّبي والجزية المرتبط بواقعة بدر الكبرى في رمضان في السّنة الثّانية من الهجرة، يرى «أنّ المشكلة أنا نريد أن نقرأ أحداث الماضي بلغة وعقليّة وثقافة اليوم، فالمجتمعات البشريّة في مسيرة تطوّر تصاعديّة، فهذه المصطلحات والأحكام وفق بيئة وزمان معيّن، وللحروب -أيضًا- ثقافات وأعراف يتوافقون عليها حينها بين جميع الأطراف والقبائل، واليوم نعيش عصرًا متقدّمًا فيه منظمات دوليّة لها قوانينها ومواثيقها حول الحروب، فيجب أن نلتزم بها بصيغتها الإنسانيّة المعاصرة».

ثمّ التقيت بسماحته في منزله في الجزيرة بمحافظة القطيف بالمملكة العربيّة السّعوديّة يوم الأربعاء ٤ شعبان ١٤٤٠هـ، يوافقه ١٠ أبريل ٢٠١٩م أثناء زيارتي المعرفيّة إلى البحرين، وحدث بيننا نقاش في قضايا معرفيّة ووحدويّة، وكتبت عن الزّيارة في الرّحلة البحرينيّة المضافة في كتابي إضاءة قلم، الحلقة الثّانية حول التّعارف.

وآخر لقاء مع سماحته وفق تأريخ كتابتي لهذه المقالة أنّه شرفنا في جلسة حواريّة معه على قناتي اليوتيوبيّة (قناة أُنْس) حول المثقّف وإنتاج

المعرفة الدّينيّة، بتأريخ ٢٣ ربيع الأول ١٤٤٢هـ/ يوافقه ٩ نوفمبر ٢٠٢٠م، عن طريق برنامج ZOOM، وحضرها جمع جيّد من عمان وخارجها، وقضيّة ربط المثقَّف بالمعرفة الدّينيّة نجد القليل من تطرّق إلى هذا المبحث، وهو مادّة خصبة للدّراسة وفق ما يمكن تسميته بالمثقف الدّينيّ.

وكما يرى سماحته أنّ المؤسّسة الدّينيّة تنطلق «من مناهج تعليميّة تتمحور حول النّص الدّينيّ، وغالبًا ما تكون هذه المناهج تقليديّة متوارثة»، لهذا تبالغ «في الحرص على الأصالة والموروث الدّينيّ»، ومراعاة الأعراف، لذا يكون «انفتاحها محدودًا على تطوّرات الحياة، ومعطيات العلوم الحديثة»، فهي تعيش «هموم المجتمعات القديمة، وبلغة العصور السّابقة»، لهذا ظهر في العصر الحديث «شريحة من الأكاديميين في مختلف التّخصّصات العلميّة، ومن حملة المعارف، والمهتمين بقضايا الثّقافة والمجتمع»، فأصبح هناك مزاحم ومنافس للمؤسّسة الدّينيّة في الاهتمام بالمعرفة، وإنتاجها بشكل عام، ولهذا المثقَّف اليوم أمام طريقين: «إمّا الابتعاد عن الاهتمام بالشّأن الدّينيّ، وتركه لأهله»، «أو التّصدي لإنتاج ثقافة دينيّة مختلفة، وممارسة دور النّقد للمؤسّسة الدّينيّة ونتاجها المعرفيّ، ممّا يدخله في صدام مع جمهورها العريض».

لهذا يدعو سماحته للخروج من هذا يتمثَّل في «المنافسة الإيجابيّة مع المؤسّسة الدّينيّة»، مقترحًا عدّة وسائل، منها الانفتاح على مصادر المعرفة الدّينيّة، والتّواصل مع المؤسّسة الدّينيّة، من خلاله يقدّم نقده وتقويمه ومقترحاته، والتّصدّي لإنتاج معرفة دينيّة؛ لأنّ نتاجه «سيكون إضافة نوعيّة مهمّة للسّاحة الفكريّة والاجتماعيّة».

خلاصة ما تقدّم ندرك أنّ سماحة الشّيخ حسن الصّفار وهو العالم الفقيه، والمفكّر الحر، لمّا يتحدَّث يتحدّث عن تجربة حياة مليئة بالمراجعات والتّأمّل ونقد الذّات، كما أنّه لا يتحدّث وهو في مكتبه منعزلًا عن النّاس، فهو اجتماعيّ واسع الخلطة بالنّاس، حيث إنّه خطيب ورمزيّة دينيّة وثقافيّة اجتماعيّة، له مشاريعه الاجتماعيّة والثّقافيّة، ويعتبر الرّمزيّة الشّيعيّة الأكثر حضورًا في السّاحة الخليجيّة عمومًا، «بجانب له مبادرات عمليّة في الذّهاب إلى الآخر وزيارته، كزيارته لسماحة الشّيخ عبد العزيز بن باز [ت ١٩٩٩م]، مفتي المملكة العربيّة السّابق، وأكبر قامة علميّة سلفيّة في العقود الأخيرة، وسماحة المفتي الحالي للمملكة الشّيخ عبد العزيز آل الشّيخ، كما زار شخصيّات علميّة أخرى كالشّيخ عوض القرني [معاصر]، ومعالي الوزير السّابق محمّد عبده يماني [ت ٢٠١٠م]، والمفكر إبراهيم البليهي [معاصر]، وغيرهم كثير»، وله زيارته إلى الرّموز الدّينيّة في عمان كما أسلفنا، فضلًا عن العالم الإسلاميّ، ورموز ممّن يشتركون معه في المّذهب، ولم يقتصر حضوره مع الرّموز الدّينيّة التّقليديّة، بل له حضور واسع مع المثقَّف والباحث والعالم من كافّة الأطياف والتّوجهات الفكريّة والمعرفيّة.

كلّ هذا أعطى لسماحة أفقًا واسعًا في قراءة الآخر، والنّظرة إليه، ولمّا زرت مكتبته في القطيف رأيت فيها من الكتب المعاصرة والعلميّة والدّوريّات وكتب الأديان، فهي منفتحة على الجميع فكرًا ودينًا ومذهبًا، لهذا أرى سماحته ابتداء مدرسة فكريّة مستقلة، قبل أن يكون منضويًا تحت الخطّ الإسلاميّ في المدرسة الإماميّة، له آراؤه المستقلة، وتجديده الفكريّ، ونقده الموضوعيّ المنطلق من نقد الذّات قبل الغير.

بيد أنني -أيضًا- أرى الحسّ الإنسانيّ والوحدويّ ملازمًا لسماحته،

فهو إنسانيّ في تعامله مع النّص الدّينيّ من خلال مدرسة الأنسنة من حيث التّأويل، أي بمعنى حضور النّزعة الإنسانيّة في تعامله مع تأويل النّصّ الدّينيّ، وتجاوز أمر التّطبيقات الفقهيّة العمليّة إلى مراجعاته حتّى العقديّة، كالولاء والبراء، والحكم على المختلف بالجنّة والنّار.

بجانب الحسّ الوحدويّ الشّموليّ من حيث الجنس البشريّ، والهويّاتيّ من حيث المدارس والمذاهب الإسلاميّة، والقطريّ الإجرائيّ من خلال الدّولة الوطنيّة القطريّة الواحدة، فهو ينطلق دائمًا من مفردة الوحدة بين الجميع تحت مظلّة الذّات الإنسانيّة الواحدة، وما ينطبق على ذلك من مصاديق قيم العدل والمساواة والحريّة، ليؤسّس العديد من المفردات الإيجابيّة كالحوار والتّعايش والتّسامح، كما يعالج العديد من المفردات السّلبيّة كالطّائفيّة والتّطرف والتّعصب والإقصاء.

لهذا من الجميل أن يحتفى بسماحته، نظير ما قدّمه من جهد كبير في خدمة المجتمع الإنسانيّ عمومًا، والمجتمع الإسلاميّ خصوصًا، وأن يُعنى بالمفردات الإيجابيّة الّتي قدّمها في علاج ما يمرّ به العالم الإسلاميّ خصوصًا من نفرة وتضادّ وتكفير وتطرف، وما يأمله الجيل المقبل أن يعيش عصرًا أكثر تنوُّرًا وتقدّمًا، يعني بذاتيّه كإنسان، قبل أي هوّيّات أخرى كسبيّة ينتمي إليها.

سماحة الشيخ الصفار كما أعرفه

الدكتور الشيخ محمد علوان اللواتي[1]

سماحة الشيخ العلامة حسن موسى الصفار (دامت توفيقاته).. عرفته منذ أن كنت صبيًّا، فقد كان فيضه يجري في جداول الشباب الأكبر منا سنًّا، ليصل إلينا محمَّلًا بالعلم والحكمة، ومن خلاله تعرفنا على الدين وأحببنا الالتزام به.

لقد رأينا في سماحته شخصية عالم الدين الذي هو كالطبيب يدور بطبه، لا ينتظر أن يأتيه أحد، بل كان لا يتردَّد في الذهاب إلى كل أحد.

كان يأنس به الصغير كما يتفاعل معه الكبير، لما لطرحه وأسلوب كلامه من جاذبية وتأثير.

استطاع بحكمته وصبره ومثابرته أن يخترق الحجب، ويتجاوز الحدود

(١) عالم دين وكاتب عماني.

الضيِّقة، فلم يمنعه اختلاف المذاهب ولا تنوُّع القبائل من أن يتواصل مع الجميع.

وكان يحمل معه رسالته أينما ذهب، ولقد تعلَّمت منه أن أكون حاضر الذهن مستعدًّا للتحدُّث في أيِّ محفل أحضره، فلا أذهب إلى أيِّ مكان خاوي الوفاض، فلربما يتطلَّب الظرف أن أقول شيئًا.

نعم، لقد كان يحمل قضية ورسالة، ويرى نفسه مكلَّفًا مسؤولًا عن إصلاح المجتمع الذي يقيم فيه، انطلاقًا من الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

ولقد كان يتحرَّك بموجب رسالته هذه، فأينما وجد من قد يستمع إليه، كان يبادر إلى التواصل معه، ويمدُّ إليه حبال المودَّة، ويسعى إليه حاملًا قبس الهدى والنور، طمعًا في هدايته، وكان في كل ذلك يتطلَّع إلى صلاح المجتمع بأكمله، من خلال صلاح أفراده.

ولا أنسى كما لا ينسى مجتمع اللواتيا بل والعجم أيضًا، الأيادي البيضاء التي مدَّها سماحته لنا في نهاية السبعينات من القرن الماضي، إذ غرس في أوساطنا بذور حب الدين والتعلُّق بمبادئه الحقَّة والالتزام بنهجه القويم، وتمخضَّ حراك سماحته آنذاك عن تأسيس مكتبة المعرفة في مطرح، ومن هناك بدأت الصحوة الدينية في مجتمعنا، لتقوده على طريق الهدى والصلاح وحب العلم والمعرفة.

ولم تقف مسيرة سماحته عند ذلك الحد، بل كان من ثمارها الطيِّبة أن نفر عدد من أبناء المجتمع لطلب العلم، فالتحق جملة منهم بالدراسة في الحوزة العلمية في الكويت أولًا ثم في إيران.

وبطبيعة الحال لم تكن فترة تواجد سماحته بيننا في مطرح ومسقط خلوًا من التحدِّيات والصعوبات، على مختلف الصعد، ولكن سماحته استطاع بحكمته الفائقة وسعة صدره أن يقابل جميع تلك التحدِّيات بلطف وكرامة، فلم يتعرَّض لأيِّ أحد بالسوء، ولم يقابل الإساءة بمثلها أبدًا، بل كان دائمًا يردُّ بالإحسان ويقابل بالأحسن..

لقد كان همُّه في إيصال رسالته يشغله عن الاهتمام بصغائر الأمور، ويمنعه من ردِّ الإساءة بمثلها، بل لعله كان يرى في تلك التحدِّيات فرصًا لتبليغ رسالته وإسماع صوته.

وقد كان سماحته من فرط اهتمامه برسالته وإدراكه لمسؤوليته تجاه الناس، دائم العمل، متواصل العطاء، كثير النتاج، على مختلف الصعد وفي مختلف الميادين.. بل كان يبتكر الساحات، فكان لا يتوانى عن التواجد مع الصغار والنساء ومع الشباب والكهول، ويتحدَّث إليهم جميعًا بما يتناسب مع توجُّهاتهم ومستويات إدراكهم.

وبذلك ألهم الشباب من الذكور والإناث السير نحو العلم والمعرفة، في إطار الالتزام الديني الواعي، والروح الرسالية المثابرة.

لقد كان سماحته يتميَّز بالجِدَّة والابتكار، في الأطروحات والرؤى، وفي الأسلوب والمنهج، ولم يكن يرضى لنفسه أن يكون أسير القيود الوهمية المصطنعة، التي تحول دون تبليغه رسالته وتحصره في فئة معيَّنة من الناس.

ولذلك نجده ينطلق مع الشباب المؤمن في رحلاتهم ويشاركهم الحياة، ليُعلِّمهم الدين الواقعي الذي لا ينفصل عن الواقع ولا يتنكَّر للحقائق، الدين الذي أراد له اللَّه سبحانه أن يكون منهج الناس في حياتهم الدنيا ليخرجهم

من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.

كما نجده يصاحب الأطفال والفتيان، غير متعالٍ عليهم ولا معرض عنهم، بل يجلس معهم ويتحدَّث إليهم ويستمع منهم.

وإلى جانب ذلك نراه يسامر الكهول والكبار في السن، ويتحدَّث إليهم بحب ولطف، يشاركهم أفكارهم ويبادلهم الآراء.

لقد كان سماحته مثالًا حيًّا لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾، إذ إنه لم يكن يجلس مكتوف اليدين أبدًا، فما أن يفرغ من عمل كان يبدأ عملاً آخر يُقرِّبه إلى غايته العظمى ألا وهي رضوان اللَّه تعالى عليه.

لقد كان يحمل في جعبته الكثير من الأفكار والمشاريع الراقية، وكان يبحث عمَّن يُعينه على ترجمتها إلى واقع ملموس، وبمجرَّد أن يميل ظنُّه إلى أنه عثر على الشخص المناسب أو الأشخاص المناسبين، كان يبادر إلى إلقاء خيوط الأفكار إليهم لينسجوا منها عملًا صالحًا نافعًا.

لقد علَّمني سماحته بسيرته فضلًا عن أقواله أن المؤمن بركة على من حوله، وأنه أينما وُضع ينفع، ولا ينتظر من أحد أن يسند إليه دورًا أو يُلقمه فكرة، بل يكون هو البادئ وهو المخطِّط وهو المنتج لكثير من الأعمال والأدوار والأفكار.

ثم إن سماحته مع كل ما كان يحمله من فكر وعلم ومعرفة في مختلف الميادين، كان يتزيَّن بالتواضع الجمِّ الذي قلَّ نظيره، فلم يكن يترفَّع على أحد أبدًا، ولم يكن ينفرد برأي، بل كان يشاور من معه ويشاركهم الآراء والأفكار.

من الواضح أن سماحته يؤمن بشدَّة بالعمل الجماعي، ويعتقد بقوة أن

يد اللَّه مع الجماعة، وقد كان هذا هو منهجه الذي يسير عليه، وهذا ما تعلَّمناه من مدرسته المباركة.

لقد أكد لنا سماحته أن الدعوة إلى اللَّه ليست بضاعة خاصة بأحد من الناس، بل هي للناس كافة، ومن ثَمَّ فلا أحد يحق له أن يدَّعي أن الفضل كله يعود له في نشر الدين، بل لا أحد يحقُّ له أن ينفرد في الدعوة إلى اللَّه، لأنه لن يُحقِّق المطلوب مهما سعى.

لقد كان سماحته يؤمن بأن الإنسان ليس كالآلة، فلا يمكن أن نعامل الناس معاملة الآلات، ولا يصحُّ أن نعالج الناس كلهم بنفس ما عالجنا به واحدًا منهم، فلربما يصلح إنسانًا أمرٌ يضر غيره، ومن هنا كان لزامًا على الداعية الرسالي أن يُنوِّع أفكاره ويُجدِّد أساليبه، وهذا لا يكون إلَّا بمشاركة الآخرين ومشاورتهم والعمل معهم.

وممَّا تعلَّمناه من مدرسة سماحته في الدعوة إلى اللَّه سبحانه، أن ما يناسب اليوم من الأفكار والأساليب، بل ويكون ضروريًّا لا بد منه، قد يُصبح غير مناسب عند تبدُّل الظروف وتغيُّر الأحوال، فلكل زمان ما يناسبه، على أَلَّا يكون شيء من ذلك خارج دائرة ما أحل اللَّه سبحانه.

ولا يخفى أن هذا هو منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ إنهم أسَّسوا لما يُعرف بتنوُّع الأدوار ووحدة الهدف، كما يمكن ملاحظة ذلك بوضوح في سيرتهم العطرة (صلوات اللَّه وسلامه عليهم).

ولقد تجسَّد هذا المنهج الرسالي في حركة سماحته بصورة باهرة، فكان له الأثر الطيب والمردود الجميل على الدعوة الرسالية وعلى أتباعها والمتأثرين بها.

مخطئ من يغفل عن قانون (الإقبال والإدبار) في الحراك الاجتماعي، بل ويُوقع نفسه ومن معه في أشدِّ الضيق والحرج.. هكذا تعلَّمنا في مدرسة سماحة الشيخ حسن الصفار.

إن الحركة الدعوية الرسالية تسير على نهج رسمه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إذا أردتَ أن تُطاع فاطلب المستطاع»، وعليه فإن تحميل الناس ما لا يحتملون، يُؤدِّي إلى نتائج وخيمة.. وهكذا رسم سماحته خطوات حركته الإصلاحية.

وهنا أقول دفعًا للبس: إن كلامي هذا لا يعني أن سماحته كان معصومًا أو فوق النقد، بل هو يُحفِّز للنقد الذاتي، كما أن النتائج في الحراك الاجتماعي لا تأتي دائمًا موافقة لما يريد الإنسان «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، ومن هنا فإن الحراك الإصلاحي الرسالي قد تقع فيه الأخطاء هنا أو هناك.

إن الخطأ ليس جريمة، فاللَّه سبحانه لا يؤاخذنا عليه ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾[1].

لقد أشعل سماحة الشيخ حسن الصفار (حفظه اللَّه) في قلوب الكثيرين شعلة إيمان لا تنطفئ أبدًا، مهما تراكم عليها الرَّين، ومهما غمرتها الأفكار والتوجُّهات.

وسيبقى لسماحته صوت في قلوبنا يُنبِّهنا كلما ادلهمت علينا الغشاوات، وأرهقتنا التحدِّيات، لنسير في درب الإيمان باللَّه ونذوب في حبِّه سبحانه.

فجزاه اللَّه عنا أفضل جزاء المحسنين.

(١) سورة الأحزاب الآية ٥.

تجربة في العبور
من حواجز الخلاف المذهبي

الدكتور توفيق محمد تقي آل سيف[1]

يُوفِّر التأمُّل في سيرة الشيخ حسن الصفار الفكرية والعملية، فرصة نادرة لمطالعة التحوُّلات التي مرَّ بها المجتمع الديني بشكل عام، ومجتمع القطيف بصورة خاصة، خلال العقود الأربعة الأخيرة. هذه مادة غزيرة تحتاج مساحة أوسع ممَّا هو متاح، ووقتًا أطول، كي تأخذ حقَّها في البحث والتحليل. لهذا أكتفي بشذرات ممَّا أظنه واحدًا من أبرز جوانب التميُّز في تجربة الشيخ حسن، أعني به دوره في مد جسور التفاهم بين أطراف شديدة التباغض والتباعد. وهو جهد لم يقتصر على المبادرات العملية، بل توازى معه تنظير عميق ومتين التأسيس، لفكرة التقارب والتفاهم. وأظن أن جهود الشيخ في هذا المجال بالذات، قد تركت أثرًا عميقًا في الثقافة السياسية للشيعة السعوديين، وسهَّلت عليهم التحرُّر من تابوهات شديدة العسر،

(١) مفكر وكاتب وباحث – القطيف.

تابوهات تتعلَّق بتقبُّل الاختلاف والتعامل مع المختلف، استنادًا إلى قيم ومعايير غير تقليدية.

وأريد استثمار المناسبة في التذكير بجهود الأشخاص، الذين بذلوا جهودًا مشكورة في مد جسور التفاهم بين المجتمعات المسلمة، وحاولوا تثبيط موجات الكراهية والتعصُّب، التي تهب على العالم الاسلامي بين حين وآخر. لا شك أن جهود هؤلاء الأشخاص وغيرهم، قد مكنتنا من تلافي بعض الفتن والعيش بسلام، مهما تخالفت آراؤنا وتباينت مذاهبنا وتوجهاتنا. هذا المقال مكرَّس لتمجيد الاتجاه التوافقي في الإسلام التقليدي، الذي لا أوافقه في معظم رؤاه، لكني لا أنكر جهوده الطيِّبة في مد الجسور.

هذا القول لا يكتمل، دون الإشارة الى حقيقة أن النشاطات التي تستهدف تقريب الخصوم وردم الفجوات، لم تكن بالأمر المحبَّب لدى غالبية الناس، من النخبة والعامة على حد سواء. من هنا فإنك لا تجد غير عدد ضئيل من الأشخاص الذين يمكن وصفهم بصنَّاع التوافقات أو بناة الجسور، بين عشرات التيارات والجماعات التي ملأت المشهد الاجتماعي والسياسي، منذ أوائل القرن العشرين حتى اليوم.

الاتجاه التوافقي، أي دعاة التقارب بين الجماعات الدينية، كان ولا يزال تيار أقلية في المؤسسة الدينية، وبين النخبة الاجتماعية على حد سواء. ثمة -في مقابلهم- متعصبون يدعون لمقاطعة المختلفين، وهم يشكلون نسبة تزيد قليلًا عن التوافقيين، لكن خطابهم يجد قبولًا أكثر بين جمهور العامة الذي يميل -إجمالًا- لاتخاذ مواقف انطباعية مؤقتة، ومدفوعة في غالب الأحيان بردود الفعل على ما يظنونه توجهات عدوانية من جانب الأطراف الأخرى.

أعتقد أن هذا هو أحد الأجوبة عن السؤال الملحِّ الذي يواجهنا تكرارًا، وفحواه: لماذا يصعب علينا تقبُّل الاختلافات والخلافات، واستيعابها في البناء الاجتماعي كمؤشر على المتانة الثقافية والتنوع المثري؟

دعاة التقارب:

يمثّل العلَّامة السيد موسى الصدر، الزعيم الديني للشيعة اللبنانيين في الفترة بين ١٩٦٠ حتى اختطافه في ١٩٧٨ استثناء ملفتًا بين كافة الزعماء الدينيين في الشرق الأوسط، فقد سعى بجد وباستمرار، لمد جسور التواصل مع القوى الدينية والأيديولوجية في لبنان، منذ أن حل فيها ممثِّلًا للمرجع الديني السيد حسين البروجردي.

وقد ترك السيد الصدر لخلفائه تجربة عملية غنية. لكنها -لسوء الحظ- لم تتحوَّل إلى أمثولة في المجتمع الديني، وأعني به تحديدًا الحوزة العلمية ورجال الدين. ويبدو لي أن الشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٩٣٦-٢٠٠١) نائب الصدر وخليفته، هو الوحيد الذي حافظ على تراث التواصل الذي انشأه الصدر، رغم أنه اختصره كثيرًا، فركَّز -في المقام الأول- على إصلاح علاقة الجمهور الشيعي بالحكومات القطرية، لا سيما في منطقة الخليج العربي، التي كانت قد شهدت توتُّرًا بين الجانبين بعد انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩.

لا أنسى بطبيعة الحال التجربة الغنية للمرحوم السيد هاني فحص (١٩٤٦ - ٢٠١٤) الذي كان فريدًا في سعيه الدائب لمد الجسور وإنشاء التفاهمات مع مختلف الاتجاهات السياسية والدينية. تدرس تجربة السيد هاني في إطار مفهومي أوسع من التقارب المذهبي، كما أن منطلقاتها تتجاوز

هذه الحدود.

أود الإشارة -أيضًا- إلى السيدين حسين البروجردي، المرجع الأعلى في وقته، وعبد الحسين شرف الدين (١٨٧٢-١٩٥٧)، أبرز علماء الشيعة في لبنان، الذي تُوفِّي قبل عام من وصول الصدر. ويقال: إنه هو الذي أوصى بأن يكون خليفته، ولعله طلب من البروجردي أن يرسله إلى لبنان كممثِّل ديني له.

كان السيد شرف الدين منفتحًا على المؤسسة الدينية السنية في لبنان وعلى شخصياتها، وشارك في عدد من المناسبات التي أقامتها دار الفتوى، وتحدَّث فيها حول ضرورة توحيد الصفوف.

على الصعيد الفكري المتعلِّق بقضايا الحوار، فإن أبرز ما كتبه شرف الدين هو كتاب «المراجعات» الذي يضم ما يفترض أنه محاورات مع شيخ الجامع الأزهر يومذاك، الشيخ سليم البشري. ويكشف هذا الكتاب عن ميل قوي لدى شرف الدين، لمد جسور الحوار مع المختلف المذهبي. لكن يؤخذ عليه تركيزه بشكل تام على الجانب المذهبي/ الديني دون مجالات الحياة الأخرى، التي كان يمكن أن تشكّل قواسم مشتركة وجسورًا ممتدة، لا يختلف عليها اثنان. في اعتقادي أن الاستغراق في نقاش الخلافات العقدية لا يخدم مبدأ التقريب، ولا يساعد في ترميم الجسور بين هذي الضفة وتلك، بل ربما عطَّل الجهود الرامية إلى هذا.

المرجع البروجردي:

تُوفِّي المرجع الديني الأعلى السيد حسين البروجردي في مارس ١٩٦١. وكان قد تولَّى المرجعية العليا بعد وفاة سلفه السيد أبي الحسن

الأصفهاني في ١٩٤٦. وثمة مؤشرات عديدة، تشير إلى أنه كان أكثر الفقهاء المراجع اهتمامًا بقضايا الحوار. وسمعت وقرأت شهادات متطابقة، تؤكِّد اهتمامه بتعزيز اتجاه المصالحة بين السنة والشيعة، ولا سيما بين رجال الدين. ونقل ثلاثة من تلاميذه البارزين أنه كان حريصًا على استعراض آراء الفقهاء السنة بجانب نظرائهم الشيعة، في دروسه العالية في الفقه (البحث الخارج)، وكذلك أحاديث الأحكام المعتبرة عند هؤلاء وأولئك. ونقل آية اللَّه منتظري أن البروجردي كان ينظر إلى الفقه السني كخلفية، توضح الإطار التاريخي للروايات والأحكام الصادرة عن أئمة الشيعة، ولهذا اعتبر معرفة الفقه السني وأدلته ضرورية للفقيه الشيعي[١]. ويتَّفق كل من واعظ زاده خراساني ومرتضى مطهري، وهما -أيضًا- من تلاميذ البروجردي، أن أستاذهما كان يعتبر اختلاف الأدلة والأحكام بين الشيعة والسنة، ظاهرة علمية طبيعية ولا علاقة لها بالفوارق العقيدية، وأنه كان يعارض اتخاذ الفروق العقيدية مقياسًا في التعامل معها[٢].

إضافة الى هذا، نقل أكثر من مصدر أن البروجردي كان منزعجًا من الميول الانعزالية في الوسط الشيعي، ولا سيما تلك التي تتغطَّى برداء الدفاع

---

(١) حسين علي منتظري: «مبانى وسبک استنباط آيه اللَّه بروجردى» حديث الى مجلة حوزه (دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم)، شماره ٤٣-٤٤، اردیبهشت ١٣٧٠هـ.ش. (إبريل ١٩٩١). ن. إ. اطلعت عليها في ٣٠-١١-٢٠٢١.

http: / /ensani.ir /fa /article /65985 /

أيضًا: مرتضى مطهرى : مجموعه آثار شهيد مطهرى، ج١٩، ص: ٥٦٩

http: / /www.mortezamotahari.com /fa /bookview.html?BookID=390&BookArticleID=0&AssetID=1&Change=Next

(٢) محمد واعظ زاده خراسانى: حديث الى مجلة حوزه، المصدر السابق. ن. إ.

http: / /ensani.ir /fa /article /65978 /

عن العقائد المذهبية الخاصة. ومن ذلك مثلًا ما نقله منتظري من أن أحد رجال الدين نشر منظومة شعرية تضم الأحكام الفقهية، ولما علم البروجردي بأن مطلع الكتاب يتضمَّن تعريضًا بالخلفاء الراشدين، أصدر فتوى بحرمة نشر الكتاب، فاضطر صاحبه إلى إزالة هذا التعريض[1].

وفي السياق نفسه أظهر البروجردي معارضة شديدة للاحتفاء الواسع بالشيخ عبد الحسين الأميني، مؤلف كتاب «الغدير» حينما زار اصفهان قادمًا من النجف[2] (لم أعثر على التاريخ الدقيق لهذه الزيارة، والأرجح أنه في صفر ١٣٧٦هـ - سبتمبر ١٩٥٦).

وخلال تتبعي لمجريات زيارة الأميني إلى أصفهان، لفت نظري أنه لم يزر مدينة قم، العاصمة الدينية للبلاد، حيث مركز الحوزة العلمية ومقر المرجع الأعلى وكبار الفقهاء، والتي تبعد عن أصفهان أقل من ٣٠٠ كم، وتقع في طريق سفره، في الذهاب والإياب. فلعل الأميني أراد تحاشي الاضطرار إلى لقاء البروجردي.

دار التقريب:

أعلن عن إنشاء «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» في القاهرة سنة ١٩٤٧. وترأَّسها محمد علي علوية باشا وهو وزير سابق للأوقاف. وضمَّت قائمة المؤسسين عددًا من الشخصيات الدينية الرفيعة، بينهم عبد المجيد سليم ومحمود شلتوت، وكلاهما تولى -في وقت لاحق- مشيخة الجامع الأزهر،

(١) آية اللَّه منتظري: المصدر السابق . وأحتمل ان الشخص المقصود هو عبد الحسين بن محمد تقي وكيلي (١٩٠٦-١٩٨٦) وأن الكتاب المعني هنا هو «لآلى الفقهاء .. منظومة فقهية» طبع في قم سنة ١٣٧٢هـ.

(٢) منتظري: المصدر السابق

والشيوخ محمد عبد اللطيف دراز وحسن البنا وعيسى ممنون وعبدالوهاب خلاف. كما ضمَّت الشيخ محمد تقي القمي من إيران، وعبدالحسين شرف الدين من لبنان والشيخ أمين الحسيني من فلسطين، ومحمد حسين آل كاشف الغطاء من العراق ومحمد تقي القمي من إيران، وعلي بن إسماعيل المؤيد ومحمّد بن عبداللَّه العمري من اليمن[1].

كان للشيخ محمد تقي القمي قصب الريادة، في الدعوة إلى إنشاء هذه المؤسسة. ويبدو أنها شغلت اهتمامه منذ زيارته الأولى إلى مصر في ١٩٣٧. وبحسب بيانها التأسيسي الصادر في مارس ١٩٤٧ (ربيع الثاني ١٣٦٦هـ) فإن جوهر مهمتها، هو تعزيز التعارف والتفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية كافة، بما يكرس مفهوم الأخوة في اللَّه ووحدة الاتجاه، وإن تنوَّعت الطرق والممارسات والرؤى الفقهية.

في ١٩٧٩ أغلقت دار التقريب، نتيجة لتوتر العلاقات بين إيران ومصر بعد قيام الثورة الإيرانية. والحقيقة أن هذه الفترة شهدت -أيضًا- تصاعدًا غير مسبوق للنزاعات المذهبية. وقد أطلقت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) مبادرة للتخفيف من غلواء التنافر المذهبي، وعقدت اجتماعًا لهذا الغرض في الرباط في سبتمبر ١٩٩١، ثم وضعت استراتيجية عمل قدمتها إلى المؤتمر العاشر لمنظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في ماليزيا سنة ٢٠٠٣، وحظيت الاستراتيجية بقبول المنظمة وتبنيها. وعلى إثر ذلك، تأسَّس داخل الإيسيسكو مجلس استشاري أعلى، لتنفيذ مضامين استراتيجية

(١) فهمي هويدي: تجربة التقريب بين المذاهب الاسلامية، مجلة رسالة التقريب، العدد ٢٩ (رجب-رمضان ١٤٢١) ص ص ٨٦-١٠٨. (ن. إ. اطلعت عليها في ٣٠ نوفمبر ٢٠٢١) http: / /www.taghrib.com /ar /magazine /content /29 /86

التقريب، لكن الواضح أن النزاعات السياسية التي وسمت العلاقات بين دول العالم الإسلامي خلال هذه الفترة، قد حالت دون أي تقدُّم جِدِّي في هذا الاتجاه.

تقييم إجمالي لجهود المصالحة في إطار التيار الديني التقليدي:

يخبرنا المسرد التاريخي لجهود التقريب المذهبي، أن الاتجاه التصالحي لم يتحوَّل إلى جناح ثابت في التيار الديني الرئيسي (التقليدي) بين الشيعة، ولا في المؤسسة الدينية. لكن الإنصاف يقتضي القول: إن هذا التيار لم يخلُ في أوقات كثيرة من ميل للتصالح، مدعوم أحيانًا من جانب الطبقة العليا في المؤسسة الدينية. والواضح أن الاتجاه التصالحي لم يحقّق نجاحات باهرة، كما يتوقَّع كثيرون. لقد تعثَّرت المساعي التصالحية بعد رحيل المرجع البروجردي، على رغم أن خليفته السيد محسن الحكيم، كان هو الآخر أميل للاتجاه التصالحي مع المذاهب الاسلامية، لكن هيمنة الاتجاه القومي (القوميين العرب + البعث العربي الاشتراكي) على الحكم في العراق، أعاقت هذا المسعى.

أظن أن الميول الطائفية الظاهرة لحكومة عبدالسلام عارف، الذي تولَّى السلطة بعد انقلاب فبراير ١٩٦٣، قد ثبَّطت الميول التوافقية. وقد تعرَّضت الحوزة العلمية في النجف، وهي الوعاء الرئيس للمؤسسة الدينية، لتضييق شديد، يصعب فصل مضمونه الطائفي عن مبرراته السياسية والأيديولوجية. ولم يكن بوسع الحوزة سوى الانكفاء على الذات وتجنُّب المواجهة، كما فعلت في غالب الأحيان. لكن هذا الموقف لم يكن بلا ثمن، وكان انعكاسه الأكثر سوءًا هو تثبيط الاتجاه التوافقي، وتعزيز الاتجاه الانعزالي وسط

النخبة الدينية والاجتماعية.

لاحظت -أيضًا- أن الاتجاه الانعزالي بقي نشطًا، حتى في ظروف مواتية، كما هو الحال في إيران بعد ١٩٧٩ والعراق بعد ٢٠٠٣، الأمر الذي يحملني على الاعتقاد بأن الاتجاه التصالحي، لا يملك مقومات قوية للحياة والاستمرار، فضلًا عن النمو والتوسُّع. وهذا التقدير ينطبق خصوصًا على اتجاه التصالح في التيار الديني التقليدي، والمؤسسة الدينية التي تحتل قمته. لا يختلف الأمر بين الاتجاه القديم الذي استعرضنا جهوده في السطور السابقة، وبين نظيره الجديد القائم على المبررات والمعايير نفسها.

ثمَّة -في رأيي- أربعة عوامل رئيسية، لفشل تلك الجهود الكبيرة والمقدَّرة. وإذا أردنا إطلاق حركة تقارب وتوافق اليوم، فيجب أن تتلافى بقدر المستطاع عيوب الحركة السابقة. هذه العوامل هي:

أولًا: الانشغال بقضايا الخلاف:

إن محور انشغال الاتجاه الديني التقليدي هو قضايا الخلاف النظرية، لا سيما في العقيدة والفقه، وإغفالهم التام تقريبًا لقضايا الدنيا ومشكلاتها، بما فيها تلك التي يعاني منها أتباعهم أشد المعاناة، وأهمها في اعتقادي تعزيز السلم الاجتماعي، بين مختلف الناس الذين يمكن أن يتأثَّروا بالنشاط الديني، ويأتي من بعده تعزيز الشعور العام بالمسؤولية تجاه الذات والغير، وما يندرج تحته من مهمات المجتمع المدني، سيما في الأقطار التي تقاعست حكوماتها عن القيام بما يتوجَّب عليها من دور تنموي، أو ربما عجزت عن القيام به كاملًا.

وقد رأينا مثالًا ممتازًا على آفاق التعاون الممكن، في مؤتمر الأمم

المتحدة المعني بالمرأة، الذي انعقد في بكين عام ١٩٩٥ حين توافق وفد الفاتيكان مع بعض الوفود الإسلامية (ومنها وفد الجامع الأزهر) على تشكيل جبهة موحَّدة، ضد الدعوات الرامية لتشريع ما اعتبروه نقضًا للقيم الدينية المشتركة، مثل تشريع الإجهاض والعلاقات المثلية.

إن انشغال المجتمع الديني، وأعني رجال الدين على وجه الخصوص، بقضايا الخلاف النظرية في الفقه والعقيدة، تجعلهم أكثر تشدُّدًا مع المختلف. من ناحية أخرى فإن الجمهور العام لا يرى لنفسه دورًا في هذا الخلاف، فهو لا ينعكس على حياته بشكل مباشر، كما أنه -مثل غالب القضايا النظرية- معقَّد وغير مريح إلَّا للمختصين. من هنا فإن دور الجمهور سيقتصر على التلقي من النخبة الدينية وإظهار النصرة لمواقفها، وليس المشاركة في تطوير مواقف منبعثة من واقع الحياة ولوازمها.

نتمنَّى أن تتبلور طروحات عابرة للمذاهب، تتعلَّق بأغراض إنسانية بحتة، مثل مشروعات مكافحة الفقر والاتِّجار بالبشر ونشر المعرفة وتعزيز التفاهم والتسالم بين الشعوب ومواجهة نزعات التعصُّب والكراهية، وأمثال ذلك. مثل هذه المشروعات يمكن أن تجعل المختلفين دينيًّا أو مذهبيًّا، أقدر على التفاهم في قضايا الحياة التي تشكّل همًّا مشتركًا، كما أنها تكشف لهم عن إيجابيات التقارب والتلاقي الإنساني، حيث إن الخلافات في الأفكار لا تشكِّل سوى جزء صغير من الحياة بآفاقها الرحبة.

ولا شك أن النخبة الدينية تملك قوة تأثير عظيمة، ولديها قدرة -ربما غير مستثمرة فعليًّا- على تعبئة الملايين من الناس في مختلف أنحاء العالم، في أي مشروع يجد الناس أنه سيعود عليهم أو على نظرائهم من بني آدم بالخير.

إن الإنسان -بطبعه- ميال للتعاطف والتضامن مع بقية البشر، وما أعظم أن يستثمر التوجيه الديني في تظهير وتفعيل هذه النزعات القيمة، وتحويلها إلى أداة لربط الجسور بين البشر، على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم.

ثانيًا: غموض أغراض المصالحة:

إن جوهر فكرة الحوار والمقصود به عندهم، لم يكن واضحًا تمامًا. فالنقاشات المسجَّلة توحي بأن غرضها الرئيس، هو التسالم ونبذ الصراع بين السنة والشيعة. لكن الوسائل التي اتّبعت لتحقيق هذه الغاية، تركّز على بيان المشتركات الفكرية بين المذاهب والمبررات النظرية لنقاط الاختلاف، فكأن الغاية المرادة -على مستوى العمل- هي إقرار كل من الطرفين بحقانية ما يطرحه الطرف الآخر، أي أن يقبل الشيعي بصحة القواعد والفروع التي يتبنَّاها السني، وأن يتقبَّل هذا صحة ما لدى الطرف الأول. وهذا الطريق يقود إلى نتائج أكثر تقدُّمًا وأبعد أثرًا من الغاية الأولى.

لو تأمَّلنا في المعنى الكامن وراء هذا القبول المتبادل (على افتراض أنه هو المقصود فعلًا)، لوجدناه مقاربًا لمبدأ تعدُّد الحق pluralism وليس فقط تعدُّد الاجتهاد. وهو لو صح، فسوف نعتبره خطوة متقدِّمة جدًّا، في اتجاه تبني مبدأ التسامح الديني religious tolerance.

معنى هذه الرؤية أن الحق ليس واحدًا، وأنه بالإمكان أن يكون هناك إسلام بنسخة سنية، وإسلام بنسخة شيعية، ولا مانع من وجود نسخ أخرى للإسلام، كلها صحيحة، وأن من يتبنَّاها مسلم صحيح الدين بريء الذمة، وبالتالي فلا ينبغي التنازع بين هذا المذهب وذاك، أو أن النزاعات بين المذاهب ستعتبر اختلافات على أمور الدنيا لا على الدين.

لكني استبعد أن يكون هذا المعنى، هو المضمون الكامن في دعوة الحوار المذكورة؛ لأنه لو كان هذا المعنى موجودًا في تفكير المتحاورين، لطبَّقوه على من يعارضهم في إطاراتهم الاجتماعية والدينية الخاصة. حيث نعلم أن الذين عارضوا التيار الديني السائد، واجهوا عنتًا شديدًا، من جانب القوى النافذة في العالم السني والشيعي على حد سواء. وهو ما ينفي احتمال تبني تلك القوى (وبينهم دعاة الحوار) لمبدأ التعدُّد.

احتمال ثانٍ: من المحتمل أن مبدأ تعدُّد الحق/ الحقيقة لم يكن الباعث لتلك الحوارات، بل الإيمان بالأساس العقلي/ الشرعي للاجتهاد. وخلاصته أن كل من اجتهد للوصول الى الحقيقة، فهو معذور إن أخطأ، بل ومثاب على جهده. والمجتهد لا يلام ولا يدعى لترك ما توصَّل إليه باجتهاده، حتى لو جاء مخالفًا للإجماع. بمعنى أن دعاة الحوار يُقرُّون لمناظريهم بحق الاجتهاد والالتزام بما ينتج عنه. هذا لا يعني إقرارًا بأن ما يتوصَّل إليه الآخرون صحيح من الناحية الدينية، بل هو إقرار بأن للناس الحق في الاجتهاد والالتزام بنتائج تفكيرهم واجتهادهم، لأن حكم العقل محترم وهو حجة على صاحبه، دون الآخرين.

إذا صح هذا الاحتمال، فهو يعني أن دعاة الحوار كانوا مؤمنين بحرية التفكير والتعبير وحق الآخرين فيه، حتى لو قلنا بحصره في إطار الالتزام الديني، أي حرية الراي والتعبير في إطار المنطلقات الدينية، وعدم الخروج على قواعد الدين العامة.

أيًّا كان الاحتمال الصحيح، إيمانهم بالتعددية أو تقبلهم لحرية التفكير والاعتقاد، فإن الاستغراق في النقاشات النظرية ومحاججة الأدلة، بعيد عن

الهدف المفترض، أي التفاهم والتسالم والتقارب بين المجتمعات المسلمة. هذه المهمة لم تتحقَّق في الماضي، ولا يمكن أن تتحقَّق من خلال النقاش العلمي؛ لأن الافتراق لم ينشأ في الأصل لأسباب علمية، ولم يستمر ويتعمَّق بسبب الاختلاف على الأدلة العلمية أو توفر البيانات.

لقد افترق المسلمون في ماضيهم وحاضرهم على مصالح سياسية واجتماعية. ولهذا فإننا لا نعرف نزاعًا دينيًّا أو مذهبيًّا، جرى حلُّه من خلال النقاش العلمي، بل من خلال إعادة تعريف المصالح والحصص، وتعيين ما يستحقه هذا وما يستحقه الآخر.

قبل الانتقال من هذه الفقرة، أود الإشارة -أيضًا- إلى نقطة جوهرية نحتاج إلى استذكارها، لو اقتضى الأمر مناقشة مستجدة للحوار بين المذاهب، أعني بها مسألة التسامح. لقد بذل دعاة الحوار جهدًا عظيمًا وطيِّبًا، في سبيل تجسير الهوة بين أهل الإسلام من مختلف الطوائف. وهذا جهد مقدَّر ومحمود. لكن هذا لم يكن متوازيًا مع التزام صريح وعلني بمبدأ التسامح وحرية الاختلاف، الذي ينبغي أن يطبق دون تمييز، في العلاقة مع المختلف المذهبي والمختلف الديني وحتى الملحد.

في اعتقادي أن الحوارات التي تبنَّاها التيار الديني التقليدي، أخفقت في التحرُّر من المضمون التبشيري، الذي يعني -ضمنيًّا على الأقل- عدم الإقرار بحق كل الأطراف في الاختلاف، وحقها في عدم الإقرار بصحة ما يتبناه الآخر، والقبول -في الوقت نفسه- بالتعاون معه، في الأمور التي لا تنطوي على صدام مع قناعات دينية أو مذهبية خاصة.

ثالثًا: الاستمرارية بدل التجديد:

منهج التقارب المذهبي الذي يعتمد، في المقام الأول، على تقريب الأفكار والإقرار المتبادل بالمتبنيات، أدَّى -موضوعيًّا، وإن لم يكن مقصودًا في الأساس- إلى تقبيح النقد واعتباره هدَّامًا في الجملة. ولهذا رأينا في بعض الحالات ردود فعل غاضبة، من جانب من يفترض أنهم دعاة تقارب، على رؤية نقدية صادرة من الطرف الآخر. لعل المثال الاقرب على هذا، هو الملاسنة الشديدة التي جرت بين الشيخ يوسف القرضاوي وتلاميذه من جهة، وبين نائبه في اتحاد علماء المسلمين، الشيخ محمد علي التسخيري وآخرين، بعد تصريحات الأول حول ما أسماه التبشير الشيعي[1].

أجد أن الفرضية التي سار عليها منهج التقريب، تحتم -حتى من دون تصريح- التوقّف عن النقد، كي لا ينظر إليه كموقف عدائي من جانب المذهب الآخر. إن اختلاف المذاهب قد يكون عاملًا مساعدًا في إصلاح كل مذهب، إذا أقرَّ رجال هذا المذهب بأن النقد حق، وأنه ضرورة للإصلاح والتطوير لا غنى عنها.

بيان ذلك: الاختلاف المذهبي يعني أن هناك من يرى في مذهبي عيوبًا نظرية أو عملية، تجعله دون المستوى المطلوب للالتزام (وبالتالي إبراء الذمة بحسب التعبير الفقهي). أنا -أيضًا- أرى المذهب الآخر على هذا النحو، ولولا هذا لتبنيته.. وهكذا. كل شخص يجد نفسه في إطار ديني أو ثقافي أو أيديولوجي يرتاح إليه ويقبل مسلَّماته، ولهذا -وهذا من طبائع الأمور- يراه

(١) لبعض التفاصيل، انظر حديث الشيخ يوسف القرضاوي، جريدة المصري اليوم ١٩ - سبتمبر - ٢٠٠٨.

https: / /www.almasryalyoum.com /news /details /1938586

أصح من غيره. كما أن غيره يرى الأمور بالعكس تمامًا، وسبحان القائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

وجود هذا الاختلاف بين الناس، والتباين بين المذاهب والآراء، هو العامل الأهم في إبقاء سنة التطوير حية نشطة. ولو كان الناس جميعًا متَّفقين على رأي واحد ومذهب واحد، لما شعر أحد بالحاجة إلى تطويره. للإنصاف يلزم القول: إن أي مذهب لا يخلو من دعاة للإصلاح والتطوير من داخله. ولهذا فقد يقول بعض الناس: إن هذا هو الأسلوب الصحيح، أي إن يقوم أتباع كل مذهب بإصلاح مذهبهم، دون التطرُّق لمذاهب الآخرين، خشية التسبُّب في إطلاق مشاعر القلق والخوف على الذات وبالتالي العداوة.

هذه الفكرة صحيحة في هذا السياق فقط، وهي صحيحة في حالات التأزُّم، وليس في كل حال.

بيان ذلك: أن النقد الداخلي لا يذهب غالبًا إلى النقاط الحرجة أو العيوب الإصولية، إما لأن الإنسان لا يرى الأشياء حين يكون في وسطها، أو لأنه تربَّى ونشأ على اعتبارها صحيحة، مثل بقية أجزاء المذهب، ولهذا لا يرى فيها ما يخالف المنطق الذي يعرفه. هذا الشخص نفسه ينظر إلى المذاهب الأخرى، فيشعر بالدهشة من كثرة الأشياء التي يحسبها غير معقولة، أو غير مبنية على أرضية متينة، بل لعله يستغرب من قبول أصحاب ذلك المذهب لها دون تردُّد. المثال الذي يقال في هذا الصدد، هو نظرة المسلمين إلى الهندوس وتعاملهم مع البقرة. وفي المقابل نظرة غير المسلمين إلى المسلمين وطوافهم حول الكعبة وأعمال الحج بصورة عامة، التي تبدو لسائر الناس غريبة وغير معقولة.

من هنا فإن النقد الآتي من خارج الإطار الثقافي/ الأيديولوجي، هو الدافع الفعَّال للإصلاح؛ لأنه لا ينطلق من قبول مسبق بالأساسيات والفرضيات، بل ينطلق من نقد الفرعي إلى نقد الكلي. صحيح أنه مؤلم لهؤلاء الذين لا يفصلون بين ذاتهم وانتمائهم الفكري/ الأيديولوجي، لكنه -في الوقت ذاته- داعٍ جِدِّي وقوي للمراجعة والنقد الداخلي والدعوة للإصلاح العميق.

بعبارة إخرى، فإن الإصلاح والتجديد في الفكر الديني، رهن بإبقاء الباب مفتوحًا أمام النقد الخارجي، حتى لو وجدناه مؤلمًا أو مضرًّا في بعض الأوقات. وعلى العكس من ذلك، فإن محاربة النقد الخارجي أو اعتباره -على الدوام- عدوانًا على المذهب أو الدين، سيؤدِّي إلى انكفاء متعاظم على الخصوصيات، حتى الأسطورية والفولكلورية منها، وتحويلها في نهاية المطاف إلى مقدسات.

إن تجارب الأديان والأيديولوجيات في هذا المجال غير قليلة. لو استمع الفاتيكان إلى نقد مارتن لوثر في ١٥١٧ لما انشقت الكنيسة على نفسها، ولو سمع الشيوعيون الروس النقد الآتي من غرب أوروبا في السبعينات، فلربما نجا نظامهم الشيوعي من السقوط المدوي في ١٩٩١. من الحري بالشيعة أن يستمعوا لنقد السنة، وحري بهؤلاء أن يستمعوا لنقد أولئك، وعلى الاثنين أن يستمعوا لنقد الملحدين وغير المسلمين بعامة، لأنهم يرون في ثقافتنا وممارساتنا ما لا نراه ولا نتوصل إليه، أو على الأقل لا يراه معظمنا، من العامة أو علماء الدين.

زبدة القول: إن منهج التقريب في الوسط التقليدي، اعتبر في حينه

سمة للإصلاحيين في هذا الوسط. لكن رغم هذا، فإن عدم تبلور مبدأ حرية الاعتقاد وحرية التفكير والتعبير، وعدم تبلور الدعوة إلى الإصلاح الديني، ساهم في تحويل دعوة التقريب إلى سبب لتجميد النقد والإصلاح الجذري في المجال الديني.

لا أعلم في الحقيقة إن كان المجتمع الديني أو غيره، حاملًا -في تلك الأوقات- لجنين الإصلاح الجذري أم لا، لكن ما أستطيع قوله: إن فرضيات المصالحة حملت معها ما يمكن أن أسميه فرضيات التساكت، أي مطالبة كافة الأطراف بغض الطرف عن أي نقطة يرونها موضوعًا يستحق النقد.

رابعًا: إغفال الساحة الشعبية:

لاحظت خلال بحثي عن تجربة السيد حسين البروجردي ومجايليه، سيما الشيخ محمد تقي القمي مؤسس دار التقريب، أن جهود هؤلاء اتَّجهت إلى مصر، التي كانت يومذاك زعيمة العالم السني. في المقابل، لم يبذل جهد يذكر في اتجاه السنة الإيرانيين أو العراقيين، الأقرب جغرافيًّا من مدينتي قم والنجف، مركز المرجعية الدينية الشيعية.

لم يخلُ المجتمع السني الإيراني من علماء بارزين، سواء في المناطق الكردية شمال البلاد، أو في بلوشستان وجوارها في الجنوب الشرقي وعلى ساحل الخليج. كذلك الحال بالنسبة للمجتمع السني العراقي، بشقيه العربي والكردي. ولم نعثر على أي سجِّلات تشير إلى سعي هؤلاء للانخراط في جهود التقارب المذكورة أعلاه. لكننا لم نرَ -أيضًا- ما يدل على أن دعاة التقارب الشيعة، قد قاموا بمبادرات تقاربية مهمة مع هذه المجتمعات، مما يمكن وصفه بمشروع عمل. ربما نستثني من هذا التعميم -وإن كان من زاوية

مختلفة- مشروع المراجعة الذي أنشأه المرحوم الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصي (١٨٨٨ - ١٩٦٣م). تجربة الخالصي جديرة بالبحث في سياقها الخاص، الذي محوره مراجعة المتبنيات الفقهية، إذ إن توجهات التقريب فيها كانت -حسب اعتقادي- ثانوية.

اتفهم بطبيعة الحال أن تفكير البروجردي والقمي، كان يتَّجه إلى تأسيس علاقة بين زعامة هذا المذهب وزعامة المذهب الآخر. لكني أشعر أن هذا المسعى لم يكن لينجح في تأسيس نهج ثابت يدعمه عامة أتباع المذهبين، بل هو أقرب إلى منظومة علاقات عامة بين النخب العليا هنا وهناك.

مما يؤكد هذا المنحى أن دعاة التقريب وممارسيه، لم يحولوا هذه الفكرة إلى موضوع للتثقيف العام. للإنصاف لا بد من الإشارة إلى أن دار التقريب قد أصدرت مجلة «رسالة الاسلام»[1]، لكن موضوعات المجلة تشير إلى أنها كانت موجهة للنخبة وليس للعامة.

لو سألني القارئ: ماذا كان على أولئك الزعماء أن يفعلوا، كي يجعلوا قاعدتهم الجماهيرية متجاوبة مع دعوة التقريب وداعمة لها؟.

الجواب: تدريس الطلبة، الفتاوى، معالجة الأفكار التفريقية في الكتب والتراث، إضافة إلى المشاركة في مشروعات عمل ومساعدة دون تمييز. وقد أسلفت الإشارة إلى أن البروجردي اعتاد استعراض أدلة الأحكام، الواردة في المصادر السنية والشيعية في دروسه العالية، إلَّا أن هذه بقيت مبادرة شخصية

(١) مجلة رسالة الإسلام، رأس تحريرها محمد المدني، عميد كلية الشريعة بالأزهر الشريف يومئذ. صدر منها ٦٠ عددًا، أولها في يناير ١٩٤٩ (ربيع الأول ١٣٦٨هـ)، وآخرها في أكتوبر ١٩٧٢ (رمضان ١٣٩٢هـ).

ولم تتحول إلى منهج سائر في الحوزة العلمية الشيعية، كما لم يحصل نظير لها في مجامع العلم الشرعي السنية.

في اعتقادي أن المرجع الديني قادر على بناء خط قوي يتبنى مبدأ التقارب، لو ركّز على دعوة تلاميذه المباشرين إلى تبني هذا المبدأ. ثمة -إضافة إلى هذا- عامل عميق التأثير، هو مراجعة الأحكام القائمة على أرضية التفارق، وهي كثيرة عند هذا الفريق وذاك. كذلك مراجعة الروايات التاريخية التي تعرضت لتعديل عبر السنين، كي تخدم أغراضًا سياسية أو اجتماعية، على نحو يرجح الميل إلى التفارق بدل التقارب، وأخيرًا مفارقة التيارات الداعية للخصام والتفارق بشكل علني، لتحييدها وسحب البساط الديني من تحت أقدامها. يجب السماح بالتشكيك في تلك الروايات والقصص وإزالة رداء القداسة الذي يرتديه التراث التفريقي، كي يكون نقده أمرًا طبيعيًّا لا يثير الحنق. وهذا عمل لا يمكن أن ينجح إلَّا إذا أتى من الطبقة العليا في المؤسسة الدينية.

لا بد من القول هنا: إن تقديم اقتراحات كهذه، أسهل كثيرًا من تنفيذ أحدها أو بعضها. هذه مهمات تحتاج إلى طاقات كبيرة وزمن طويل، كي تتحوَّل من مبادرة أولية إلى تيار مستقر ومؤثِّر. والواضح عندي أن الاتجاه العام بين كبار العلماء ولا سيما المراجع، يميل إلى المشروعات قصيرة الأمد التي يمكن لهم رعايتها بشكل شخصي، دون الاهتمام كثيرًا بما يجري بعد رحيلهم. إن شعورهم بصعوبة التحكم في مشروعاتهم على المدى الطويل، جعلهم يركّزون جهدهم على المنشآت ذات الطبيعة العقارية، مثل المدارس والمكتبات والمساجد، لأنها الوحيدة التي تظل قائمة على المدى الطويل.

رؤية الشيخ حسن الصفار للمشكلة الطائفية وحلولها:

حاولت في الصفحات السابقة إيجاز ما ظننته نواقص أساسية في جهود التقارب التي عرفها التيار الديني الشيعي، والتي نشطت بصورة خاصة في منتصف القرن العشرين، لكن زخمها لم يدم سوى فترة وجيزة، حتى توقَّف تمامًا. هناك بطبيعة الحال عوامل متعدِّدة، أبرزها التنازع السياسي الذي عرفته المنطقة في الستينات والسبعينات، وبلغ ذروته في العقود الأربعة الماضية، حتى بات الصراع على حدود الطوائف والمذاهب، سمة ثابتة في سياسات العالم الإسلامي خلال السنوات الأخيرة، وبلغ التأزُّم درجة أن يدعو بعض الباحثين إلى إعادة تقسيم المنطقة على أساس طائفي، كي ترتاح كل طائفة في كانتونها، فلا تزاحم أحدًا ولا يزاحمها أحد[1].

بعبارة أخرى فإن مسألة الاختلاف المذهبي، قد تحوَّلت خلال الأربعين عامًا الماضية، إلى مبرّر للتنافر الطائفي. بل لعلِّي لا أبالغ لو قلت: إن الصراع الطائفي بات سمة بارزة في المشهد السياسي العربي خلال السنوات العشرين الأخيرة.

---

(١) نشير هنا إلى مقال رالف بيترز : حدود الدم.. كيف سيبدو الشرق الأوسط بحالته الأفضل. نشر المقال أصلًا في مجلة «القوات المسلحة» الأمريكية، وأثار أصداء واسعة في الشرق الأوسط، إذ ظن كثيرون أنه «مشروع عمل» وليس مجرد تفكير. يذكر أن كاتب المقال ضابط متقاعد في الجيش الأمريكي، لكن المجلة تصف نفسها بأنها غير تابعة للحكومة الأمريكية. انظر:

Ralph Peters: ‘Blood Borders… How a Better Middle East Would Look’, Armed Forces Journal (June 1, 2006) http: / /armedforcesjournal.com /blood–borders /

الترجمة العربية بقلم على الحارس، (موقع archive.org) ٢٦ - ١٢ - ٢٠١٩.

https: / /archive.org /details /20191226_20191226_1403 /page /n9 /mode /1up

إن تصاعد الموج الطائفي وبلوغه مرحلة التقاتل أو استثماره في التقاتل، هو الذي يعطي لموضوع التقارب المذهبي أهمية مضاعفة وراهنة، وهو الذي يعطي قيمة للمحاولات الجديدة، سيما تلك التي تسعى لتفادي نقاط الضعف في التجربة السابقة.

وفي هذا السياق تشكل تجربة الشيخ حسن الصفار، نموذجًا جديرًا بالتأمل والتكرار. سوف أعرض بعض عناصر هذه التجربة التي وجدتها جديرة بالدراسة، من دون إسهاب. ولعل أحدًا يجد فيها بداية مناسبة للتوسُّع في مناقشة المسألة بذاتها، أو تجربة الشيخ كمثال على جهود التقارب الأكثر انسجامًا مع ضرورات المكان والزمن.

فيما يلي بعض العناصر الرئيسية، التي تؤلّف رؤية الشيخ حسن للمشكل الطائفي وعلاجاته:

أولًا: اعادة تعريف المشكلة:

أشرت فيما سلف إلى أن جهود التقريب التي بذلت في أوقات سابقة، لم تقم على تعريف محدّد للمقصود بالتقريب، هل هو الانسجام السياسي، أم تحديد الخلافات النظرية والسعي للوصول إلى نقاط اتّفاق فيها. الواقع أن عدم التحديد جعل الجهد غير مركّز، فتارة يدور حول أصل الموضوع (الدعوة للتقارب ووحدة الصف) وأخرى يحاول البرهنة على أن «الحق معنا» في هذه القصة أو الحكم... إلخ.

في تجربة الصفار، لاحظت أن المشكل الطائفي كان معرَّفًا بصورة أدق، ولهذا فإن معنى التقارب وحدوده وأغراضه كانت واضحة إلى حد كبير. المسألة -وفقًا لرؤية الشيخ حسن- لم تعد في الخلافات الفقهية والعقيدية،

مع أنها تستثمر هذه الخلافات وتستخدمها.

جوهر مشكلة التنازع الطائفي/ المذهبي، يكمن في الخوف المتبادل بين الطرفين. فعلى رغم الاعتداد بالذات والثقة التامة بالاجتهادات عند كل من الفريقين، الشيعة والسنة، إلَّا أن حديث الواقع يخبرنا أن كلًّا منهما كان خائفًا من الآخر. كلا الطرفين كان يخشى اختراق الطرف الآخر لصفوفه. ولدى كل منهما شواهد ومبررات تدعم هذا القلق. لو أردنا وضع هذه الفكرة في وصف سيكولوجي، فسوف نقول: إنه نوع من القلق على الذات أو القلق على الهوية.

وجد الشيخ الصفار أن هذا النوع من القلق، لا يعالج بالنقاش العلمي أو الدعوة لوحدة الصف، بل بالانفتاح الذي يسمح لكل طرف بالتعرف المباشر على الآخر ورؤية دواخله ونقدها إن شاء، إضافة الى كسر حاجز التباعد الاجتماعي بين النخبة الدينية السلفية ونظيرتها الشيعية.

ثانيًا: كسر الحواجز الاجتماعية:

منذ العام ١٩٩٥ كان التواصل مع علماء المملكة العربية السعودية شاغلًا يوميًّا للشيخ الصفار. وخلال السنوات التالية التقى بعشرات من كبار العلماء، من بينهم المفتي العام السابق الشيخ عبد العزيز بن باز والحالي عبدالعزيز آل الشيخ، وفقيه مكة محمد بن علوي المالكي، وعشرات غيرهم. كما شارك في مؤتمر الحوار الوطني، الذي أراده المرحوم الملك عبد اللَّه بن عبد العزيز، منبرًا للتعبير عن واقع التعددية القائم في المملكة.

وفي السياق نفسه استضاف الصفار عددًا غير قليل من الأسماء البارزة في المجتمع الديني السني، حتى من بين المعروفين بالتشدُّد، وشجَّع على الحوار المباشر بينهم وبين الجمهور الشيعي، بقدر ما تسمح الظروف. كما

شجَّع النخب الشيعية على ملاقاة نظرائهم السنة وزيارتهم في مدنهم، ليس للحديث في أمور الدين، بل أمور الدنيا. ويمكن الاطِّلاع على تفاصيل هذه اللقاءات في الموقع الإلكتروني التابع لمكتبه (saffar.org).

وأستطيع القول دون خشية المبالغة: إنه لم يسبق للقطيف أن استقبلت هذا العدد من علماء الدين السنة والشخصيات المؤثرة، في المملكة العربية السعودية خاصة، كضيوف ومتحدّثين في مناشط أهلية. جرى غالب تلك اللقاءات وسط حضور شعبي، الأمر الذي فتح الباب أمام معالجة العائق الأهم في العلاقة بين الطرفين، أعني به القلق على الهوية والخوف من الاختراق والاحتواء. لعل أبرز ما ترتَّب على هذه الجهود هو ما لاحظناه في السنوات التالية، حين عبر عدد أكبر من النخب الشيعية، وبينهم رجال دين ومثقفون، الحاجز المتوهَّم الذي حال بينهم وبين لقاء نظرائهم السنة في سنوات سابقة.

يهمني هنا الإشارة إلى أن الملاحظة السابقة، لا تستهدف القول: إن تواصلًا كهذا لم يكن موجودًا قبل مبادرات الشيخ الصفار. في واقع الأمر كان هذا موجودًا على نطاق ضيق ومحصور بين نخبة صغيرة. كما أن علماء الدين لم يشاركوا فيه إلَّا نادرًا. وعلى أي حال فإنه حتى هذا القدر القليل، تراجع إلى نطاق أضيق في بدايات مرحلة الصحوة، ولا سيما بين العامين ١٩٨٢ - ١٩٩٠ التي شهدت تفاقم التعصُّب الديني، وصدور العديد من المطبوعات التي تكفر الشيعة تصريحًا أو تلميحًا.

ثالثًا: التركيز على الإطار الوطني وتحييد العوامل الخارجية:

منذ سنوات طويلة تأثَّر الجمهور الشيعي في الخليج، بالتوجُّهات الفكرية السائدة في مركز الحوزة العلمية في العراق (إيران في مرحلة

لاحقة). كان التمحور حول الذات طابعًا عامًّا للتفكير والكتابة في الحوزة العلمية. التمحور حول الذات يعني ببساطة تضخيم الذات، تنزيهها عن الأخطاء، وتبخيس المذاهب والأديان الاخرى. وللمناسبة فقد وجدت هذا الاتجاه سائدًا في كافة مجامع العلم الديني عند المسلمين والمسيحيين على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم، فالكل يفاخر بما عنده ويتحدَّى الآخر، ولو جادله لأعلن الفوز حتى قبل أن تبدأ المعركة.

هذا النوع الذي أسميته تضخُّم الذات، قابله تضخُّم مماثل في الفريق السلفي في المملكة، يحمل المبررات نفسها ويتوسل بالوسائل ذاتها. ونتيجة لهذا فقد خاض الجمهور الشيعي الخليجي معركة افتراضية، سلاحها الوحيد هو فرضية الكمال العقيدي، وكان أبرز نتائجها هو تفاقم شعورهم بالعزلة، في الوقت الذي كانت المجموعات المتطرفة في التيار السلفي تجتهد من جانبها لعزل الشيعة وتهميشهم، أي إن الجمهور الخليجي واجه عزلة مزدوجة، بعضها ناتج عن تضخم الذات وبعضها عن فعل المنافس.

كان المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٩٣٦ - ٢٠٠١م) واحدًا من تلك القلَّة التي انتبهت إلى مخاطر العزلة التي يتعرَّض لها شيعة الشرق الأوسط، ولهذا دعا تكرارًا إلى اندماج الشيعة في النسيج الوطني للبلدان التي يعيشون فيها، أي تأخير الهوية المذهبية عن الهوية الوطنية في ترتيب القيمة[١].

كثير من الناس اعتبر موقف الشيخ شمس الدين براغماتيًّا. أما الشيخ

(١) انظر محمد مهدي شمس الدين: وصايا الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ن.إ. وقفية الأمير غازي للفكر القرآني (٦-نوفمبر-٢٠٢٠) https: / /bit.ly /30Ag0SN

الصفار فقد وجد فيه اجتهادًا صحيحًا، قائمًا على أرضية متينة وقواعد في الفقه الإسلامي، عميقة الجذور، رغم إهمالها في مجامع العلم الشرعي. ولا شك أن هذا الموقف قد وفَّر دعمًا معنويًّا لرؤية الصفار، الداعية لتقديم اجتهادات جديدة تتناول العلاقة بين المسلمين وغيرهم، بين طوائف المسلمين، وبين المواطنين في أي بلد وحكومتهم.

كانت مشاركة الشيخ حسن في مؤتمر الحوار الوطني (الرياض - ديسمبر ٢٠٠٣)[١] مناسبة نادرة لكسر حواجز عديدة، لبعضها منشأ ديني/ مذهبي، ولبعضها الآخر منشأ اجتماعي أو سياسي، قد لا يتَّسع المجال هنا لاستعراض أكثرها. لكن ما يهمني الإشارة إليه هو حقيقة أن النشاطات التي رافقت ذلك المؤتمر وما بعده، خلقت مناخًا جديدًا في المملكة، في المجتمع الشيعي السعودي والمواطنين السعوديين بشكل عام، وعند النخبة الدينية السلفية، كما تركت أثرًا بليغًا في الأوساط الرسمية. وفي هذه الأجواء الإيجابية -نسبيًّا- طرح الشيخ رؤيته الداعية لاعتماد المصلحة العامة في معناها المحلي (أي مصلحة المجتمع الشيعي السعودي) كمعيار في تحديد القيم الخاصة بالعلاقة بين الشيعة السعوديين ومحيطهم، ونشر حولها العديد من المقالات وضمنها في عدة كتب، كما تحدَّث عنها في الاجتماعات الدينية المختلفة.

مبدأ «المواطنة» كان أحد القضايا المحورية، التي عمل الشيخ حسن على تنسيجها في الوعي العام المحلي. هذا المبدأ ومفهومه ليس راسخًا في الثقافة العامة في المملكة. ولم يتحوَّل إلى مفهوم محوري إلَّا في السنوات

(١) انظر كلمة الشيخ حسن في المؤتمر، الموقع الالكتروني لمكتبه (٢٩ ديسمبر ٢٠٠٣)
http: / /saffar.me /?act=artc&id=136

الأخيرة. واعتمدت الحكومة برنامجًا للتربية الوطنية في التعليم العام ابتداء من أواخر ١٩٩٦ [١].

أما سبب تأخُّر الاهتمام بهذا المبدأ، فمرجعه رؤية فقهية لدى النخبة الدينية في المملكة، فحواها أن الاحتفاء بالوطن والولاء له لا يخلو من إشكالات شرعية، وأنه قد يفهم كمزاحم للولاء الديني أو تشبُّهًا بالمجتمعات غير المسلمة، التي تخصّص لنفسها أيامًا لاستذكار المناسبات الوطنية، وتعتبرها عيدًا وطنيًّا أو يومًا وطنيًّا[٢].

إن مفهوم الوطن حديث الظهور في الثقافة الإسلامية ككل، عند الشيعة والسنة، ولهذا لا تجد بحثًا موسَّعًا حول مفهوم الوطن والعلاقة به، ومبدأ المواطنة والولاء الوطني وترتيبه في سلم القيم، في الأدبيات الإسلامية، بما فيها التيارات السياسية الحديثة. ولهذا فقد كان طرح الموضوع، في الوسط السني والشيعي على السواء، مثارًا للجدل لعدة سنين[٣]. لكن يبدو أن المفهوم قد استقر الآن -ولو بشكل نسبي- في الثقافة العامة، عند أتباع المذهبين. لكني مع ذلك أدعو للمزيد من العمل الفكري والتثقيفي كي يتضح عدم التباين بين القيم الدينية ومبدأ المواطنة والولاء للوطن، بل ومفهوم «الوطن» الحديث. إن رسوخ القيم الجديدة يحتاج لجهد كبير ومتواصل قبل أن يصبح

(١) حول أغراض هذا المنهج، انظر مذكرات وزير التعليم السابق محمد أحمد الرشيد: مسيرتي مع الحياة (الرياض ٢٠٠٧) ص ٣٥٣.

(٢) انظر بهذا الصدد فتوى الشيخ عبد العزيز بن باز، المفتي العام للمملكة: الموقع الرسمي للشيخ بن باز (اطلعت عليه في ١٥-ديسمبر-٢٠٢١) https: / /bit.ly /3m5qm4o

(٣) لبعض التفصيلات عن الخلفية الدينية لهذا الجدل، انظر توفيق السيف: أن تكون شيعيًّا في السعودية، ن. إ (archive.org 2013) ص ١٤٥.
https: / /archive.org /details /ToBeAShiaInSaudiArabia /page /n143 /mode /2up

جزءًا من النسيج الثقافي العام.

في الوقت الحاضر نستطيع القول: إن الرؤية التي كافح الصفار لنشرها، أي اعتبار مصلحة المجتمع الشيعي السعودي معيارًا في تحديد القيم الخاصة بالعلاقة مع المحيط، قد تحوَّلت إلى تيار واسع النطاق بين الشيعة السعوديين، تتبنَّاه النخبة المثقَّفة في مختلف تجلياتها، كما يتبنَّاها عدد معتبر من رجال الدين. ومن هنا فلم يعد الساعون إلى تجسير العلاقة مع المجتمع السني أو مع النخبة السياسية، يواجهون عنتًا كالذي اعتادوا مواجهته في الماضي، من جانب المتشدّدين والخائفين على الصفاء العقيدي، أو الخائفين من الاختراق الثقافي والاجتماعي.

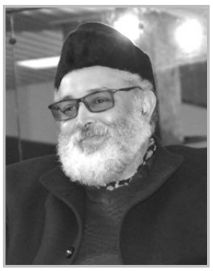

العلَّامة الشيخ حسن الصّفار
رجل التسامح والحوار

الدكتور إدريس هاني[1]

تبدو الفاعلية بمثابة السِّمة الأساسية للأستاذ العلَّامة حسن الصّفار، بها تدرك وتوزن سائر السّمات، بل ذلك مفتاح شخصيته منذ امتطى صهوة المنبر في عمر مبكّر من حياته، كوسيلة في مخاطبة المجتمع وصياغة رؤية إصلاحية ما فتئت تنمو وتتطوّر، لتكتمل في مشروع متكامل حول الإصلاح والسِّلْم المجتمعي. المنبر هو وسيلة فعّالة، لا سيما في مجتمع يكون فيه الدين عنصرًا أساسيًّا ومكوّنًا للمجال العمومي. يكتسب الخطيب مهارة وفنّ إدارة المعنى وتشكيل الوعي المجتمعي. واكب الشيخ الصفار مراحل وأجيال متعدِّدة، وفي كل مرحلة كان يجتهد ليكون رائدًا في حركة الوعي في مجتمعه وأمته، ما يؤكد أنّه يواكب ثقافة عصره ويتكيّف مع واقع التمرحلات الجديدة.

(١) مفكر وباحث ومؤلف مغربي.

وكانت هجرته المبكرة لأقطار مختلفة، مفتاحًا آخر في تجربته، ولا يخفى أنّ الهجرة تصقل الشخصية وتُغني محتواها وتختصر الزمن أمام صاحبها، لأنّه يطلّ على قومه من منافذ متعدِّدة، ويكون من هاجر قد اكتسب أعمارًا إضافية إلى عمره الأصلي، ذلك لأنّ ما يكتسب في يوم واحد في المهاجر يُضارع أعوامًا، فالأيام في المهاجر تعادل أعوامًا ممَّا نعدّه في الحضر.

تمنح الفاعلية والهجرة صاحبها عنفوانًا خاصًّا، وتفتح أمامه آفاقًا وتجارب شتّى، استوطن الشيخ الصفار عوالم مختلفة في الثقافة والاجتماع: القطيف، النجف، الكويت، مسقط، قم، دمشق... كما زار بلدانًا عديدة، في مهام دينية وتبليغية.

ولعل أهم مقوم للفاعلية هو الشعور بالمسؤولية. ولقد حافظ الشيخ الصفار على سمته ذاك، وتفاعل مع الواقع، وبادر إلى ما رآه أفضل وأنفع، وواصل خطابه الإصلاحي معتمدًا المنبر وسيلة لتعزيز الوعي وإثارة العقل، وهو في هذه المهمَّة لم يتوقَّف منذ عقود.

هناك زاوية أساسية في دراسة الشخصية، وهو ما يتعلّق بالتجارب الأولى، بالطفولة، وكيف بدت ملامح النبوغ لدى طفل يروي عنه صاحبه في مذكراته أنه لم يعش طفولة كسائر الأطفال، أي لم يأخذ حظّه من اللّعب كسائر الأطفال. بتعبير آخر، لقد وجد الشيخ الصفار نفسه في قلب المسؤولية ولمّا يبرح بعد عهد الطفولة. لقد تفجَّرت ملكاته في فنّ الخطابة، وطبعًا كان للمرحوم والده تأثير مباشر على الطّفل. تحمّل الشيخ الصفار مسؤوليات فاقت عمره، وهذا لعمري لا يعني أن الطفل لم يأخذ دوره في اللعب، بل إنّ

جدّية الطفل في اللعب، هي من يمنح اللعب قيمة تربوية غير العبث، فالطفل الذي يواجه العالم وهو غير مستند إلّا إلى فضول الاكتشاف والمعرفة، هو جادّ في كل شيء، ومسؤول عن تنمية نفسه بغريزة الطفولة وبراءتها. لقد تجسَّدت جدّية الشيخ الصفار وهو طفل في المنبر، فتحقَّق بذلك رسوخ ملكة الخطابة، ونمت قدراته في هذا الفنّ حتى بات حالة فريدة ومتميِّزة. ولقد استمعت لكثير من الخطباء، ووجدت لكل منهم ميزة، ولبعضهم بصمات تحدّدها النبرة والمحتوى وأسلوب الإقناع. وللشيخ الصفار بصمة صوتية خاصّة، ومحتوى غالبًا ما يكون تربويًّا واجتماعيًّا، وأسلوب في الخطابة يتمتّع بالنسقية، ويعتمد قواعد الحجاج المنطقي، فلقد تلقى الشيخ الصفار تكوينًا في علوم عقلية وشرعية، وأدرك من أصول المنطق واللغة ما هو حقيق بأن يمنح خطاب الصفار ميزة الخِطاب العالِم والمثقّف فضلًا عن الفقيه.

حينما ندرس الخطاب، لا بدّ من وضع مفاتيح أساسية، وفي مثال الشيخ حسن الصفار، نستطيع بيُسر مؤكّد أن نُحصي تلك المفاتيح لخطابه منذ عشرات السنين وهي: العقلانية، التسامح، الحوار، المعرفة، موضوعات تتداخل وتشكّل نسقًا متكاملًا، به ينتمي خطاب الشيخ حسن الصفار إلى صنف الخطاب العقلاني والإصلاحي. وقد قدّم مئات المحاضرات حول هذه المفاهيم، وتربّى على فكره جيل كامل من مريديه، في اقتدار خطابي مقنع، وفي تنزيل بلاغي بالغ الأثر، حيث اخترق المنبر بخطاب إنساني رفيع وبأسئلة فهم للدين لا نظير لها.

لا أعتقد أنّ شهادة الصديق مجروحة بالضرورة، بل هي شهادة القرب والمعرفة والفهم لتفاصيل يصعب أن يعرفها البعيد من خلال إطلالة على نصّ أو استماع إلى محاضرة، لكنني أعتقد جازمًا بأنّ الشيخ حسن الصفار

كان خطيبًا متميّزًا بقدر ما تميّز به من اقتدار إداري واستقامة ائتمانية وحسّ قيادي. فهو شخصية تواصلية من الطراز الرفيع، بل أجزم -أيضًا- بأنّ خطابه ومواقفه وحواره هو مدرسة في علم التّواصل.

يأخذ الشيخ الصفار من الأفكار ما هو معتدل منها، ويُضفي عليه مزيدًا من الاعتدال من لونه الخاص وخبرته، فتزداد الأفكار تهذيبًا وإقناعًا، وكأنها أعيدت في مخبر لإعادة الإنتاج على قواعد تواصلية، ترقى إلى شكل فائق من البرمجة العصبية اللغوية.

عرفته كرجل المواقف والمبادرات، وكرجل أخلاقي تسبقه دماثته وتواضعه وحسّه الاجتماعي الكبير واهتمامه بالنّاس. وفي محطّات كثيرة، كان نبله مهمًّا، لأنّه كان يضفي الأمل على محيطه، كما يؤكد باستمرار أنّه قبل ذلك كله وبعد ذلك كله هو الإنسان. قد تجد من يختلف معه فكريًّا وفي مواقف عديدة، لكن لا أحد يستطيع أن يختلف حول سموّه الأخلاقي ورقيه التواصلي وحسّه الإنساني. ومن هنا وجب دراسة الإنسان في سياقه وشروطه، فهو رائد اجتماعي، يعيش كالسمكة داخل الناس، وداخل الناس هنا محيط من نخبة العلماء والمثقفين والاجتماعيين، فمشروعه داخل المجتمع وآراؤه مبنية على الاستشارات. وبهذه السّمة، تحرر الشيخ الصفار من حالة الاستفراد والتّوحّد، فتصالح مع نفسه ومحيطه، في سياق شديد التعقيد، يعزّز مفهوم الواقع المركب الذي يتطلَّب الكثير من الصبر في مواجهة الأزمات وإدارتها من دون كسر بليغ وجرح عميق.

أنجز الشيخ الصفار أعمالًا كثيرة ودشَّن مشاريع عديدة ذات طابع علمي واجتماعي، وهو على الرغم من كل ذلك يسكن بين الكتب، ويتابع

آخر التطوُّرات في مجال المعرفة والثقافة والسياسة. وقد كتب أعمالًا تربوية وفكرية عديدة، تخص القيم والمفاهيم التي تحدّثنا عنها، وهي كتب تصلح في بناء الشخصية والقدرات، وتساعد على فهم الواقع بشكل مختلف، وتأويل النصوص بصورة تخدم السِّلْم الأهلي وتعزّز التواصل وتقضي على النزعات السّلبية. يصعب عدّ عناوين المكتبة التي قدَّمها الشيخ الصفار، كتابات تشتبك مع قضايا راهنة، وتقدّم حلولًا ضدّ التّطرّف والإرهاب والتّعصّب. لقد كان الشيخ الصفار يفكّر داخل المجتمع وبمقاصد اجتماعية وبوسائل أكثر عقلانية، حيث ساهم بشكل كبير في إرساء السِّلْم الأهلي والعمل في سياق معقد وشروط صعبة.

لعل أهمّ ما انطوى عليه خطاب الصفار، وصدح به على المنبر، تقويض خطاب التعصُّب والشّحن الطائفي، وهو موضوعة رئيسة في كلّ خطاباته في زمن مبكّر، قبل أن ينفجر العالم العربي والإسلامي بأشكال التّطرّفات، فلقد ساهم في التحسيس بهذا الخطر الذي يتهدَّد وحدة المجتمعات واستقرارها وسلمها وأمنها القومي. وكثيرة هي الأفكار التي طرحت يومها، بات لها معنى وافر اليوم، وهي أفكار راهنية بعد أن قضّ الإرهاب مضاجع الأمّة. قبل سنوات، وتحديد عام ٢٠٠٦، أجريت من خلال مجلة منبر الحوار المغربية حوارًا مع سماحته، وكان السؤال حول الأهمية التي يشغلها سؤال الوحدة والتقريب، فكان الجواب: «الوحدة الإسلامية تمثّل الضرورة والمنطلق لتجاوز الأمة حالة الاضطراب في علاقاتها الداخلية(...) كما تمثّل الوحدة الإسلامية أفضل تحصين لساحة الأمة من الاختراقات المعادية». واضح إذن، أنّ الرؤية الاستشرافية حاضرة في هذا النمط من الخطاب، ولقد رأينا بعد مرور خمس سنوات من هذا الحوار، اهتزاز الوضع العربي، والتصعيد

الطائفي، وتفكك كيانات وتمزق النسيج الاجتماعي في بلدان كثيرة من العالم العربي والإسلامي، وازداد التّدخل واستغلال حالة الفوضى. لقد آمن الشيخ الصفار بالمواطنة، والحرية، والحقوق، والحوار، وكل المبادئ التي يتحقّق معها السلم والاستقرار الأهلي، ولم يقف عند هذا القدر، بل دعا إلى الاجتهاد والمبادرة والإيجابية في العمل والتنمية والقيم الحضارية، وهو بهذا لم يتخلّف عن رسالة الإصلاح والتحفيز اليومي والعملي لإعداد قاعدة من الوعي بضرورة النهوض بالمجتمع لتحقيق رسالة الإصلاح والتّقدّم.

بهذا يكون الشيخ الصفار قد قطع مشوارًا طويلًا في الدفاع عن تلك القيم، ليحتل مكانة كبيرة في خانة المصلحين الكبار في مجتمعه وفي محيطه العربي، وهو أنشط المصلحين الذين يمتلكون مشروعًا اجتماعيًّا، بل تبدو خطاباته دورة برنامجية في الّترقّي الثقافي والديني والاجتماعي والحضاري.

أستطيع إحصاء الكثير من السمات لدى هذه الشخصية المميّزة، فهو شخصية بالغة التهذيب، لإنسان راقي في المعاملة ومتحضّر في كل شيء، في سمته، وتدبيره الدقيق للوقت، ونبرة خطابه، وذكائه الاجتماعي. وهو ثروة رمزية لبلده وللوطن العربي، وعلم من أعلام الفكر والدين والمجتمع.

الشيخ حسن بن موسى الصفار
(من مصابيح الفكر والمعرفة)

الدكتور السيد محمد رضا بن عبدالله الشخص[1]

يحتلُّ المفكِّرون بين أفراد المجتمع مكانًا مرموقًا، وفي مجتمعاتنا الإسلامية تزداد هذه المكانة وترتقي، وهذا كتاب اللَّه سبحانه يُجلُّ الذين يُفكِّرون في خلق السماوات والأرض، وقد ذكر سبحانه بأنه فصّل الآيات لقوم يتفكَّرون، وضرب الأمثال للناس في القرآن لعلّهم يتفكَّرون.

ويُعَدّ (الشيخ حسن الصفار) في طليعة المُفكّرين المعاصرين، فلا يكاد يترك شأنًا من شؤون الحياة إلَّا وأدلى بدلوِه فيه عن طريق: الخطابة، والكتابة، والتأليف، والتدوين.

ويكفي أنّك تتحدّث عن شخصية اعتلت منبر الخطابة ولم يتجاوز عمر صاحبها خمسة عشر عامًا، وقد حضرتُ له خطبة وهو في هذه السِّنِّ المُبكِّرة

(١) أكاديمي أدبي ولغوي وشاعر سعودي.

في (مسجد سليم المدني) ببلدتي (القارة) يتحدّث عن مأساة (فلسطين) التي هي مأساة المسلمين جميعًا، ولك أن تتصوَّر غلامًا يافعًا يعتلي منبرًا يعلو على الأرض قرابة مترين تشرئبُّ له أعناق المستمعين، وبينهم الطبيب والمهندِّس والمدرِّس وطالب العلم، ورجالٌ بلغوا خمسة أضعاف عمره آنذاك، يُصغون بكل تقدير ودهشة لـ(مَلِك الكَلِمة) و(فارس الخطابة).

وأتذكَّر حينها أن الحديث عن هذه الشخصية دامت أكثر من أسبوع بين من استمعوا له، والأمر اللّافت في شخصية (الشيخ حسن) أن فكره ليس محصورًا في العلوم الشرعية، بل تناولت كل ما يدور في هذه الحياة من أمور دينية، وسياسية، واجتماعية، وتربوية، وأسرية، وحقوقية، وإدارية وغيرها، ومؤلَّفاته التي بلغت ثلاثة أضعاف عمره المبارك الذي تخطّى الستين وقت كتابة هذه السطور، تناول فيها قضايا تتَّصل ببناء المجتمع، وأخرى تتَّصل بشؤون المرأة، وكتبًا تناقش قضايا الأسرة، وكتبًا يطرح فيها المهام والأدوار التي ينبغي لعالم الدين أن يضطلع بها، وتجد -أيضًا- بين هذه الكتب تحليلًا لجذور التطرُّف الديني ونقده، والدعوة إلى العقلانية والتسامح، كما تجد من بينها بيان الطريقة المُثلى للحوار والانفتاح على الآخر، وقد شرّفني -حفظه اللَّه- بإهداء مجموعة من كتبه القيّمة، ومن بينها كتاب: (مسارات في ثقافة التنمية والإصلاح)، الذي يقع في عشرة مجلدات، لا يقل الواحد منها عن سبع مئة صفحة، وكان قد سبق هذه المجلدات عشرة مجلدات أخرى تحمل عنوان: (أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع)، يتجلّى فيها فكر هذا الرجل الذي قلّ مثاله في عصرنا الحاضر، وقد كنتُ معجبًا بهذه الشخصية منذ عهد الشباب، وكنت أحرص على اقتناء الأشرطة (الكاسيت والفيديو) لمحاضراته حتى بلغ عددها المئات، وصار شهر رمضان في أسرتي وقتًا مناسبًا للحصول

على هذا الغذاء الفكري المتنوِّع من شيخنا الفاضل.

وفي زيارتي للجمهورية العربية السورية مع أسرتي، كنت وأهلي حريصين على الاستماع إلى محاضراته هناك، وأتذكَّر أنه كان يناقش في تلك المحاضرات (حقوق الإنسان) -كما وضعتها هيئة الأمم المتحدة-، يتناول كل ليلة واحدًا من تلك الحقوق، يُلقي الضوء على أبعاده وكيفية السعي وراء تحقيقه وتطبيقه على الواقع المعيش، وفي كل ذلك يشدُّك أسلوبه وطريقة تناوله وطرحه لكل موضوعاته، وكل ذلك يُنبئ عن فكر ثاقب، ومعرفة عميقة، وثقافة واسعة، يبخل عليك الزمن بالحصول على مثلها من طريق أخرى.

وكان (الشيخ حسن) تسيطر على فكره مشكلة تفرُّق المسلمين بين سنيّ وشيعيّ وصوفيّ ونحو ذلك، وبذل جهدًا كبيرًا في سبيل القضاء على هذه الظاهرة، وكان يُجِلُّ ويُقدِّر كل من يحمل فكرًا في هذا الاتجاه -اتجاه وحدة المسلمين-. والشيء بالشيء يُذكر، فقد تبادر إلى ذهني وجوده في حفل تأبين عضو مجلس الشورى الأستاذ الدكتور (باسم بن أحمد آل إبراهيم) -رحمه اللَّه تعالى- الذي أقيم في قاعة الملك عبدالله للاحتفالات بالشرقية، وكان الشيخ في مقدمة الحضور لهذا التأبين، وتربطه علاقة صداقة بالمرحوم، وهما متفقان في هذا الجانب (وحدة المسلمين) تمام الاتفاق، وأذكر ان الشيخ يجلس في الحفل في الصف الأول مع المشاركين وبحكم زمالتي وعلاقتي المميزة مع الفقيد، فقد شاركت بقصيدة في المناسبة تحمل عنوان (متى تلد الأيام مثلَك باسمُ)، ولفت انتباهي ابتسامة الشيخ وإعجابه بالبيتين اللذين قلت فيهما:

فوا عجبًا من حرٍّ فقدكَ أن تُرى تُعانقُ أصحابَ الشّماغ العمائمُ
فليتكَ إذْ وحَّـدتَ بين صفوفها بقيتَ ليحيا في البلادِ التَّلاحُمُ

وربما كانت (الكناية) في البيت الأول عن (الوحدة) التي من صوَّرها معانقة أصحاب الشماغ لأصحاب العمائم، وموافقتها للخط الذي يسعى إليه الشيخ، ممَّا يجعله يلائم ذوقه وفكره الرفيع.

وقد يتّهمني البعض بالمبالغة في مجاملة الشيخ بهذا الكلام، واللَّه يعلم أنني مدرك لما أقوله، فالشيخ (حسن الصفار) من يعرفه معرفة حقيقية يعلم أنه عميقٌ في فكره، واسع في معرفته، متنوِّع في ثقافته واطِّلاعه، وقد يغفل الكثيرون عن نهم الشيخ في القراءة وحرصه على الاطِّلاع، وشوقه الشديد لقراءة كل ما يقع بين يديه من مؤلفات أو أبحاث -حتى وإن كانت خارج اختصاصه-، وقد أهديته قبل عام تقريبًا ستةً من مؤلفاتي الأكاديمية، وكلها أبحاث في النقد والبلاغة والأدب، قرأها في مدَّة لا تتجاوز شهرين على الرغم من محتوياتها المكثَّفة والمتعدِّدة، وهذا مؤشِّر حقيقي على قدرته الفائقة على تنظيم وقته المملوء بالأعمال الاجتماعية والكتابية إضافة إلى الحقوق الأسرية.

وإذا ما أردنا أن نقدّم خلاصة للفكر الذي يحمله (الشيخ حسن) والمدرسة التي ينتمي إليها في ذلك، يمكن لنا أن نستفيد من دروسه التي تحدّث فيها عن مواضيع لها صلة بهذا الجانب، ففي خطبته الأولى ليوم الجمعة الموافق ٢٦/ ١٠/ ١٤٣٠هـ (١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩م) والتي جعلها تحمل عنوان: (الانتماء الفكري والانفتاح الاجتماعي) يقول فيها: «إذا كانت لك مدرسة فكرية، فينبغي أن تُعطي للناس انطباعًا جميلًا عن المدرسة التي

تنتمي إليها، وأن توصل أفكارها للآخرين، وبانقطاعك وابتعادك عنهم، كيف ستوصل أفكار مدرستك؟ وكيف سيكون انطباعهم عنك؟ بالتأكيد سيكون انطباعًا سيِّئًا»، ويقول أيضًا: «على الإنسان ألَّا يربط بين قناعاته وإيمانه الفكري، وبين علاقاته مع المحيط الذي يعيش فيه، فهذا سوء تقدير، أنت كبشر تعيش مع الآخرين».

وفي ظنّي ليس هناك تعارض بين الانتماء الفكري والمرونة في العيش مع الآخرين وإن اختلفت انتماءاتهم الفكرية، فذلك يفتح بابًا لقبول الآخر، ويساعد على إيصال ما لديه من فكر إلى من يحيطون به.

وفي ختام مقالي هذا لا يسعني إلّا أن أقول:

إذا المرءُ أبـدعَ في فكرهِ ... يَـهُـبُّ الجميع لتقديرهِ
وهـامُ الـثّـريـا لـه ينحني ... ويقتبسُ الناس من نـورهِ
ويبقى الفَخَارُ له صاحبًا ... ولا يسكتُ الدّهرُ عن ذِكْرِهِ
تُباهي (القطيفُ) به يعرُبًا ... فذا (حسنٌ) بـانَ عن دُرّهِ

٢٨/ جمادى الأولى/ ١٤٤٣هـ
(٠١/ ٠١/ ٢٠٢٢م)

حكيم القطيف

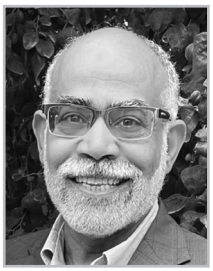

الأستاذ الدكتور رضي حسن المبيوق[1]

في البداية أودُّ أن أُعرب عن شكري وتقديري لسماحة الشيخ زكي حسن الحبيب على دعوته لي بالمشاركة في أول إصدار في مشروعه الحضاري لتكريم العلماء والكتّاب والمثقَّفين والباحثين وذوي الكفاءات من منطقتنا الغالية. تكريم العلماء وذوي الكفاءات مشروع هام وله منافع كثيرة للمجتمع. وإن لتعريف المجتمع بفكر وعطاء الشخصيات المميَّزة قوة إيحائية كبيرة، وهو منبع ثري للاقتداء واستقاء الدروس والعبر، وخاصة العوامل الذاتية التي صاغت وصقلت تلك الكفاءات. والتكريم هو تعبير عن تقدير واحترام المجتمع لعلمائه وكفاءاته المبدعة، وهو بدوره يُحفِّز الناس على التنافس الشريف في طلب العلم، ومن ثَمَّ المساهمة في إنتاج الفكر

(١) رئيس سابق لقسم علم النفس التربوي في جامعة شمال ولاية أيوا بأمريكا، أكاديمي وباحث ومؤلف سعودي مقيم في أمريكا.

ونشر العلم والمعرفة التي تبني الأوطان البناء الصالح والمتين.

وإنه ليُشرِّفني أن أكتب هذه السطور التي لا تفي حق الشخصية الأولى المحتفى بها في هذا الإصدار. التكريم الأول في هذا المشروع هو للأخ والصديق العزيز سماحة الشيخ حسن موسى الصفار حفظه اللَّه تعالى ورعاه. سأركِّز الكتابة على عدَّة جوانب من شخصية سماحة الشيخ: الجانب الشخصي، الجانب المعرفي، والجانب الاجتماعي. سأكتب عن كل جانب بشكل منفصل، مع التنويه على أن هذه الجوانب متداخلة بشكل عضوي وعميق بعضها مع بعض في شخصية سماحة الشيخ.

الجانب الشخصي:

لا أستطيع أن أقاوم الإغراء بالتحدُّث عن أول شيء سمعته عن سماحة الشيخ وأنا صغير، وكان متناقلًا في فضاء المجتمع العام عن بزوغ قارئ صغير في السِّنِّ كبير في العقل. والسردية المنقولة في مجتمع ذلك الوقت والذي كان معظمه أمي يُصدِّق معظم ما يقال هو أن ولدًا صغيرًا من القطيف سُقي العلم في المنام، أي إنه حظي بكرامة عظيمة، وهي شرب العلم في المنام، وجعله من تلك اللحظة عالمًا.

أذكر هذه السردية لأقول بأن الكثير آنذاك كان يُصدق بأن العلم قد يحصل هكذا بدون مكابدة وجهد ومثابرة وعزم كبير.

ومن يطَّلع على ما كتبه سماحة الشيخ عن سيرته الذاتية ومسيرة حياته وجوانب من تجربته (راجع كتاب «ظلال من الذاكرة» الذي يحتوي على قرابة الـ١٤٠ صفحة)، وما كتبه عنه الآخرون (راجع موسوعة الموسم، الشيخ حسن الصفار سيرة ثقافية اجتماعية، في المجلدين (١٧٢-١٧٣) زاد عدد

صفحاتهما عن الـ ١٦٠٠ صفحة)، يكشف لنا العوامل الذاتية التي صاغت وصقلت شخصيته، وساهمت في نجاحه كعالم ومفكِّر ومربِّي وخطيب وكاتب ومثقف من الدرجة المميَّزة والرفيعة، والتي بحق تسمح لنا بوصف سماحة الشيخ بـ«حكيم القطيف».

من الصفات المميِّزة في شخصية سماحة الشيخ هي الفاعلية والنشاط، الثقة العالية بالنفس، استثمار الوقت وإدارته بحكمة، الانفتاح، والمرونة الذكية. لا بأس أن نتحدَّث قليلًا وبشكل انتقائي عن كل صفة من هذه الصفات:

الفاعلية والنشاط:

حياة سماحة الشيخ مليئة بالعمل والنشاط والحركة الدؤوبة سواء كان في مجال التعليم أو التعلُّم، أو الإنتاج المعرفي ونشره عن طريق الخطابة أو الكتابة أو عن طريق المشاركة في المؤتمرات والندوات والمناسبات. حياته لا تعرف الملل أو الكلل، ويومه ووقته يكون مليئًا ومباركًا بالعمل والحركة الهادفة.

منذ نعومة أظفاره، لم يكن هناك مجال في حياته للعب أو في تضييع الوقت في شيء لا قيمة أو فائدة علمية فيه. أثناء زيارة سماحته الأولى لي في منتصف الثمانينات وكنت وقتها أدرس الدكتوراه في مدينة ماديسون بولاية ويسكونسون، لاحظت حرصه الشديد على الكتابة اليومية واغتنام أو اقتطاع وقت من وقت الزيارة للكتابة في كراسه الأصفر ذي الأوراق الطويلة (مقاس ٨ في ١٤). ولو صادف وقت تقديم وجبة أثناء وقت كتابته، يكتفي بالقول: «ابدؤوا بالأكل وسأشاركم في الأكل بعد قليل.» عندما استحضر

تلك الذكريات، أدرك حب سماحة الشيخ العميق للكتابة، وشعوره بالنشوة أثناء الكتابة، لدرجة أنه ينتقل الى عالم آخر، عالم سبك وصياغة الأفكار.

الثقة العالية بالنفس:

تميَّز سماحة الشيخ بثقته العالية في نفسه منذ طفولته، وارتقى المنبر مصرًّا على شقِّ طريقه في القراءة والخطابة على منابر كانت حكرًا على الكبار من الشيوخ والقُرَّاء. تحلَّى -ولا زال- بالجرأة والشجاعة على مواجهة الجمهور والتأثير فيه عن طريق المواضيع التي كان يُحضِّر لها تحضيرًا كبيرًا ليُعطي المستمعين مادة ثريَّة ومفيدة. وتدريجيًّا ذاع صيت سماحة الشيخ وكثرت عليه طلبات القراءة في مجالس كثيرة من مدن وقرى من داخل وخارج المنطقة. وزاد رصيد الثقة بالنفس كمًّا ونوعًا بعد هجرة سماحة الشيخ للخارج، واستمر في الازدياد الى حين عودته للبلاد في أوائل التسعينات وإلى الآن.

الثقة في النفس تُولِّد المزيد من الثقة، ومع ارتفاع درجة الثقة في النفس ترتفع نسبة الوقوع ضحية لمغريات الكبر وشباك العجب بالنفس والتكبُّر. وهذا ما لم يحصل لسماحة الشيخ، فالتواضع كان دائمًا رفيقًا لثقته بنفسه، والحكمة هي بوصلته الموجهة لسلوكه والضابطة لأفعاله.

استثمار الوقت وإدارته بحكمة:

الوقت لا يُعوَّض ولا يُستبدل، ومن مميِّزات الناجحين في الحياة هو إدراكهم وتقديرهم لقيمة الوقت واستغلاله واستثماره جيِّدًا.

ومن المهارات التي يُتقنها سماحة الشيخ هي إدارة وتنظيم الوقت،

وحسن استخدامه لرفع الإنتاجية المعرفية، وبناء وتنمية الذات روحيًّا وعقليًّا واجتماعيًّا، وإعطاء كل شيء وقته الخاص، ووضع خطة لقضاء كل ثانية من وقته للقراءة والمطالعة والكتابة، وقضاء الوقت في المساءلات واللقاءات المعرفية والاجتماعية، فضلًا عن إعطاء الوقت الكافي والوافي للعائلة وزيارة الأقارب. وأسلوب سماحة الشيخ حسن في استثمار الوقت نموذج جدير بالاقتداء. فأسلوبه لافت ومعدٍ. لو رأيت ولاحظت سماحته في بيئة عمله فسترى نفسك تلقائيًّا تدرك كم من الأشياء تستطيع أن تُنجزها أو تتعلَّمها، إذ ستشعر بقيمة الوقت أكثر، وتتولَّد لديك الثقة بقدرتك على ترويض وتوطين نفسك على استغلال ما منحك اللَّه من نعمة الوقت في سبل الخير. لمست مباشرة تأثير فلسفة وآلية استثمار الوقت في ثلاث زيارات مختلفة تفصل كل واحد منها عن الأخرى على الأقل سنة، كيف يعمل فريق مكتب سماحة الشيخ، فترى الجميع يعمل بجدية وتركيز كخلية نحل تتَّسم بالحيوية والنشاط والفاعلية، وباستثمار للوقت لإنتاج وإنجاز أكبر قدر ممكن من العمل. عبارة «دع عمل اليوم للغد» ليس لها وجود في حياة ومكتب سماحة الشيخ اليومية.

الانفتاح:

الانفتاح على العالم، على الثقافات الأخرى، على علوم الآخرين، على أفكار الآخرين مهما كانت مختلفة وحتى مغايرة لفكره هي من السِّمات القوية التي يتحلَّى به سماحة الشيخ حسن الصفار. من خلال متابعتي لمحاضرات وخطب ومواقف وكتب سماحة الشيخ، أرى وألمس نظرته للإنسان كإنسان مكرَّم من اللَّه، وأن من واجبات الإنسان أن ينفتح ويتعرَّف على أخيه في الإنسانية، ويُعلِّم ويتعلَّم منه. الانفتاح يتَّكئ على ركيزتين: الرغبة والقدرة، وكلاهما يتطلَّب بذل الجهد وأخذ الخطوات الأولى للتعرُّف

على الآخرين، ويتطلَّب تنمية مهارات تواصل معيَّنة. وهذا ما يُتقن سماحة الشيخ عمله لما يمتلكه من قناعة بجدوى وفائدة الانفتاح وما لديه من تراكم مهارات وتجارب في تأسيس وتجسير العلاقات مع الآخرين.

لا بد من الإضافة بأن الانفتاح سمة عامة في تفكير وشعور وسلوك سماحة الشيخ وتنطبق على الانفتاح على الآخر، على عالم الفكر وعلى ما هو جديد ومعقول ومفيد.

المرونة الذكية:

والصفة الأخيرة في الجانب الشخصي لسماحة الشيخ يتناول موضوع المرونة الذكية والتي هي من أبرز صفاته. وأقصد بالمرونة الذكية هي امتلاك المرء نظرة إيجابية للذات وخاصة قدرته على تقدير وتقييم تحدِّيات الحياة بدقَّة ووضوح والتحلِّي بالثقة في إيجاد طرق حذقة لتذليل الصعاب وتحويلها الى فرص. كل من يتصدَّى لخدمة المجتمع ورفع مستوى وعيه وتطويره يحتاج الى ترسانة من المرونة الذكية، وهذا يتطلَّب سعة أفق وسعة صدر وسعة فهم وكلها موجودة في شخص سماحة الشيخ، فهو يتعاطى مع الأمور بهدوء وتروي وتأمُّل عميق وبعقلانية عالية وليس بالانفعالية التي عادة ما تجلب النتائج السلبية.

كما ذكرت في البداية بأن السِّمات الشخصية متداخلة ومؤثِّرة في الجانب المعرفي والجانب الاجتماعي وتناولي بشكل منفصل عن كل سمة من السِّمات الشخصية هو لهدف إبرازها وتسليط الضوء عليها أكثر. والآن انتقل بالحديث عن الجانب المعرفي.

الجانب المعرفي:

في زيارتي الأخيرة (نهاية شهر ديسمبر من عام ٢٠٢١) لمكتب سماحة الشيخ، أحد الإخوة أخذنا في جولة على المكتبة الكبيرة واطَّلعنا على إصدارات سماحة الشيخ الأخيرة والتي أهدانا منها بعض النسخ. وتضمَّنت الجولة زيارة لصالة إصدارات سماحة الشيخ منذ أن بدأ في تأليف الكتب. كمية الإصدارات كبيرة ومدهشة جدًّا، وبعض الكتب ترجم الى لغات أخرى بما فيها اللغة الإنجليزية ككتاب التنوُّع والتعايش الذي كان محور مؤتمر عقد في جنوب أفريقيا في خريف السنة الماضية. وأثناء الحديث مع سماحة الشيخ، أخبرنا بأنه ألّف ١٣ كتابًا أثناء أزمة كورونا والتي أتاحت له الفرصة على التركيز على القراءة والكتابة. وهذا الإنجاز (تأليف ١٣ كتاب في خلال سنة ونيف) هو دليل على السمات الشخصية التي ذكرتها أعلاه.

وهذا الجانب ليس مقتصر على تأليف الكتب فقط. إنما يشمل -أيضًا- العطاءات الفكرية في المحاضرات وخطب الجمعة والمشاركات الكثيرة في الندوات، والحوارات، والمؤتمرات. والمتابع لنتاج سماحة الشيخ يلاحظ قواسم مشتركة تتلخَّص في النقاط الآتية:

١- وضوح الفكرة وطرحها بلغة بليغة ولكن بطريقة يسهل فهمها على عامة المستمعين بتنوُّع تخصُّصاتهم ومستواهم العلمي وحصيلتهم الثقافية.

٢- التركيز على مواضيع حيَّة ومعاصرة تلامس وتعالج احتياجات المجتمع.

٣- تناول المواضيع وطرحها بشكل جاذب وآسر للانتباه ومُحفِّز لمتابعة البحث عن المزيد من المعلومات عنها.

٤- الاعتماد على المصادر الحديثة والمعلومات الجديدة وتقديمها بشكل مناسب مع ذائقة وتفكير الجيل الجديد الذي تعوَّد على المساءلة ونقد وتقييم الأفكار.

٥- احترام فكر وذكاء المستمع أو القارئ وإعطائه المعلومات المبنيَّة على بناء منطقي ومراجع معتمدة ومتعدِّدة، وطرح الأسئلة والمواضيع التي تثير فضوله المعرفي.

من الملفت في قراءة عناوين كتب أو سماع محاضرات سماحة الشيخ هو شمولية وغزارة علمه في ميادين شتى من ميادين المعرفة، والتي عادة ما ينطلق فيها من رؤية وأرضية دينية ثرية ومتينة، ويربطها بما هو جديد في العلوم المختلفة كعلم النفس وعلم الاجتماع. والاستعانة بلغة الإحصاء -أيضًا- صفة مميَّزة لسماحة الشيخ حينما يتحدَّث عن ظاهرة معيَّنة أو موضوع معيَّن، فتراه يعرض الأعداد والأرقام المرتبطة بالموضوع لكي يدرك المتلقي أهمية الموضوع بشكل أكبر.

وفي الجانب الاجتماعي يلمس المراقب والمتابع لفكر سماحة الشيخ الإبداع والعطاء المتجدِّد بلغة عصرية تواكب المستجدات في الساحة الفكرية. وتراه مهيمنًا على أي موضوع يكتب فيه أو يتحدَّث عنه؛ لأنه يستند ويعتمد في الكتابة والخطابة على التحضير الطويل الذي يُمكِّنه من تناول الموضوع بغزارة وشمولية.

وفي الجانب المعرفي لا بد من المرور على دور سماحة الشيخ في تربية الكوادر المعرفية الشغوفة بالعلم والمعرفة، وبنشر الثقافة بشتى الطرق المكتوبة منها والمرئية والمسموعة. كل كادر لديه برنامجه الثقافي، ويحمل

نفس هموم واهتمامات وسعي سماحة الشيخ في رفع وعي وثقافة المجتمع.

وهناك الدور التشجيعي لدى سماحة الشيخ للمثقَّفين والمتصدِّين للشأن الثقافي، فتراه يُثني على كاتب هنا ويشيد بآخر هناك، ويُحفِّزهم على الاستمرار في إنتاج المزيد من المؤلَّفات والإصدارات. الدور التشجيعي هذا نابع عن تقدير سماحته لجهود الكتَّاب والمؤلِّفين، ويقينه بأن مواظبة الكتَّاب على الكتابة والتأليف تُنمِّي وتزيد مهارات التفكير والكتابة عندهم.

الجانب الشخصي والمعرفي في شخصية سماحة الشيخ ينعكسان على الجانب الاجتماعي والذي سننتقل إليه الآن.

الجانب الاجتماعي:

مُهمَّة العالم والمفكِّر والمثقَّف عادة ما تصبُّ في خدمة المجتمع. وكلما كانت علاقة العالم بالمجتمع قريبة زادت قدرته على خدمة مجتمعه؛ لأن التواصل المباشر مع المجتمع يُعطي العالم فرصة التعرُّف على احتياجات الناس ومعرفة المواضيع المهمَّة التي تحتاج الى دراسة ومناقشة في الفضاء الاجتماعي. ومجتمعاتنا اليوم تواجه تحوُّلات كثيرة، ومع التحوُّلات هناك تحدِّيات كبيرة لا بد من التصدِّي لها وتناولها من قِبَل من يدهم دائمًا على نبض المجتمع ويعرفون أماله وآلامه. وسماحة الشيخ حسن الصفار يسعى دائمًا لخدمة مجتمعه وللنهوض به الى أرقى المستويات، ولهذا نراه ينسج العلاقات مع كل شرائح المجتمع من مثقَّفين ومعلِّمين ورجال أعمال. وفي لقاءاته يحثُّ على خدمة المجتمع بأيِّ شكل من الأشكال، سواء عن طريق العمل التطوعي ودعم الجمعيات الخيرية واللجان المختلفة كالتي تهتم بشؤون الناس وحماية البيئة.

حسب مواكبتي لما يقوم به مكتب سماحة الشيخ، أستطيع القول بأن مشروعه في الجانب الاجتماعي يسعى لتحقيق عدة أهداف ومنها:

١- تحفيز الناس على العطاء وخدمة المجتمع.

٢- تشجيع رجال الأعمال على دعم المشاريع الخيرية والاستثمار في الموارد البشرية، عن طريق تشجيع العلم والتعلُّم، ودعم من يحتاج إلى مواصلة دراسته وخاصة في المجالات والخدمات الطبيَّة.

٣- التواصل بين شرائح المجتمع وخاصة المتصدِّين لخدمته، والحثُّ على التعاون، وعلى مناقشة التحدِّيات وتبادل الخبرات.

٤- تكريم الشخصيات الخادمة للمجتمع.

٥- نشر جو الألفة والوئام والانسجام في المجتمع.

٦- أن تسود ثقافة التطوع والتكافل في المجتمع.

٧- التزاور والتواصل لتقريب وجهات النظر بين فئات المجتمع، ونشر ثقافة احترام اختلاف الرأي عن طريق الحوار الهادف والبناء.

يُركِّز سماحة الشيخ على هذه الأهداف في لقاءاته المختلفة مع رؤساء وأعضاء إدارات الجمعيات الخيرية أو الأندية الرياضية أو اللجان التطوعية المختلفة. وهذا التركيز والحثُّ والتشجيع يعكس الحبَّ لصادق والعميق الذي يَكُنُّه سماحة الشيخ لمجتمعه.

وفتح قنوات التواصل والزيارات المتبادلة والكثيرة مع الشركاء في الوطن لهو دلالة واضحة -أيضًا- على حرص سماحته على أهمية هذه العلاقات في تقوية الأواصر بين أبناء الوطن الواحد. والنتائج الإيجابية للزيارات والتواصل المباشر مع أبناء الوطن من شماله الى جنوبه ومن شرقه الى غربه كثيرة، ومنها التعرف عن قرب على إخوة الوطن، والتخلُّص من

الصور النمطية التي نشأت وترعرعت وتجذَّرت بسبب عدم التواصل وعدم وجود من يتصدَّى لتغيير هذا الواقع غير الصحي. وسماحة الشيخ هو من أحد أهم المتصدِّين لتغيير هذه الحالة، ولعب دورًا رياديًّا بارزًا ولا زال في هذا المجال.

الحديث يطول في الكلام عن شخصية سماحة الشيخ حسن موسى الصفار المتعدِّدة الجوانب وسيرته وتجربته الثرية وعطائه المعرفي المتدفِّق. وأتوقَّف هنا لأقول لسماحة الشيخ: تهانينا وتبريكاتنا لك على هذا التكريم الذي تستحقه. نسأل اللَّه أن ينفعنا بعلمك ويرفعنا بعطائك المستمر.

المرأة
في فكر الشيخ حسن الصفّار

الدكتورة سميرة عبدالله البيات[1]

شغلت قضايا المرأة حيّزًا كبيرًا من هموم المجتمعات المحافظة لأسبابٍ قد تكون عُرفيّة أكثر من كونها دينيّة وإن اصطبغت بصبغة دينيّة، وإنّ الواقع الذي نعيشه اليوم ونعدّه أمرًا طبيعيًّا فيما يتعلّق بالمرأة في مجتمعاتنا من إعطائها حقوق التعليم والعمل والمشاركة في نهضة مجتمعها في كافّة المجالات لم يكن في السّابق أمرًا طبيعيًّا أو مقبولًا في أكثر المجتمعات تحفّظًا في المملكة العربية السّعودية. صحيحٌ أنّ القرارات الرّسمية من أجهزة الدّولة هي الفيصل في مثل هذه الأمور، ولكن لم تكن لتأتيَ هذه القرارات أُكلَها لو لم يكن هذا المجتمع مستعدًّا لقبولها، وكانت المرأة فيه على قدرٍ من العلم والثّقافة تمكّناها من أخذ مكانها المناسب في عمليّة التغيير هذه.

إنّ الكثير من مسلّمات هذا العصر كانت محلّ جدل ونزاعٍ بين التيّارات

(١) اختصاصية طب وجراحة الأسنان، سيدة أعمال وكاتبة – القطيف.

المختلفة التي تباينت في نظرتها للمرأة، تلك النّزاعات التي حكتها وسائل الإعلام مثل حلقة (سور الحريم) في مسلسل (طاش ما طاش) والتي بُثّت عام ٢٠٠٦م راويةً قصّة أعلى درجات التطرّف تجاه المرأة في جوٍّ كان الخطاب فيه يترحّم على زمانٍ كانت المرأة لا تخرج فيه إلّا ثلاث مرّات، الأُولى من رحم أُمّها، والثانية إلى بيت زوجها، والثالثة محمولة إلى قبرها!

عاصر الشيخ الصفّار في طفولته افتتاح أولى مدارس البنات في محافظة القطيف في بداية الستّينات الميلاديّة، في ذلك الوقت الذي كانت فيه بعض الآراء الدينيّة ترى كراهة تعليم المرأة، وكان الجوّ العام يؤسّس لنظرة دونيّة للمرأة، ولكنّ الجهود المحليّة أثمرت في فرض هذا الواقع الجديد متحدّيةً تيّارًا لم يكن ليُستهان بقوّته وحضوره. حمل الشيخ على عاتقه فيما حمل مواصلة المسيرة التنويرية والتجديد في الفكر الدّيني، منطلقًا من منظور إيماني أساسه أنّ للنّساء نصيبًا ممّا اكتسبن كما للرجال نصيبٌ ممّا اكتسبوا، وقد اتّسمت معالجته لقضايا المرأة بشجاعة الطّرح وعمقٍ في الثّقافة والاطّلاع مكّنت خطابه في أن يحظى بقبولٍ واسع.

نتذكّر أنّه بعد عودة الشّيخ إلى المملكة في منتصف التسعينات الميلاديّة كانت آفاق عمل المرأة هنا محصورةً في غالبها بين قطاعي الصحّة والتعليم، فكانت طموحات فتياتِ ذلك الجيل محصورة في إطار هذه الحالة. عند الحديث عن المجتمع النّسائي عندنا بشكلٍ عام نستطيع القول: إنه لم يكن لنسائنا في ذلك الوقت الوعي الكافي بحقوقهنّ أو الإيمان بقدراتهنّ العقليّة أو البدنيّة، وقد وقعت الكثير من النّساء ضحايا للعنف أو التنمّر والظّلم وكأنّها خُلقت لتواجه هذا القدر المحتوم.

تمكّن الشيخ في تلك الفترة أن يستقطب -ببلاغة خطابه وعمق طرحه- شرائح واسعة من المجتمع. حيث كان الشيخ ظاهرة فريدة في تاريخ الخطاب الحسيني في القطيف، فقد خرج عن الإطار التقليدي الذي تشغل فيه القضايا العاطفيَّة والأحاديث التاريخيّة والسّجالات المذهبيَّة أغلب حيّزها إلى خطابٍ فكري واعٍ يمسّ القضايا الثّقافية والاجتماعية المعاصرة بشكل جادٍّ وأسلوب شائق، وأرسى فيها مفاهيم لم تكن معروفةً ولا مألوفة في الخطاب الدّيني السّائد، كالتنوّع والتعايش، والسّلم الاجتماعي، والتطلّع للوحدة، والإصلاح الدّيني، وكان للمرأة نصيب وافر من محاضرات الشّيخ وكتاباته وحركته الاجتماعيّة، التي حرص من خلالها أن تُعطى للمرأة كافّة حقوقها وفرصها في تحقيق ذاتها والرّقي بها، في إطار قراءة شرعيّة منفتحة تنظر للمرأة بإنسانيّتها، بلحاظ أنّ النّساء شقائق الرّجال كما ورد في الأثر الذي يردّده في خطاباته. وفيما يلي سنستعرض بعض المواقف عند قراءتنا لسيرة الشّيخ حسن الصفّار في هذا الجانب.

الحضور النّسائي في حسينية العوّامي

كانت أولى محاضراته بعد عودته إلى المملكة في حسينيّة العوّامي، وقد امتدّت لعدة مواسم، شهدت خلالها إقبالًا نسائيًّا كبيرًا، ولا سيّما من الفئات الشابّة المتعطّشة لخطابٍ ديني عقلاني بعيدٍ عمّا يُقال ويُفعل في مجالس النّساء من أحاديثَ وطقوسٍ تخالف العقل وتفتقر للدّليل. كانت من عادة الشّيخ أن يُخصّص محاضرةً كاملةً على الأقل في موسم المحرّم تُعنى بالشّؤون والتحديّات المعاصرة للمرأة. وقد امتاز الشّيخ عن غيره من الخطباء في تناوله قضايا المرأة بعدّة أمور، أهمّها -في نظري- إلمامه بهموم وتطلّعات المرأة في الزّمان والمكان الذي يعيش فيه، والذي كان نتيجة طبيعيّة

لدوره الاجتماعي الرّائد، وتواصله مع كافّة أطراف المجتمع مهما كلّفه ذلك من وقتٍ أو جهد.

إنّ القارئ لخطاب الشيخ الصفّار وتناوله لقضايا المرأة يجد فيه الكثير من الصّراحة والإنصاف والشّجاعة في الطّرح، دون أن يجد حرجًا في أن ينتصر للمرأة على حساب أبناء جنسه إن اقتضى الأمر قول الحق، وقد يؤدّي ذلك أحيانًا إلى غضب المتعصّبين من الرّجال الذين عاتبوا الشّيخ غير مرّة. نذكر مرّة فصّل الشيخ في محاضرة له ما للمرأة من حقوق في فرض شروطٍ معيّنة في عقد الزواج، ممّا أدَّى إلى موجة غضب، باعتبار أنّ الشيخ يؤلّب النّساء على أزواجهنّ، ويرشدهنّ إلى ما لا يجب عليهنّ معرفته!

سلسلة محاضرات يوم الأربعاء:

كان مساء يوم الأربعاء حافلًا بالبرامج والمحاضرات التوعوية في مجلس الشّيخ، وقد أخذت سلسلة فقه الأسرة حيّزًا كبيرًا من تلك المجالس، والتي امتدّت حلقاتها لخمسين حلقة، تناول من خلالها مختلف قضايا الأُسرة بمنهجيّة علميّة وهدوء في الطّرح، مكرّسًا منهجه المعتدل المنصف لحقوق المرأة. ولم تكن رؤاه عن المرأة مجرّد تنظيرٍ لواقعٍ مثالي، بل يُتبعها بواقعٍ عملي، فقد خصّص مكانًا للنّساء في مجلسه، ورحّب بمشاركاتهنّ وإسهاماتهنّ عبر السّمّاعات الصوتيّة في وقتٍ كانت فيه حسّاسيّة المجتمع شديدة تجاه أيّ تقاطعٍ بين شؤون الجنسين، وكأنّ الشّيخ يريد إيصال عدّة رسائل مفادها أنّ للنّصف الآخر من المجتمع الحقَّ في التعبير عن ذاته والمشاركة في بناء مجتمعه، وأنّ رجال الدّين هم أولى من غيرهم في كسر تلك القيود التي طالما أُلصقت بالدّين.

المحاضرات الخاصّة بالنّساء في مجلس أم سمير البيات:

كان ذلك في شهر رمضان قبل عشرين عامًا مع بداية الألفية الجديدة، حين لبّى الشّيخ دعوةً لإلقاء مجموعة من المحاضرات في ليالي الشهر الكريم مخصّصة للنّساء، أُعدّت غرفة للشّيخ، وكانت محاضراته تُبثّ بالصّوت والصورة، وكان يستمع لمداخلات واستفسارات النّساء بكلّ رحابة صدر، واكتظّ المجلس بالنّسوة، وكان حضور الشّابّات لافتًا، وقد تفاعلن كثيرًا مع المحاضرات، حتّى أنّنا نذكر أنّ بعضهنّ كنَّ يدوّنَّ ما يسمعنه في منظرٍ غير مألوفٍ في المجالس النّسائيّة في القطيف. كانت شهادات النّساء بحق الشّيخ -ولا سيّما بعد هذه السّلسلة من المحاضرات- مذهلة، فالبعض عدّه أكبر نصيرٍ لقضايا المرأة من الوسط الدّيني، وأخريات أَثنَيْن على دوره في زرع الثّقة والطّموح عند المرأة، وأخريات وجدن فيه معلّمًا تنويريًّا وأستاذًا لجيل جديدٍ يبشّر بقيمٍ كالاعتدال والتعقّل.

المرأة في كتب الشّيخ:

نالت المرأة نصيبًا كبيرًا من مؤلّفات الشّيخ الصفّار، نذكر منها عدّة عناوين مثل: (شخصيّة المرأة بين رؤية الإسلام وواقع المسلمين)، و(المرأة.. مسؤوليّة وموقف)، و(المرأة العظيمة) وغيرها من المؤلّفات. استعرض الشّيخ فيها أمثلة مشرقة عبر تاريخ البشريّة مرورًا بتاريخنا الإسلامي ودور المرأة فيه، مؤكّدًا على شراكتها للرّجل في الإنسانيّة، ومعزّزًا لواقعٍ تكون فيه المرأة ناهضةً وفاعلة دونما ابتذالٍ على ضوء قراءة دينيّة واعية، وناقدًا لحالة التخلّف والجمود التي تحرم المرأة من حقوقها بحججٍ دينيّة لا أساس لها. إنّ من اللّافت من عبارات الشيخ في بعض هذه الكتب المذكورة وفي محاضراته

-أيضًا- عنوان: (المرأة حين تفوق الرّجال)، مستشهدًا بعيّناتٍ نسائية تفوَّقن في مجالاتٍ عدّة، كي يشجّع بنات الجيل الجديد على أَلَّا يرضين بالأقلّ من الأمور؛ إذ إنّ الأنوثة أو الرّجولة لا تُعطي لأيّ طرف أفضليّة على الآخر.

ترجمة هذا الفكر إلى واقع:

إنّ من يكون شاهدًا على حياة الشّيخ الاجتماعية لا يستطيع أن يُقرّظ فكره دون المرور على أثر هذا الفكر في سيرته، هناك من يُحسن التنظير في قضايا المجتمع ولكن تراه في برجه العاجيّ لا يعيش همومه ومشاكله، ونحن لا نرى أن من الضّرورة التّلازم بينهما، ولكن أن ترى مسيرتين متوازيتين لنتاجٍ فكريٍّ من جهة وعملٍ اجتماعي من جهة أخرى تكون ثانيتها ترجمانًا لأولاها لهي سيرة تستحقُّ التأمّل والتدريس. لعلّ الكثير يعجب كيف لهذا الإنسان -مع كلّ ما يشغله- أن يجد من الوقت ما يمكّنه من معايشة الكثير من الأحداث والمناسبات في المجتمع، وأن يكون عضوًا فاعلًا فيها، وكأنّه قد أُعطي حصّة من الوقت في اليوم أكثر من غيره!

في حين قد وقع بعض الخطباء في منطقتنا في مواقف محرجة عندما خالف وعظهم على المنبر ما يقولونه في مجالسَ خاصّة، ولا سيّما عندما يتعلّق الأمر بما له حسّاسيّة في المجتمع المحافظ، ولكنّ الشّيخ الصّفّار ابتعد عن تلك التناقضات، فهو طالما نصح غيره من الخطباء أن يوحّدوا خطاباتهم وأن يقولوا ما يؤمنون به بكلّ شجاعة، وقد شهدنا أنّه يفعل ذلك مهما كلّفه من نتائج على المستوى الشّخصي، ولم ينصح بشيءٍ إلَّا بدأ بنفسه وأهله فكان مصداق قول الشّاعر: «ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها».

علاوة على ما ذُكر في سياق دعم الشّيخ لمشاركة المرأة في الشأن

الثّقافي والاجتماعي لدينا الكثير من الشّواهد من تاريخ الشّيخ في هذا المجال تحديدًا لا يسعنا المقام في تعدادها، ولكن نشير إلى جملةٍ منها؛ فعندما يردّد في خطاباته أنّ إصلاح ذات البين خيرٌ من عامّة الصّلاة والصّيام، أو أنّ عرش الرحمن يهتز للطّلاق، فذلك يتبعه ساعاتٌ من العمل الدؤوب سعيًا في الإصلاح بين المتخاصمين، خاصّةً عندما يتعلّق الأمر بامرأة مستضعفةٍ. وكم شهدنا على حالاتٍ كان فيها محضر خيرٍ بما له من مكانة اجتماعيّة، وبما عنده من أسلوبٍ راقٍ في حلّ النّزاعات. وعندما يريد أن يقدّم محاضرةً عن قضايا المرأة فلا يفعل ذلك إلّا بعد بحثٍ واستشاراتٍ لبعض نساء المجتمع، ليكون ملمًّا بهمومهنّ وتطلّعاتهنّ المعاصرة من وجهة نظرهنّ. إنّ كلّ ذلك النّتاج الفكري وما يصاحبه من فعلٍ واحترامٍ لشخص ومكانة المرأة والسّعي في تمكينها من حقوقها لهما وجهان لامعان من عملةٍ ذهبيّة واحدة صاغها الشّيخ الصّفّار بفنٍّ وعناية لتظهر للعالم صورةً مشرقة من حضارتنا.

جهود الرواد والمصلحين في فكر الشيخ حسن الصفار

الدكتور وسام عباس السبع[1]

تمهيد:

في صباي، عندما كانت أشرطة الكاسيت من أهم قنوات التثقيف الديني، وأكثرها انتشارًا بين الشباب المتعطِّش للدين، كان لبعض الأسماء المعروفة في دنيا الخطابة بريق خاص وشهرة طاغية.

آنذاك، كان اسم الشيخ حسن الصفار، الخطيب الحسيني البليغ والمتدفِّق حماسًا ومعرفةً يتوهّج بين قلَّة معدودة من خطباء «المنبر الواعي»، وكان صوتًا هادرًا يشحذ الهمم ويُغذِّي الفكر ويثري الروح، ويرسم بكلماته القوية ونبرته التي تشفّ حماسةً وصدقًا معالم الطريق الهادي إلى جوهر الإسلام ومفاهيم العقيدة من خلال براعة الاستعراض للسيرة الحسينية

(١) كاتب وباحث بحريني.

وملحمة كربلاء بكل شموليتها وعطاءاتها المباركة.

بعد سنوات قِلّة، قُدّر لي أن أرى وأسمع هذا الخطيب المفوّه في مهجره الدمشقي، حيث كان يرقى المنبر في إحدى الحسينيات المحاذية لمقام السيدة زينب عليها السلام، في حيٍّ يكتظُّ بوفود الزائرين من أصقاع الدنيا، وبجالية خليجية مقيمة تشاطر العراقيين محنتهم المديدة مع الشتات والغربة والألم. كانت سعادتي وقتها كبيرة، وتعمّق آنذاك انشدادي إليه أكثر من ذي قبل.

وعندما حدث الإنفراج الكبير بالمملكة في أعقاب المصالحة التاريخية في يوليو ١٩٩٣م، قُدّر للشيخ حسن الصفار العودة إلى بلده ومسقط رأسه، وتهيَّأت له الظروف لاستئناف دوره الوطني والنهوض بمسؤولياته الشرعية مجدَّدًا في الداخل كقائد وزعيم ديني بارز يحظى بتقدير كبير بين أبناء مجتمعه، ومع هذه العودة باتت الأرضية مؤاتية أكثر من ذي قبل للبدء في ترسيخ دعائم مشروعه الفكري في مجال الإرشاد والتوجيه الديني.

من القطيف، أصبحت فرص الانفتاح والتلاقي مع شخصية الشيخ الصفار أكثر منالًا ويسرًا، وباتت إرشاداته وكتاباته تتَّخذ لها أدوات جديدة تتناسب وطبيعة المرحلة الجديدة من خلال كتبه ومحاضراته وتوجيهاته وحضوره الإعلامي، وإن بقي الشيخ هو هو، في تجلياته الفكرية، وفي علو الهمة والاحتدام الصادر عن نفس عامرة بالإيمان الثابت.

ومن هنا، كان اقترابي الفكري والإنساني من شخصية الشيخ حسن بن موسى الصفار.

تنوع العطاء العلمي والثقافي:

تتنوَّع الأدوار القيادية لعالم الدين في المجتمع، إذ يقع على عاتقه مهمَّة البحث العلمي لاستجلاء مفاهيم الإسلام وتشريعاته بالدراسة والتدريس والتأليف، إلى جانب وظيفة التبليغ والتبيين لمعارف الدين وأحكامه عبر الخطابة والكتابة، والقيام بأعباء الشؤون الدينية الاجتماعية من إمامة الجمعة والجماعة، والقضاء بين الناس، وإجراء عقود الزواج والطلاق، وصولًا إلى التصدّي السياسي المدافع عن قضايا الدين والأمة.

ونتيجةً لعِظَم وأهمية مكانة عالم الدين وموقعه القيادي في ظل تعقيدات الحياة المعاصرة وتطوُّر وسائل الاتصال والانفجار المعلوماتي، تتعاظم مسؤوليته الشرعية والاجتماعية في المجتمع، إذ يتعيَّن على عالم الدين أن يواكب كل هذه المتغيرات ويتعامل مع الإشكالات الفكرية المعاصرة، ويقدِّم إجابات وافية تتناسب مع روح العصر حول أهم وأبرز القضايا المستجدة.

والشيخ حسن الصفار، يعدُّ واحدًا من أبرز العلماء الذين تميّز نشاطهم العلمي بالشمولية والعمق، وقد تجاوز جهاده في مضامير العلم والثقافة والتبليغ والعمل الاجتماعي حدودًا تثير الدهشة والإعجاب كمًّا ونوعًا.

إن أبرز ما يُميِّز تجربة الشيخ الصفار، والتي تمتد لأكثر من ثلاثين سنة، أنه لم يكتفِ بالبحث حول أهم المشكلات الاجتماعية والثقافية المحلية والإسلامية في جانبها العلمي، بل حرص على تدوين خلاصة تجربته الفكرية والنضالية والعلمية عبر مؤلفاته التي أربت على مئة مؤلف تُمثِّل الخلفية النظرية والفكرية لعمله السياسي والاجتماعي والثقافي طوال هذه المدة

الزمنية، سواء في مرحلة المعارضة في الخارج، أو بعد رجوعة واستقراره في وطنه[1].

ويكشف لنا العطاء العلمي للشيخ الصفار تنوُّعًا غنيًّا وعطاءً ثرًّا، فقد ساهم في الكتابة والتأليف في مجال الفكر والثقافة الإسلامية، والبحوث الفقهية، وكتب في سيرة النبي وأهل البيت عليهم السلام، وفي حقول عدة، مثل: الشأن الاجتماعي، والمرأة والشباب، والتربية والأخلاق، والثقافة السياسية، ناهيك عن دراساته النوعية المتميزة في الشخصيات والتراجم.

والوقع أن دور ومكانة علماء الدين ومسؤولياتهم مواضيع نالت اهتمامًا كبيرًا عند الشيخ الصفار، ويكاد لا تخلو محاضرة من محاضراته، أو بحث من أبحاثه أو كتاب من كتبه من الحديث عن هذه الطبقة، وأهمية دورها المحوري في ترشيد وعي الأمة والنهوض بواقع المجتمع المسلم، ولعل كتابيه: (علماء الدين: قراءة في الأدوار والمهام) و(القيادات الدينية: الخطاب والأداء الاجتماعي على ضوء مصادر فقه الشيعة الإمامية) خير شاهد على ذلك، فقد بسط فيه الحديث عن هذا الموضوع المهم بتفصيل وشمول.

وكم سمعتُ منه (حفظه اللَّه) في أثناء لقاءاتي المتعدِّدة، تبجيلًا وتقديرًا عاليًا للعلماء العاملين الذين كان لحركته العلمية ونشاطهم الديني تأثير بالغ على مجتمعاتهم، وهو إذ يتحدَّث ويُثني على هذه الجهود، لا يفتأ يذكر الظروف المحيطة بتجربة كل واحد منهم ويُقدِّم نظرة تحليلية لها، فالواقع الاجتماعي والظروف الموضوعية التي تحيط بحياة المصلحين تؤثِّر في خيارات تحركهم،

(١) حسين منصور الشيخ، المسيرة الفكرية قراءة في مؤلفات الشيخ حسن موسى الصفار، (أطياف للنشر والتوزيع)، ص ٥.

والمصلح ذو البصيرة هو من يقرأ الواقع بعين فاحصة تتسم بالمرونة والواقعية، ويكون مشروعه التغييري في العمل مبنيًّا على سبر عميق للواقع والظروف واضعًا نصب عينية مصالح الأمة العليا. وقد ذكر ذات مرة: «عندما استُدعي الإمام موسى الصدر للعمل في لبنان، حظيت الدعوة بتشجيع من علماء قم، لكن الإمام الصدر كان صريحًا معهم بخصوص طبيعة تحرُّكه المستقبلي في الساحة اللبنانية، وأكد لهم أن بلدًا مثل لبنان لا تصلح له قيادة دينية تتحرَّك وفق مقاييس النظرة التقليدية السائدة في الوسط العلمائي في قم. كان السيد الصدر يعتقد أن استمرار بقائه في قم أنفع له، لكن العمل في لبنان -بكل تحدِّياته ومصاعبه- أكثر فائدة للأمة».

ولا يخلو مجلسٌ من مجالس الشيخ الصفار الخاصة من حديث عن هموم الأمة، وضرورة تجاوز حالة الجمود الفكري والتقوقع على الذات التي تنتج ضيق الأفق والتطرُّف المقيت والعزلة، ويتكرّر حديثه دائمًا عن النماذج الهادية التي قدَّمت للأمة خلاصة أفكارها وعملت في سبيل رفعة الدين وإطلاق طاقات المجتمع على طريق الإصلاح والبناء والعمل والتنمية والتسامح، واحترام قيمة الحرية والتعدُّدية في مجتمعاتنا.

وقد ضمّنا -في إحدى زياراته للبحرين- مجلس بيت علماء آل عصفور، حضره جمع من كبار فضلاء وعلماء من العراق وإيران والسعودية والبحرين على هامش أعمال مؤتمر العلَّامة الشيخ حسين آل عصفور «الرسالة والموقف» المنعقد في مارس/ آذار ٢٠١٠، كان فيه الشيخ الصفار قطب الرَّحى والشخصية التي تهيمن بمداخلاتها العلمية الهادفة على أجواء اللقاء، وكنتُ ألمس مدى حرصه على أن يكون هذا المجلس العامر بالفضلاء فرصةً لتبادل الخبرات ومناقشة مواضيع هادفة، وإن حاول البعض تجييره لأحاديث جانبية ليست ذات قيمة.

المنهج في قراءة جهود الرواد والمصلحين:

جاءت إسهامات الشيخ الصفار في الكتابة عن أعلام الفكر والإصلاح الديني، في معظمها استجابة لدعوات وُجِّهت لسماحته من أجل المشاركة في مناسبات وفعاليات إحياء ذكرى هذه الشخصيات العلمائية الخالدة، وقد وجد الشيخ نفسه مدفوعًا بتكليف شرعي وواجب أخلاقي لأداء هذا الدور بكل إندفاع وحب.

ومن أبرز ما يمكن ملاحظته من خلال مؤلفات الشيخ الصفار العلمية ونتاجه الثقافي اهتمامه الواسع بروَّاد النهضة الإسلامية من المجدّدين، فكتب في سيرة المؤرّخ الشيخ علي البلادي القديحي (ت ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م)، وبحث في دوره في توثيق تاريخ المنطقة العلمي والأدبي من خلال كتابه «أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين»، وهذه الدراسة التاريخية تعدُّ باكورة إنتاج الشيخ حسن العلمي في حقل التراجم والسير والتراث[1].

كما درس أعلام الفكر والإصلاح، مثل: الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م)، والشيخ محمد أمين زين الدين (ت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، والشيخ محمد مهدي شمس الدين (ت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، والسيد محمد الشيرازي (ت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، والدكتور الشيخ أحمد الوائلي (ت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، والدكتور الشيخ عبدالهادي الفضلي (ت ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م) وآخرين.

واجتهد الشيخ الصفار في محاولة اكتشاف ملامح المدرسة الإصلاحية

(١) صدر الكتاب سنة ١٩٩٠هـ عن مؤسسة البقيع لإحياء التراث.

في تجارب هؤلاء الرُّوَّاد، وعرضه بإسلوب أكاديمي رصين، قادر على تقديم العِظة واستخلاص العِبَر والدروس، بعيدًا عن اللغة الخطابية الفارغة التي لا تقدِّم شيئًا ذا قيمة، أو تعتمد النهج التقليدي الذي يُعيد إنتاج معلومات محصورة بسنة الميلاد وأسماء المؤلفات وسنة الوفاة ومكان الدفن، كما هو شائعٌ في كتب التراجم التقليدية.

في بدايات القرن العشرين دار حوار في بريطانيا بين فرجينيا وولف و ت. س. إليوت حول مسألة القطيعة مع الماضي. كانت وولف تدافع عن قطيعة جذرية مع الماضي، فإذا كنا الآن نرى أبعد من شكسبير، فما الحاجة إلى شكسبير؟ كان جواب إليوت: «أنا الآن أرى أبعد من شكسبير لأنني أقف على كتفيه». وهو مجازٌ استعاره إليوت من إسحاق نيوتن عندما قال: «لقد رأيتُ أبعد من غيري لأنني أقف على أكتاف العمالقة».

ولعل هذا السجال يقرّب المعنى الذي يتوخَّاه الشيخ الصفار في حرصه على قراءة سير العلماء ورموز المرجعية الدينية، ومحاولة النفاذ لمكنون وجوهر الفكر الإصلاحي في سير المصلحين ممَّن درسهم الشيخ، ووقف على كفاحهم الاجتماعي ومسيرتهم الفكرية وعطائهم العلمي الزاخر.

إن منهج الشيخ في دراسته لسير أعلام الفكر الإصلاحي يمكن وصفه بـ«المنهج الإحيائي»، والذي يقوم على محاولة استكشاف الأبعاد التربوية والروحية والاجتماعية لسير المصلحين، وقد انعكس ذلك في دراسته أولًا لسيرة أهل البيت عليهم السلام سواءً فيما يطرحه من محاضراته وخطبه أو أبحاثه وكتبه.

وهو إذ يترسّم هذا المنهج ويلتزم به، يجتهد في شرح المفاهيم

الإسلامية ويؤصّل لها تأصيلًا شرعيًّا على ضوء الآيات القرآنية وهدي السيرة النبوية وأهل بيته عليهم السلام، وقد جاءت دراسات الشيخ الصفار لسير العلماء ورجال الفكر والمصلحين ملتزمة بهذا التوجُّه المسكون بهم المعالجات الواقعية لقضايا العصر.

إن تدوين وقراءة تجربة الشخصيات العلمية والفكرية والإصلاحية، بكل مراحلها وأطوارها مليئة بالدروس والعبر، وقادرة على تقديم إجابات مناسبة للكثير من الأسئلة والإشكاليات والاستفسارات، من هنا يؤكد أن «إحياء ذكر العلماء مظهر من مظاهر الإكرام والتقدير لهم، وإعلاء لقيمة العلم ومكانته في النفوس، كما أن قراءة تاريخهم وسيرهم يحفّز للاقتداء بهم في نشاطهم العلمي، ومناقبيتهم الأخلاقية، وتحملهم للمسؤولية تجاه الدين والمجتمع»[1].

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[2].

فالعلماء يُشكِّلون منارات هادية للمجتمع، ويعملون على طريق الدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، بهدف إرشاد الناس للطريق القويم، وتهذيب نفوسهم وتنمية معارفهم وحثَّهم على العمل الصالح.

ويوصي الإمامُ عليٌّ عليه السلام ابنه الحَسَنِ عليه السلام:

«احْتَدِ بِحِذاءِ الصّالِحينَ، واقْتَدِ بآدابِهِم، وسِرْ بِسيْرَتِهم»[3].

(١) حسن بن موسى الصفار، زكاة العلم تأملات في العطاء العلمي والثقافي للشيخ جعفر أبي المكارم، (أطياف للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ)، ص ٥.
(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.
(٣) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٦١.

وقد وصف الإمامُ عليٌّ عليه السلام شِيعَةِ أهْلِ البَيتِ عليهم السلام في قوله:

«مِنْ عَلَامَةِ أحَدِهِم أنْ تَرى لَهُ قُوَّةً في دِينٍ... يقتِدي بِمَن سَلَفَ مِن أهْلِ الخَيرِ قَبلَهُ، فَهو قُدوَةٌ لِمن خَلَفَ مِن طالِبِ البِرِّ بَعَدهُ، أولئِكَ عَمّالُ اللَّهِ، وَمَطايا أمْرِهِ وطاعَتِه، وسُرُجُ أرضِه وَبريَّتِه، أولئِكَ شِيعَتُنا وأحِبَّتُنا، وَمِنّا وَمَعنا، آهًا شَوْقًا إِليهم»[1].

ومن اللافت أن أغلب من تحدّث الشيخ الصفار عن حياتهم وجهودهم الفكرية والإصلاحية في خطبه وكلماته، التي تحوَّلت فيما بعد إلى بحوث نُشرت في مجلات أو طُبعت في كتب[2]، هي شخصيات عايشها الشيخ الصفار عن قرب، واستفاد منها ونهل من علومها، وقد وفّرت له هذه المعايشة الوقوف على الأبعاد العلمية والأخلاقية والسلوكية والعبادية، الأمر الذي أكسب بحوثه عنها نظرة التلميذ شاهد العيان.

وإلى جانب المعايشة، نجد أن الشيخ الصفار يجتهد في قراءة النتاج العلمي والثقافي للشخصية التي يدرس، ويبحث في حياتها ومشروعها النهضوي، ويقدّمها للمستمع/ القارئ زادًا فكريًّا ومعرفيًّا يحفّز على العطاء ويدفع إلى العمل والحركة الفاعلة والإنتاج الواعي، ذلك أن سيرة العلماء المصلحين لا تكون قادرة على تعبئة النفوس وشحذ الهمم إلَّا من خلال

(١) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٦١.

(٢) المشاركات التي قدَّمها الشيخ الصفار في مناسبات الاحتفاء والتأبين والذكرى السنوية لرجال الفكر وأهل العلم كثيرة داخل المملكة وخارجها، إذ لا يكاد يُدعى الشيخ لمناسبة إلَّا ويُلبيها تقديرًا منه لأهل العلم ووفاءً لجهودهم الكبيرة في إرشاد المجتمع وخدمة الدين. وقد شارك -على سبيل المثال في البحرين- في تأبين السيد محمد صالح العدناني (ت ٢٠٠٧م)، والشيخ أحمد العصفور (ت ٢٠١٤م)، كما شارك في فعاليات أسبوع زين الدين الثقافي وغيرها.

أفكارها الخلَّاقة وإبداعها العلمي وتوهُّجها الثقافي الذي يستهدف إصلاح واقع الأمة والارتقاء بها على المستوى المعرفي والاجتماعي.

ومن أجل الإحاطة بكافة الجوانب والأبعاد التي يتمتَّع بها هؤلاء الرُّوَّاد المصلحين نرى أن الشيخ الصفار يحرص -في محاضراته وكتبه- على الاستعانة بمرويات تلامذة هؤلاء المصلحين، ويستعين بشهادة العلماء المعاصرين لهم، تدعيمًا لقيمة معيَّنة يريد التركيز عليها، أو استجلاءً لمفهوم يستهدف الإفاضة في شرحه وتجلية معانيه.

وسنكتفي باستعراض ثلاثة نماذج إصلاحية درسها الشيخ الصفار، سواءً في خطبه ومحاضراته وكلماته أو في أبحاثه وكتبه، من أجل إماطة اللثام عن ملامح المنهج الذي سار عليه سماحته في دراسته لحياة وفكر كل من آية اللَّه الشيخ محمد أمين زين الدين، والمرجع الديني السيد محمد الشيرازي، والإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين.

أولًا: المرجع الديني الشيخ محمد أمين زين الدين:

أثناء زيارته لدمشق في صيف ١٩٩٨م تلقَّى الشيخ الصفار دعوتين للمشاركة في إحياء ذكرى المرجع الديني الشيخ محمد أمين زين الدين (ت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، بمناسبة مرور أربعين يومًا على وفاته. وكتب يقول: «... رأيت نفسي مندفعًا للاستجابة للدعوتين الكريمتين، لأداء بعض الحق والواجب تجاه هذه الشخصية العظيمة، ولحاجة الساحة الإسلامية إلى دراسة حياة هذا الرجل المصلح، وما تنطوي عليه من تجربة إصلاحية رائدة.

وكنت أرقب حياة الشيخ زين الدين من بُعد، عبر القراءة المتكرِّرة لمؤلفاته وكتاباته، وعبر ما أسمعه من تلامذته والقريبين منه، ومن خلال

اهتمامي وتتبُّعي لتطوُّر الثقافة والحركة الإسلامية في المنطقة، حيث وجدت للشيخ فيها دورًا تأسيسيًّا وتجديديًّا هامًّا.

واختزنت في ذاكرتي صورة شفَّافة مرهفة لسماحته حينما تشرَّفت بلقائه في مدينة سيهات - القطيف، خلال إحدى زياراته لها. وكنت في الثانية عشرة من عمري، وقد بدأت ممارسة الخطابة في مجتمعي بتشجيع كبير، نظرًا لحداثة سنى، فدُعيت للخطابة في حسينية الناصر في سيهات، وهناك فوجئت بوجود شيخ وقور يتزاحم الناس على مصافحته ولثم أنامله وتقبيل غُرَّته الكريمة، وقيل لي: إنه الشيخ محمد أمين زين الدين.

حينها لم أكن أعرف شيئًا عن سماحته، ولا أدري كيف تجرَّأتُ على الإلقاء بحضرته، وماذا قرأت. لكنني أتذكَّر أنه غمرني بالكثير الكثير من تشجيعه ولطفه، وأبدى إعجابه بجرأتي وحافظتي على صغر سنِّي آنذاك، ودعا لي بالخير والمستقبل الزاهر. هذا اللطف والاهتمام جذبني إليه، فتكرَّر حضوري لصلاة جمعته وجماعته فترة وجوده في سيهات، كان ذلك في سنة ١٣٨٩هـ تقريبًا. كما زرته في النجف الأشرف أثناء هجرتي للدراسة الدينية من سنة ١٣٩١هـ، وكانت أخلاقه وتواضعه وتشجيعه عنصر انشدادي إليه. ولما قرأته فيما بعد وتفاعلت مع أفكاره الرائعة وأطروحاته التجديدية، وتعرَّفت على شيء من مسيرة حركته وجهاده»[1].

وقد سلّط الشيخ الصفار الضوء على معالم منهج الشيخ زين الدين في العمل الإسلامي المعاصر، مشيرًا إلى أن منهجه يقوم على ركائز أربع تتمثَّل

---

(١) د. عبدالهادي الفضلي وحسن الصفار، الشيخ محمد أمين زين الدين الدور الأدبي والجهاد الإصلاحي، (دار الجديد، بيروت ١٩٩٩)، ص ٧١ - ٧٢.

في: الابتعاد عن التنافس على المواقع، وتجاوز الخلافات والصراعات، والسعي في تربية جيل الإصلاح والتغيير من خلال تنمية القدرات العلمية لطلبته، وتشجيعهم على الانفتاح الفكري والثقافي، وحثّهم على الإنتاج العلمي من خلال الكتابة والخطابة والعمل الاجتماعي.

وتوسّع الشيخ الصفار في الحديث عن التجديد الفكري والثقافي للشيخ زين الدين، مؤكدًا دوره في الانفتاح على الجمهور، وعدم تعاليه أو انكفائه عنهم بالعزلة والاستغراق التام في التعلُّم والتعليم. ثم استعرض جزءًا من أفكار الشيخ زين الدين في الميادين التي كتب فيها من خلال نتاجه الفكري والأدبي.

ثانيًا: المرجع الديني السيد محمد الشيرازي:

يرى الشيخ الصفار أن المرجع الراحل الإمام السيد محمد الشيرازي (ت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) يعدُّ من طليعة المراجع الإصلاحيين إلى جانب الإمام الخميني والإمام السيد محمد باقر الصدر. فهذا المرجع العظيم «مسكونٌ بهمِّ إنقاذ الأمة، عميق التحليل والملاحظة لأسباب تخلُّفها وانحطاطها، دائم التفكير في برامج ومناهج الخلاص والإنقاذ. واهتمامه بـ(الكتاب) تأليفًا وطباعة ونشرًا، إنما هو حلقة من منظومة فكرية، ومفردة من مشروع حضاري»[1].

وقد اقترب الشيخ الصفار من الإمام الشيرازي وعرفه نحو ثلاثين عامًا تقريبًا، يقول: «عايشته بعض الفترات فما جالسته مرة إلَّا وكان يتحدَّث بجديَّة وحماس عن مأساة تخلُّف الأمة، وضرورة التحرُّك السريع والعمل الدائم من

(١) حسن موسى الصفار، الإمام الشيرازي ملامح الشخصية وسمات الفكر، ص ١٤.

أجل إنهاضها وإنقاذها. بل وحتى خلال المحادثات الهاتفية طالما أصغيت إلى توجيهاته ووصاياه في التذكير بالمسؤولية تجاه قضايا الإسلام والمسلمين».

ويضيف: إن الإمام الشيرازي حتى حينما يكتب أبحاثًا في الفلسفة أو الأصول أو الفقه، «فإنه يتحيّن الفرصة أثناء الموضوع لطرح هموم الأمـة، وقضايا الرسالة. وفي توجيهه للكتابة والتأليف يدعو المفكّرين والكتَّاب إلى التركيز على معالجة مشاكل الواقع المعيش للأمة، وجذور التخلُّف والانحطاط الذي تعانيه، ومن ثم تناول أساليب العلاج وطرق الخلاص»[1].

وقد تناول مجموعة من العوامل التي كان لها كبير الأثر في تكوين شخصية الإمام، وهي العائلة، وواقع الأمة وتعدُّد مجالات العطاء، والحالة الدينية، وعطاء الإمام حتى الساعات الأخيرة من حياته.

وتحت عنوان: «سمات الفكر» تناول سماحته سمات فكر الإمام التي تمثَّلت في الأصالة، والتي عنى بها: ارتباطه بالمصادر الإسلامية الأصلية، والانفتاح، حيث تميَّز الإمام الراحل بالانفتاح على الواقع المعاصر بكل تنوُّعاته، والاهتمام بالبرمجة، فقد كان سماحة السيد قدس سره متميِّزًا في تحويل أفكاره ونظرياته إلى برامج.

وتحت عنوان: «ملامح الشخصية» جاء الفصل الأخير ليبحث في الأبعاد الموجودة في شخصية الإمام الراحل قدس سره، مبيِّنًا علمه وجهاده، والبعد الأخلاقي، والطموح وعلو الهمة، وشجاعة الرأي والموقف، وتواصله مع الجمهور، وتربية الكفاءات العملية، والتثقيف والتوعية الجماهيرية، والعمل المؤسساتي.

(١) المصدر نفسه، ص ١٥.

ثالثًا: الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

شكّل المشروع الإصلاحي للشيخ محمد مهدي شمس الدين (ت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) نموذجًا فريدًا حظي بتقدير الأوساط الدينية في العالم الإسلامي، فالشيخ شمس الدين خرِّيج حوزة النجف ذات الماضي العلمي العريق، وكان وكيلًا للمرجع الشيعي الأعلى في وقته السيد محسن الحكيم على منطقة الفرات الأوسط بالعراق في الفترة ٦١ - ١٩٦٩م. عاد إلى لبنان عام ١٩٦٩م ليشارك الإمام موسى الصدر في تأسيس «المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى» الذي ترأَّسه بدءًا من سنة ١٩٧٨ لحين وفاته في العام ٢٠٠١م.

وقد درس الشيخ الصفار تجربة الشيخ شمس الدين، كأحد الرُّوَّاد المصلحين والمجتهدين المجدّدين، وقدَّم عنه دراسة بعنوان: «الاجتهاد والجهاد في فكر الشيخ محمد مهدي شمس الدين»، نشرت في العدد الثلاثين من مجلة الكلمة الفصلية.

درس الشيخ الصفار في بحثه مكوِّنات شخصية شمس الدين العلمية، وقدَّم وصفًا لمدرسة الاجتهادية، ثم عرض لنهجه في الإصلاح والجهاد، وشدَّد على أهمية الجهاد في حياة الشيخ شمس الدين، عارضًا لجانب من جهاده العلمي. يقول الشيخ الصفار: «قد يتعاطى عالم الدين مع الشأن العلمي ضمن الحدود المتداولة المألوفة، فيدرس ويدرّس ويُفتى للناس ويُعلِّمهم الأحكام، ويكتب بعض المؤلفات والأبحاث، كل ذلك في إطار حياة اعتيادية طبيعية، أما العالم المجاهد فهو الذي يشمّر عن ساعديه، ويُعلن حالة الطوارئ الدائمة في حياته، ويتعاطى مع الشأن العلمي كميدان جهاد،

يبذل فيه كل جهد وطاقة، ويتحمَّل المصاعب والمشاق، في سبيل خدمة الدين والأمة على الصعيد العلمي.

والشيخ شمس الدين مثلٌ رائع معاصر لهذا الصنف من العلماء المجاهدين، فإبداعاته وابتكاراته العلمية تدلُّ على نشاطه الفكري الدائم، ونوعية الأبحاث العلمية التي أنجزها مؤشِّر على اهتمامه بالتحدِّيات الخطيرة التي يواجهها الإسلام والأمة. فهناك مسائل وقضايا حسَّاسة يُحذِّر الكثيرون من العلماء من خوضها وتناولها بالبحث والتحقيق، لأنها تستلزم جهدًا كبيرًا بسبب قلَّة الطارقين والمتعرِّضين لها، ولأن نتائج البحث فيها قد تكون مخالفة للسائد والمشهور»[1]. ومن المواضيع الفقهية المبتكرة التي درسها (أهلية المرأة لتولِّي السلطة)، و(نظام الحكم والإدارة في الإسلام)، وكتاب (جهاد الأمة).

غير أن التأثير السياسي الأعمق الذي تركه الشيخ شمس الدين المبني على تأصيل فقهي انتهى إليه، هو موقفه التاريخي ودعوته الشجاعة في عدم استئثار الشيعة في أوطانهم بمشاريع سياسية خاصة، وهي دعوة سمعتها منه (قدس اللَّه روحه) غير مرَّة في أكثر من جلسة جمعتني به أثناء دراستي الأكاديمية في بيروت، وردّدها في كتبه وخطبه ومشاركاته الدولية، وقد ذكرها في وصاياه قبل بضعة أيام من رحيله بقوله:

«أوصي أبنائي وإخواني الشيعة الإمامية في كل وطن من أوطانهم، وفي كل مجتمع من مجتمعاتهم، أن يدمجوا أنفسهم في أقوامهم وفي مجتمعاتهم

---

(١) الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الوصايا، (دار النهار للنشر، بيروت ٢٠٠٨)، ص ١٥.

وفي أوطانهم، وأَلَّا يُميِّزوا أنفسهم بأيِّ تمييز خاص، وأَلَّا يخترعوا لأنفسهم مشروعًا خاصًّا يُميِّزهم عن غيرهم؛ لأن المبدأ الأساس في الإسلام -وهو المبدأ الذي أقرَّه أهل البيت المعصومون عليهم السلام- هو وحدة الأمة، التي تلازم وحدة المصلحة؛ ووحدة الأمة تقتضي الاندماج وعدم التمايز»[1].

لم تكن دراسة الشيخ حسن الصفار لحياة وأفكار الرُّوَّاد والمصلحين إذن مفصولةٌ عن منهجه في العمل الإسلامي الذي اختطّه لنفسه لأكثر من خمسين عامًا سواءً في سنوات الاغتراب الطويلة أو في وطنه، وإنما كان لا بد لشخصية لها وزنها الديني ورؤاها الطموحة أن تستوعب كل جهود الإصلاح والتغيير التي سبقتها، للإفادة منها في عملها والاستنارة بعناصر القوة في كل تجربة، وتفادي ما يمكن أن يُعدَّ أخطاء أو معوِّقات قد تعترض مشاريع العمل الديني.

خاتمة:

يمكن القول ممَّا عرضنا له: إن الشيخ الصفار استفاد من المشاريع الفكرية والإصلاحية لهؤلاء الرُّوَّاد، وكان لكلِّ واحدٍ منها أثرهُ البيّن والكبير في مسيرة عمل الشيخ الصفار التبليغية والدينية، وانعكست على جوانب تجربته في العمل الإسلامي، ولعلَّنا نرصد تأثُّره الكبير بالشيخ محمد أمين زين الدين في أبويَّته الحانية للحالة الدينية، وحضوره الكثيف في ميادين العمل الاجتماعي، وبُعده عن المناكفات والتزاحم على المواقع.

فيما نرصد أجلى ملامح التأثُّر بشخصية المرجع الديني السيد محمد الشيرازي في انكبابه على الإنتاج العلمي والتأليف في مختلف ميادين العلم

(١) الشيخ حسن الصفار، «الاجتهاد والجهاد في فكر الشيخ محمد مهدي شمس الدين»، مجلة الكلمة، العدد ٣٠، السنة الثامنة، شتاء ٢٠٠١م/ ١٤٢١هـ، ص ٩.

والمعرفة، منطلقًا من تقدير مدى الحاجة لهذا التنوُّع الذي يثري المكتبة الإسلامية، ويُقدِّم الزاد الروحي والفكري للجيل الشباب، ويعمل على تعزيز انتمائهم للدين، ويرسخ هويتهم العقائدية، من خلال التوجيه والدعوة لبناء المؤسسات الإسلامية.

أما التأثير الذي تركه فكر الشيخ شمس الدين فنجد أثره الواضح في منهجية الاعتدال والتعايش عند الشيخ الصفار في مجتمع متنوِّع، وفي مجابهة الأفكار المطرِّفة التي تعمل على صهر الشيعة في كانتونات فكرية واجتماعية تفصلهم عن شركائهم في الوطن، وفي الدعوة إلى الانفتاح الفاعل على القيادة السياسية والتعاون معها في إطار شراكة وطنية تحترم التعدُّدية، وتضع مصلحة الأمة وسلامة العيش الآمن والمشترك فوق كل اعتبار.

إن موضوع الإصلاح الديني وتجارب المصلحين الدينية واحد من أبرز المواضيع التي شغلت سماحة الشيخ حسن الصفار، وهي تُمثِّل بُعدًا واحدًا من أبعاد من مشروعه التغييري وميدان من ميادين حركته العلمية والفكرية.

ومن المناسب في ختام هذا المداخلة القصيرة أن نطلق دعوة للباحثين والمهتمِّين لتسليط الضوء على الأبعاد الثقافية الأخرى لمشروع الشيخ الصفار الحضاري، رجاء المساهمة في تحقيق جزء من التطلُّعات التي نذر المصلحون وزعماء الفكر الديني في كل زمان ومكان أنفسهم وأعمارهم لها في سبيل خير البشرية.

والحمد للَّه رب العالمين...

الشيخ الصفار وعبور الحقول

الدكتور عبدالهادي عبدالحميد الصالح[1]

تحوُّل جديد بدأ يشقُّ مجراه في تكريم الشخصيات التي لا تتوانى في الخدمة المجتمعية في حقوله المتعدِّدة، تكريم أثناء تواجدها في دنيا الحياة، بعد أن كانت ولا تزال مناسبات التكريم تقام في حفلات التأبين للمكرم المتواجد في قبره تحت الثرى! صحيح أن التكريم حالة رمزية تستهدف كذلك تكريس القيم الجميلة، والمآثر والأمجاد في المجتمع، وتمثّل توثيقًا لإرث ومآثر الشخصيات العظيمة، كخطوة في طريق تطوُّر وتكامل الإنسان، لكن الإنسان بطبيعته يحتاج الى التشجيع والمؤازرة والتأييد، ولذلك جاء الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الناس عند اللَّه منزلةً وأقربهم من اللَّه وسيلةً، المُحسن يكفِّر إحسانه»[2]. وفي هذا الإطار يقول الإمام أمير المؤمنين عليه

(١) وزير سابق في الحكومة الكويتية، ومؤلف وكاتب في الصحافة الكويتية.
(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص٤٤.

السلام: «إنَّ مكرمة صنعتها إلى أحد من الناس، إنما أكرمتَ بها نفسك، وزيَّنتَ بها عِرضَك، فلا تطلب من غيرك شكر ما صنعت إلى نفسك»[1].

وعن الإمام علي زين العابدين عليه السلام قال: «يقول اللَّه تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتُك يا رب، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره». وفي ذلك يقول الإمام علي الرضا عليه السلام: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر اللَّه عزَّ وجلَّ»[2].

ويُعلِّمنا الإمام زين العابدين عليه السلام كيف نشكر ذا المعروف علينا، فيقول: «أما حقُّ ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه، وتُكسبه المقالة الحسنة، وتُخلص له الدعاء فيما بينك وبين اللَّه عزّ وجلَّ، فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرّاً وعلانيةً، ثم إن قدرت على مكافأته يوماً كافيته»[3]. ويقول عليه السلام: «أَشْكَركم للَّه أَشْكَركم للناس»[4][5].

ولذلك نُثمِّن هذه الجهود في استقطاب الكتَّاب والمفكّرين، لاحتفالية تكريم سماحة العلَّامة الجليل الشيخ حسن الصفار حفظه اللَّه وأطال في عمره الشريف، فإن ذلك تكريم للعلم وللعلماء الذين أجادوا في عطائهم للأمة الإسلام، وأثروا تراثها الأدبي والعلمي والاجتماعي والتربوي والإعلامي، وشقُّوا طريق الحوار البنَّاء بين الاتجهات الإنسانية المتنوِّعة، وعبر منصات الخطابة والكتابة والحوار المباشر والتعايش السلمي بين الأطراف المختلفة فكرًا ومنهجًا.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٤٠.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ٢٤/ ٢.
(٣) الخصال: ٥٦٨.
(٤) كنز العمال: ٦٤٧٨.
(٥) انظر: شبكة النبأ المعلوماتية – موقع آية اللَّه العظمى السيد محمد الشيرازي.

ويشرفني بشخصي المتواضع أن أساهم بهذه البضاعة المزجاة، شاكرًا لهم هذه الفرصة الطيبة.

****

نحن في الكويت، عرفنا الشيخ الصفار -حفظه اللَّه تعالى- من أيام السبعينات عندما كان فتى صغيرًا، حتى سُمِّي في الأوساط الشعبية بـ«الملا الصغير» لتعجُّب الناس من قدرته وتمكُّنه من قراءة المجلس من على المنبر الحسيني باقتدار، وقد أبهر الجمهور بخطابه المفوَّه، وأسلوبه المُشوِّق وبنعيه الحسيني المثير للبكاء على سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وكان حدثاً جديداً ومبهراً، وقد تبنَّاه باهتمام مجموعة من الوجهاء (أذكر منهم المرحوم الحاج محمد السلمان الصايغ) الذين كان تحت رعايتهم وإدارتهم في تنظيم وترتيب حجز مواعيد القراءة بين مجموعات من الحسينيات التي تنافست بينها للاستحواذ لقراءة الملا الصغير من على منبرها الحسيني. ولم يكن في وقتها يلبس العمامة، بل يكتفي بغترة بيضاء بدون «عقال» مع عباءة البشت يلفُّ بها نفسه محاكاة للخطباء الحسينيين.

****

تتميَّز أطروحات سماحة شيخنا الصفار بالواقعية، فهو لا يُحلِّق في أجواء النظريات، ولا ينظر في عالم المثاليات، وإنما أطروحاته تنطلق من الهدي الإلهي المتمثّل في كتاب اللَّه (القرآن الكريم)، وسُنَّة رسوله وآله الأطهار، ليُسقطها على أرض الواقع بلا تكلُّف، حيث معاناة الناس اليومية، وما يواجهه المثقّفون والتربويون من تحدِّيات، ويتجاوب مع ما يلمُّ الشمل الوطني، وضرورة التعايش بين مكوّنات المجتمع، فالاختلاف بينهم يُفسِّره

بإيجابية كتنوُّع إنساني، وتعدُّد يحتضنه الدين، ويستوعبه الوطن. ولذلك أطروحاته وإن انطلقت من وطنه في المملكة العربية السعودية، لكن صداها يتَّسع الى العالمية؛ لأنها تخاطب الإنسان أينما كان، وأيّاً كان فكره. مثلما يخاطب الإسلام الإنسانية أينما وجدت وكيفما كانت.

هكذا سماحة الشيخ حسن الصفار، سواء في كلمات خطبه الشيِّقة من محراب المسجد أو منبر الحسينية، أو محاضرة ودرس، أو من خلال كتاباته لمؤلَّفاته الكثيرة والتي زادت عن ٦٠ عنوانًا، يخاطب الجميع بلغة سهلة مفهومة بعيدًا عن تعقيدات التشدُّق والمصطلحات النادرة!

****

لم يكتفِ سماحة الشيخ الصفار بالبعد الثقافي والتوعوي من خلال الأقوال والكتابة، وإنما مارس ذلك من خلال علاقاته الوطيدة مع مختلف الناس بتنوُّع مذاهبهم الدينية واتّجاهاتهم الاجتماعية.

فقد دعيت بدعوة كريمة من سماحته في إحدى السنوات إلى منتدى اجتماعي ثقافي في القطيف، وفوجئت بحضور جمع متنوُّع من الشخصيات الثقافية والدينية، تُمثِّل النسيج السعودي، وهم في حوار وُدِّي جميل، وقد تحدَّثت في هذا الجمع الطيب، وعبَّرت عن إعجابي بهذا التنوُّع ممَّا كنا ولا نزال نطمح إليه في بلادنا دولة الكويت، من الجمع بين الأطياف الدينية المختلفة، ونحن بلد الديمقراطية.

أعتقد للشيخ الصفار لديه كاريزما خاصة، وهبها اللَّه تعالى له، استطاع من خلالها الدخول إلى قلوب هؤلاء الناس واستمالهم الى حوار وطني يعضد حوار الأديان والتي سبق أن دعت إليه المملكة العربية السعودية.

ولذلك كان خطابه يتَّسم بالدعوة الى التعايش الاجتماعي، وإلى التفاهم الوطني بين مختلف الأطراف.

وهذا العمل المبارك لم يحصره فقط في بلاده، فقد تعدَّاه إلى بلاد المسلمين في العالم، فلذلك فهو محل لدعوات محبيه في كل مكان ليشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويتفاعل مع منتدياتهم الثقافية.

فقد وجدته مُطَّلعًا على الأوضاع الاجتماعية والثقافية في الكويت، ويساهم كلما أمكن في معالجة المعضلات التي تمسُّ جسد إخوانه المؤمنين. وهو يتابع الإصدارات والمؤلفات للكتَّاب، ولقد تشرَّفت بمتابعته وإطرائه لبعض مؤلفاتي المتواضعة، وهي شهادات تشجيعية نعتز بها.

وهكذا كان مواكبًا لمشروع (الوقف الجعفري) الكويتي منذ بداية المشاورات الشعبية لبلورة المشروع وفقًا لأحكام الفقه الجعفري، وبالتشاور مع بعض العلماء، ثم موافقة الحكومة الكويتية عام ٢٠٠٣ م، وقد كان سماحة الشيخ حسن الصفار ضيفًا عدَّة مرات في الملتقى الوقفي الجعفري الذي ينعقد مرة كل سنتين، ومن ذلك الملتقى الأول عام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

وقد شارك بورقة علمية وواقعية مميَّزة، نالت الاهتمام والإعجاب، تحت عنوان: «الأوقاف.. وتطوير الاستفادة منها».

كما أنه يحلُّ ضيفًا عزيزًا مرتقياً مجدَّدًا المنابر الحسينية في بلدنا الكويت، ومن ذلك تلبية دعوات الحسينية الكاظمية (البكاي)، خلال موسم صفر ليلقي محاضراته الشيِّقة على جمهوره العريض، مستثمرًا وجوده للالتقاء بإخوانه العلماء والمثقّفين والوجهاء، وتبادل الآراء بما يفيد البلاد والعباد.

وهكذا كان ديدنه تشجيع المبادرات والإنجازات التي تصبُّ في الارتقاء في العلاقات الاجتماعية والعلمية، وغالبًا يستجيب مشكورًا للمشاركة بآرائه الحصيفة التي تدعم مصلحة الإسلام والمسلمين أينما كانوا، وكلما كانت الظروف مؤاتية.

****

هذه المجهودات الطيبة والأنشطة الفعَّالة لم يجعلها سماحة الشيخ الصفار حبيسة شخصه الكريم، كتجارب حياتية، ربما تنقضي مع الأيام، إلَّا ما تسعفه ذاكرة وتفاعل الأفراد، وهي على وجاهتها، غير كافية ومعرَّضة للنسيان أو التحريف ولو بنوايا صادقة ترتجي الأمانة في النقل، ولذلك اتَّجه الشيخ الصفار إلى تدوين هذه المجهودات على شكل كتب تُدوَّن فيها تفاصيل الموضوعات التي تعرَّض لها، ولها الطابع العلمي في ترتيب الأفكار ومرجعياتها، ولذلك أتحف سماحة الشيخ المكتبة الإسلامية بسيل من الكتب بعناوين مختلفة تناولت القضايا الوطنية والاجتماعية والأسرية والفقهية وشؤون الشباب... إلخ، وتتصف بالواقعية -كما قلنا-، وتعطي حلولًا ومعالجات ناجعة.

ودعَّم هذه المؤلفات، بتثبيت موقع إلكتروني يُوثِّق فيه جميع أنشطته العلمية والاجتماعية بالصوت والصورة والكلمة والفيديو، كمنصة يتفاعل معها الجميع في كل وقت وأينما كانوا وأيًّا كانت الظروف.

****

بهذه الجهود أعتقد أن سماحة الشيخ الصفار قطع شوطًا بعيدًا في ترسيخ مفهوم المواطنة الذي لا ينسلخ عن دينه الإسلامي، وبالعكس كذلك

الهوية الإسلامية التي لا تنسلخ عن الانتماء والإخلاص لوطنه، بل التديُّن الذي يكرّس في النفوس الورع والتقوى والأمانة، وهي من أهم ضمانات حفظ الوطن في ميثاقه الأساسي ونظامه العام، وفي أمواله وأراضيه، ومواطنيه، وإن اختلف مع بعضهم اختلافًا عقائديًّا أو في الآراء المدنية، فهي تدخل في مفهوم التعدُّدية الإيجابية، التي تُضفي الحيوية والنشاط الفكري والثقافي، تعدُّدية تمثّل نسيجًا متعدِّد الألوان يجمع الناس ولا يُفرِّقهم، يُوحِّد المجتمع ولا يُمزِّقه.

نسأل اللَّه تعالى أن يمدَّ في عمر سماحة الشيخ حسن الصفار، ويُوفِّقه وأمثاله من المخلصين لدينهم وأمتهم، للمزيد من التوفيقات في خدمة الإسلام والمسلمين، إنه سميع مجيب.

د. عبدالهادي عبدالحميد الصالح

دولة الكويت. ١٢/ ١٢/ ٢٠٢١م

العلّامة الصفار
بين ثبات المبدأ وحيويّة المنهج

الدكتور السيد محمد زكي العوامي[1]

إنّ حديثي عن سماحة الشّيخ حسن الصفّار لن يخلو من الجانب الشّخصي، فلا يحلو لي أن أقدّم دراسة عن الشّيخ في جانب من الجوانب دونما أن أُطعّم ذلك بموقفٍ من هنا أو حدثٍ من هناك، ولا سيّما أنّ هذا المقال يندرج تحت كتابٍ نسجّل فيه شهاداتنا للتاريخ على شخصيّة محوريّة في مسيرة الوطن قرّبت المسافات بين أبنائه، وأعطت صورة مُشرقة عن منطقة بأسرها وعن مدرسة دينيّة تنتمي لها.

كانت بداياتي معه بعد عودته للمملكة في منتصف التسعينات الميلاديّة، في وقتٍ يُعدُّ بالنّسبة لي مرحلة تفتّق وعيٍ اجتماعي وانبثاقٍ لأسئلة تتحدّى واقعنا الدّيني والاجتماعي لم أجد لها أجوبةً مقنعةً عند التيّار الدّيني

(١) استشاري طب وقسطرة القلب في مستشفى مانشستر الجامعي - بريطانيا،، وكاتب - القطيف.

التقليدي. لقد جاء الشّيخ ببُنْية خطاب مغايرة وبحديثٍ مفعمٍ بالمفاهيم التي لم نكن نسمعها من رجال الدّين قبله، عندما كانت القراءة الحسينيّة بشكل عام في أغلبها أحاديث عاطفيّة ونَعْياً في أولها وآخرها مع بعض الاستعراض التاريخي في وسطها. لقد رأيت في خطاب الشّيخ منذ ذلك الحين أنّ الدّين ليس في تلك الإطارات الطّائفية والسّجالات المذهبيّة والأحاديث الخرافيّة، بل إنّه ما جاء إلا لإثارة دفائن العقول ووضع مرجعيّة أخلاقيّة وإحداث طمأنينة نفسيّة تكون عوناً للمرء في حياته، لا أن يكون عبئاً يكبّل مُعتنقه فهو لا يقدر على النّهوض في دنياه ما دام قريباً منه.

علاوة على إيمان الشّيخ والتزامه بالقيم الإسلاميّة العامّة قولاً وفعلاً، فقد آمن بمبادئ راقيةٍ انطلق منها فشكّلت عنوان شخصيّته وعلامة تميّزه، ولم يكن تمسّكه بتلك المبادئ بشكل جامدٍ لا يقبل فيها الحوار والمراجعة، بل قدّم فيها قراءةً تليق بظروف الزمان والمكان اللّذَيْن يعيش فيهما، فمثلاً إيمانه بمبدأ التعايش ليس مبنيّاً على قراءات الأسلاف وسيرهم والتي قد لا تخلو من إشكال بمقاييس العصر الحديث، بل على قراءة إسلاميّةٍ عصريّة تعطي الإنسان قيمة بكونه إنسانًا، وأنّ هذا الوطن الذي يتشارك فيه أبناؤه لا بدّ أن تكون علاقاتهم فيه مبنيّة على السّلم وأن تُكفل حقوقهم بغضّ النّظر عن انتماءاتهم الدّينية والقبليّة والمناطقية. وسأحاول فيما يلي استعراض بعضٍ من مبادئ الشّيخ وتطبيقه لها بعد معالجته لها حسب مقتضيات عصره.

حاز بحث الثابت والمتحول في المسائل الدينية اهتماماً كبيراً لدى الشّيخ، وقد ألّف فيه كتاباً وأفرد له ندوة كاملةً في إحدى زياراته للعراق والأخيرة قد لاقت رواجاً إعلاميّاً واسعاً، ولا يخفى على أحدٍ أهميّة هذا الباب الذي يُفتح عبره طريق الاجتهاد والتّجديد. يشير الشّيخ في كتابه (الثّابت

والمتغيّر في الأحكام الشّرعية) إلى الفرق بين أحكام الإسلام التّشريعيّة من جهة والتّدبيرية من جهة أخرى، وأنّ الأولى يصدق عليها عنوان الثّابت أمّا الأخرى فمتغيّرة بتغيّر الظّروف المحيطة بها، ويضرب بذلك الأمثلة التي تؤكّد أنّ الكثير من الأحداث التي اتّخذ فيها النّبي محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- موقفاً وأصدر عليها أحكاماً إنّما كانت في سياقٍ معيّن لا يصحّ إخراجها منه واتّخاذها كما هي دستوراً في كلّ زمان ومكان، وإلّا لما جاء الأئمّة والعلماء لاحقاً بآراءٍ مغايرة تبدو في ظاهرها مناقضة لقول النّبي وفعله، والأمثلة في ذلك كثيرة يمكن الرّجوع فيها للكتاب المذكور.

لمستُ عند الشّيخ توجّهاً عميقاً في تجديد الفكر الدّيني منطلقاً من أنّ ثمّة متغيّراً يوجب على أبناء كلّ عصر تقديم قراءة تناسب مقتضيات حياتهم، وكأنّه بذلك ينفي أن ليس بالإمكان أبدع ممّا كان، ويرفض أن يكون مجرّد مجترٍّ لعلوم من سبقه. فهو نفسه قد قال لي بضرورة أن تكون هناك مراكز للدّراسات الدّينيّة فيها متخصّصون عدّة في مجالات مختلفة كالفقه والتّاريخ والتّفسير وغيرها من العلوم بحيث تُدرس الأمور فيها من جوانب عدّة وتُصدر على أثرها الآراء حتّى تكون الأحكام العمليّة أصوب وأقرب للواقع ولمقاصد التّشريع. إنّ رؤى الشّيخ هذه مصحوبةً مع التأمّل في مسيرة العلوم الطّبيعية وأدواتها قد رسّخت قناعة لديّ بضرورة التّجديد في طرق الحوزات العلميّة وهيكلة نظامها، وأنّ الحوزة لا بدّ أن تكون مؤسّسة متكاملة تجمع مختلف المتخصّصين الذين يناقشون بحوثهم في جلساتٍ علميّة وعليها تُصدر الآراء والتّوصيات، لا أن تدور الحوزة في أفلاك الأفراد والتحزّبات داخل الطّائفة الواحدة بنفس الطّريقة ونفس المناهج التي دأب عليها السّلف.

إنّ حيويّة منهج الشّيخ قد جعلت من أفكاره ورؤاه تتخطّى كلّ الحدود،

فقد رفض الجمود والانغلاق فلا تراه يتحدّث إلا بالمنظور الإسلامي الواسع وبالحسّ الإنساني الأوسع، لقد ارتقى بمستوى الخطابة الدّينية في وطننا إلى مستوى عالٍ، فلا تراه يُلقي الكلامَ على عواهنه دون دليل، بل يوثّق ما يذكره ويناقش الأدلّة، ولا تجده ينتصر لرأي أو موقف لأبناء مذهبه بشكل أعمى على طريقة المتعصّبين كما قال الشّاعر «ومَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّة إِنْ غَوَتْ... غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّة أَرْشُدِ». كانت تلك من ضمن أهمِّ الأسباب التي اجتذبت جيل الشّباب المتعطّش لخطاب ديني عقلاني إلى منبره، وتوسّعت الدّائرة فقد شملت المنتمين لكافّة المدارس الدينيّة من المواطنين والمقيمين في داخل محافظة القطيف وخارجها الذين سجّلوا حضورهم وتفاعلهم مع محاضرات الشّيخ في موسم المحرّم. هذا وقد حضرتُ ندوتين له في جدّة قبل أكثر من خمسة عشر عاماً وشهدت تفاعلاً إيجابيّاً مع أطروحاته من أبناء المدارس الدّينية المختلفة أذكر فيها ارتياح مجموعة من الشّباب إلى خطابه وإبداء تعجّبهم من عمق الفكر وسعة الثّقافة وانفتاح المعرفة لشيخٍ ينتمي لمدرسة لا يعرفون عنها إلا صورة نمطيةً تتمثل بطقوسٍ معيّنة وبالنّيل من مقدّساتهم، وفي ختام إحدى الندوتين طلب أولئك كتب الشّيخ كي يتعرفوا أكثر على فكره ورؤاه.

وإلى سلطنة عمان حيث كنت في زيارة برفقة الأخ الأستاذ ميثم الفردان ابن أخت الشّيخ عام ٢٠٠٥م وفيها التقينا بعض معارف الشّيخ القدامى حيث قضى فيها بداية نشاطه الدّيني، وقد رووا لنا تجرِبتهم معه وتأثّرهم بانفتاح فكره وتنوّع مشارب ثقافته مع محافظته على ما عدّوه ثوابتاً في الدّين. صحيح أنّ منهم من اختلف معه في شؤون المرجعيّة خاصّة والتي كانت على صفيح ساخن تلك الأيّام ولكن يكاد يجمع القوم على حسن تأثيره في جيل الشّباب

أيام السبعينات الميلاديّة وثنائهم على البرامج الثّقافيّة التي شكّلت حركةً فكريّة تجديدية بثّت الوعي لديهم في مرحلة مهمّة من حياتهم.

وفي وقت غير بعيد عن كتابة هذه السطور شرّفنا سماحة الشّيخ بزيارة إلى المملكة المتّحدة حيث أقيم، وقد حظيت فيها بمرافقته في عددٍ من المناسبات كان الشّيخ فيها مصداقاً لهذا العنوان الذي يدور حوله محور حديثنا، فهو لا يتخلّى عمّا يعدّه ثابتاً ولا يجمد على ما يحتمل التجديد وهذا الأخير مجاله أكبر وأُفُقُه أوسع. أتذكّر كيف أنّه انتقد بعض ممارسات وأفكار بعض المسلمين في الغرب والتي ترسّخ الحالة الطّائفية وتزيد المجتمع انقساماً في حينٍ هو أحوج فيه إلى بثّ حالة من السّلم ليتعايش أفراده بوئام، ولا سيّما إذا كان التنوّع بهذا الشّكل المنقطع النّظير في مدنٍ مثل لندن أو مانشستر، فهو يرى أنّ المسلمين أولى من غيرهم في بثّ ثقافة التّسامح مع نظرائهم في الإنسانيّة وأجدر في البعد عمّا قد يؤذي مشاعر أحد من الخلق، وأنّ المسلم لا ينبغي له أن يخاصم بدينه النّاس سواء أكانت هذه الخصومة بالقطيعة أو الممارسات العنصريّة أو حتى رفع الشّعارات التي يتحسّس منها الآخرون. وقد يجد البعض أنّ من المفارقة أن يكون رجل الدّين الآتي من الشّرق الأوسط هو من يعطي مثل هذه الدّروس لإخوانه الذين عاشوا عقوداً مغتربين عن ديارهم في بلدٍ معروفٍ بالتنّوع والانفتاح منذ قديم الزّمان.

وبغضّ النّظر سواءً أتّفقتَ معه في أمر أم اختلفت فإنّ لأدب الاختلاف في قاموس الشّيخ مكانة مميّزة يترجمها واقع عمليٌّ يشهد به الكثيرون، إنّ من المشهور عنه كثرة المؤلّفات والمحاضرات في هذا الجانب منها على سبيل المثال لا الحصر كتابَي (كيف نقرأ الآخر) و(التّسامح وثقافة الاختلاف)، وهي كتبٌ ذات أفكارٍ جميلة ولكن الأجمل من ذلك في وجهة نظري أنّ الشيخ لا

يقول ما لا يفعل، وأنّ خطابه العام في توافق مع خطابه في المجالس الخاصّة وانسجامٍ مع أفعاله وتعاملاته مع القريب أو البعيد. ولم أرَ منه يوماً رغم قوة حجّته وبليغ بيانه وفنّه في أساليب الحوار والمناظرة أنّه يوحي للمختلف معه أنّه «بابُ اللَّه وانقطع الخطاب» أو أنّ الرادّ عليه كالرادِّ على اللَّه، بل طالما وجد في الاختلافات سبيلاً لمراجعة قناعاته ومواقفه، وقد حدث بيننا غير مرّة أن بدّل رأياً بعد الاطّلاع على جوانب تتعلّق بالصحّة والطّب ربما لم يكن قد اطّلع عليها من قبل أو قد سمع من خبير آخر خلافها فعمل على ترجيح أحد الرأيين بناءً على تجدّد المعطيات ورجحان الأدلّة، ولست أشكّ أنّه يستخدم نفس هذا المنهج فيما يتعلّق بالآراء الدّينية والأعراف الاجتماعية.

إذن فحيويّة المنهج هذه تتطلّب المراجعة والنّقد كلما تجدّدت الأمور والظّروف المحيطة بها، ولو أردنا أن نعرف رأي سماحته في هذا المجال أعود بكم إلى ندوة (نقد الذّات) التي أقمناها في مدينة أوكلاند بنيوزيلندا عام ٢٠١٦م والتي حلّ فيها الشّيخ ضيفاً عبر وسائل التّواصل من بُعد، وقد نُشرت تقارير هذه النّدوة على موقعه وفي كتابي المنشور حديثاً (منتدى أوكلاند الثّقافي...رسائل هموم الغربة ووعي الحياة). قال الشّيخ في خضمِّ حديثه: « إنّ موضوع النقد والمراجعة يلامس ضرورةً، ويلبّي حاجةً، ويعالج إشكالات في أذهان وسلوكيّات شريحة كبيرة من أبناء المجتمع، وهو أمرٌ ضروري في كل المجالات والمجال الديني ليس مستثنًى من النّقد والمراجعة، قد يظنّ بعض النّاس أنّ الدين لا يُعنى إلا بالثّابت والمطلق من الأمور فلذلك يكون الدين منطقةً محظورةً على النّقد، ولكن الحقيقة أنّ الثابت من أمور الدين لا يحتلّ إلا مساحةً محدودةً جدّاً إذا ما قورنت بمساحة المتبدّل من الأمور. إنّ هناك ثوابتاً في المعتقدات كالإيمان بالله وبالنّبي ﷺ وبالآخرة،

ولكنّ تفاصيل هذه المعتقدات وجزئيّاتها وما ينبثق منها من أفكار ومعتقدات وممارسات كلها تفاصيل قابلة للأخذ والردّ والبحث». وفي الجانب الآخر لو نظرنا للأحكام الفقهية، ينقل الشيخ الصفّار أنّ العلماء يُقدّرون أنّ المسائل الفقهيّة الثّابتة أي الضروريّة والقطعيّة لا تزيد مساحتها عن ٥-٦٪ من مجموع الأحكام، وما سواها قابلٌ للمراجعة قد تختلف بين المجتهدين وتتبدّل عبر الأزمنة. ولا يجد الشّيخ حرجاً في أن تكون عمليّة النقد والمراجعة بشكل واسع خارج الدّوائر المغلقة ويعترف أن لا توجد في حوزاتنا الدّينية آليّة ومنهجيّة واضحة للنّقد داخل المؤسسة، وبالتالي فإنّ الخوف من المراجعة العلنيّة الواسعة يعني تعطيل النّقد.

في تلك النّدوة كان هناك تنوّع في الحضور من الجالية العربيّة المقيمة في نيوزيلندا، ولعلّ مِن ذلك الحضور مَن لم يطّلع من قبل على فكر الشّيخ وشجاعة طرحه فانبهر بما سمع خاصّة وأنّ الصورة النمطيّة للمدارس الدينيّة في أذهان النّاس -ولا سيّما المقيمين في الغرب منهم- أنّ هذه المدارس لا تقبل النّقد والرّد وترفض مراجعة أغلب الأمور باعتبار أنّ المسلّمات والثّوابت منها هي الأغلبيّة السّاحقة وأنّ المتغيّر لا يعدو كونه الجزء البسيط من المعادلة.

كلمة أخيرة

يتمتّع الشّيخ حسن الصفّار بشخصيّة قياديّة وتوكيديّة، وإنّ من تجليّات هذه الشخصيّة إلهامه للآخرين وصناعته للقادة من حوله دون الاستئثار بالقيادة عن طريق تحطيم المنافسين وتقويض الصّاعدين، لقد زرع الشّيخ بذور الفكر التجديدي في عقول الكثير من المسلمين عبر عشرات السّنين من

العمل الدؤوب حتى يضمنَ استمراريّة هذا المنهج الحيوي واتّساعَ انتشاره، وعمل على رفع كفاءاتهم وقدراتهم بالنّصح والتقييم. إنّ من الأمور التي تُؤخذ على الكثير من رجال الدّين في موقع القيادة الاجتماعية هي تعاملهم بدونيّة مع مَن حولهم وإن لم يقصدوا ذلك أو يشعروا به هم أو أتباعهم، فترى مَن حولهم قد لا يجرؤ على أن يعترض عليهم في مسألة أو يبدي خلاف رأيهم في موقف، ولكن بحكم تجربتي وتجارب مَن حولي مع الشّيخ فإنّ الأمر مختلفٌ تماماً، فمنذ صغري كان يشعرني بالاحترام والتّقدير ويعزّز من ثقتي بنفسي وكذلك يفعل مع أيّ طرفٍ آخر ليجد نفسه أمام سماحته محاطاً بالاهتمام ومُعامَلاً بالنّديّة دون أن يُمارَس عليه دورُ الوصيّ أو المفتّش. أذكر مرةً عندما كنت صغيراً وقد تجاهلني أحد الحاضرين من السّلام في مجلسه فصافح الجميع وتعدّاني بحكم صغر سنّي رغم وقوفي له، فلم يعطِ الشّيخ الإذن للحضور بالجلوس وقتها حتّى يصافحني ذلك الرجل أسوةً بالجميع، والشّيخ نفسه في ذات المجالس لا يستنكف أن يشاور الصّغير أو البسيط -خاصّة في الأمور التي تتعلق بهم- أو أن يطلب النّقد ممّن حوله عن أطروحاته ومحاضراته، ولطالما سرّه أن يقدّم أحدٌ له نقداً بنّاءً لفكرةٍ طرحها أو مسألة تناولها، ولربما أعاد النظر فيها وقوّمها وذاك لعمري هو جوهر الفكر الحيوي القادر على التكيّف مع الحياة وتلبية احتياجاتها في كلّ عصر.

العلامة الشيخ حسن الصفار
مد الجسور وسعي للإصلاح والاعتدال

الدكتور منصور الشيخ عبدالأمير الجمري[1]

ليس من السهل على شخصية دينية تصدَّت للواقع الاجتماعي في ظروف حرجة ومنطقة معقَّدة أن يتمكَّن من مدِّ الجسور مع مختلف الاطراف داخل الساحة التي يعمل فيها، وخارجها، ومع من يختلف معهم فكريًّا وفقهيًّا، وأن يحافظ على نهج الاعتدال إلَّا إذا كان متعمِّقًا في الفكر ومنغرسًا في المجتمع، كما هو حال سماحة العلَّامة الشيخ حسن بن موسى الصفار.

فالشيخ الصفار استطاع أن يجمع الإلمام بتعقيدات المجتمع السعودي، والوعي بكل مرحلة من مراحل حياته، وكيف يمكن موازنة الأمور واعتماد الضوابط الإسلامية والوطنية للخروج بمواقف عملية تصبُّ في الصالح العام، وتنشر الفكر المعتدل الذي يجمع الناس على الخير ويدفعهم إلى الإمام.

---

(١) ناشط اجتماعي، وكاتب وإعلامي بحريني ورئيس تحرير جريدة الوسط التي كانت تصدر في مملكة البحرين.

تميَّز الشيخ الصفار بثباته على المبادئ الإسلامية والوطنية، وإعادة التموضع مع تغيُّر الظروف من دون الإخلال بتلك المبادئ السامية التي يعمل من أجلها طوال حياته. وعلى أساس ذلك نفهم كيف تحرَّك الشيخ الصفار في نهاية السبعينات ومطلع الثمانينات من القرن العشرين ليكون في طليعة الذين تصدَّروا النشاط في منطقته بالمملكة العربية السعودية، وفي العوالم المحيطة به. وطوال عمله في هذا المجال، عُرف عنه الالتزام بثوابت لا يحيد عنها، وهذه الثوابت أسست شخصيته المستقلَّة والمتطلِّعة لإصلاح الواقع. ويمكن النظر -أيضًا- إلى المحيطين بالشيخ الصفار الذين تأثَّروا بنمط حركته الاجتماعية، وكيف ساهموا بإخلاص في الدفاع عن مجموعة من القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

الشيخ الصفار تميَّز بقدرته على اتِّخاذ القرارات الصعبة في المنعطفات التاريخية التي مرَّ بها، وهذا ما نلحظه في تسعينات القرن الماضي، عندما أعاد توجيه نشاطاته وتحرُّكاته بما يتَّسق مع الفرص التي توفَّرت آنذاك من دون إخلال بالمبادئ. ومنذ حينها، كان ولايزال ينطبق على أساس القواسم المشتركة في مجتمعه المباشر، وفي بلده، وفي العالم الإسلامي الأكبر الذي ينتمي إليه بصفته فاعلًا ومؤثِّرًا. لقد تمكَّن الشيخ الصفار من إغناء الساحة الفكرية ليس من خلال كتاباته فقط، ولكن -أيضًا- من خلال الذي كانوا يحيطون به منذ البداية، واصبحوا مع مرور السنوات من اعلام الفكر والثقافة يشار إليهم بالبنان، والذين يعتبرون من المصادر المهمَّة التي لا يمكن الاستغناء عنها لكل الباحثين في المجالات المرتبطة بالحراك السياسي والثقافي داخل السعودية وخارجها.

عرف عن الشيخ الصفار صراحته في توضيح منطلقاته الفقهية والفكرية

والوطنية، ولذا فلن يكن خافيًا على المقرَّبين أو البعدين عنه إلى أي توجَّه ينحو، وعلى أيَّة مدرسة فقهية يعتمد، وما هي الحدود التي يعمل في إطارها. ولذا فإن محبيه ازدادوا، والمتأثِّرين بنهجه كثروا؛ وذلك لأنه يدمج توجيهاته بنشاط مجتمعي مباشر يلامس قضايا الناس أولًا بأول.

ستجد الشيخ حسن الصفار يتحدَّث عن عمل رسالي متكامل أخلاقيًّا ومرتبط بالمجتمع من خلال التعامل والتفاعل مع المتَّفقين معه ومع المختلفين -أيضًا- في الرأي، وستجده يلتزم بأخلاقيات وثوابت تجمع الناس بدلًا من أن تفرّقهم، وتبتعد عن الحزازات أينما وجدت سعيًا نحو التوافقية داخل المذهب الإسلامي الذي ينتمي إليه، ومع المذاهب الفقهية الأخرى، والاتجاهات الفكرية المختلفة.

لقد استطاع الشيخ حسن الصفار، ومن خلال علاقاته الوثيقة والعميقة مع مختلف الأطراف، أن يتجاوز مرحلة القطيعة والتشنُّج، وساهم في دعم جهود الحوارات الإسلامية والوطنية داخل السعودية وخارجها، شاملًا بذلك مختلف الأوساط والأطياف. فمن وجهة نظره، فإن العلاج للتطرُّف يكمن في التعرف على من يُغذِّي الصراع والخلاف، ولماذا، ومن ثَمَّ الانطلاق نحو إزالة سوء الفهم لتلك القضايا التي تُعكِّر التواصل والتعامل مع الرأي الآخر.

لقد أصَّل الشيخ الصفار لفكرة التعدُّدية والقبول بها على أساس فكري ومذهبي، وإبراز الوجه الحضاري المشرق المعتمد على ثقافة التسامح والوحدة الإسلامية والوطنية، واحترام حق الاختلاف في الرأي، وتأكيد حق الناس في المشاركة في الشأن العام. فقد وجد الشيخ الصفار أن استيعاب الوسط الإسلامي للأطروحات المعاصرة عن الديمقراطية وحقوق الإنسان

والدستورية، ومفاهيم المجتمع المدني وما يرتبط بذلك من الحريات السياسية العامة، أمر ضروري طالما أنها ممارسات تتَّسق مع أساسيات الدين. ومثل هذا النهج كان موجودًا في الحوزات والساحات الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين، ولكن الاستفادة من ذلك كانت محدودةً بسبب التعثُّر في إعادة قراءة النص بما يفسح المجال للالتزام بالأصول الدينية من جانب، ومواكبة تطوُّرات العصر من جانب آخر. ففي التاريخ الإسلامي،مثلًا، كان هناك تعايش وتسامح مع أهل الكتاب، ولكن كان ذلك تحت اشتراطات تناسب ظروف ذلك الزمان، ومن أجل تفعيله في زماننا فإن هناك حاجة لجهود فكرية متواصلة لتعميق القناعات بشأن الموضوعات الرئيسية التي تواجه الإسلاميين أثناء ممارستهم دورهم في الحياة العامة.

وعليه، فإن الشيخ الصفار يطرح قضايا التعدُّدية والحرية في الإسلام من خلال بحوث حول حرية المعتقد وتعدُّد المذاهب، لينطلق بذلك من أجل تحديد مواقف عملية في الحياة العامة الراهنة. فهو لا يُنكر وجود بعض المشاكل، ولكنه يُصرُّ على أن تطرح الحلول من خلال المرجعية الإسلامية، وألَّا يكون ذلك نتيجة لضغوط خارجية. ويُشير في مطارحاته إلى أن جوهر المشكلة يكمن في عقلية قبول الآخر والرأي الآخر، «فنحن تربَّينا على الأحادية، وعلى رفض الرأي الآخر». ويُوضِّح الشيخ الصفار ان ضُخّت لنا ثقافة ترفض التعدُّدية ولا نقبلها، «ونمارس الرفض في مختلف الدوائر، القريبة والبعيدة، بينما القرآن يُوجِّهنا إلى أن نقبل الرأي الآخر المخالف لنا في الدين، فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، وإن هذه الآية تذكر ست ديانات كاعتراف بوجودها في الواقع

الخارج». ويؤكد في الوقت ذاته «أما من حيث الصواب والحق فإن الدين عند اللَّه هو الإسلام. بل إن القرآن يخاطب الديانتين المنافستين بأهل الكتاب، وهذا اسم للاحترام. وكان الرسول ﷺ يقبل بوجود النصارى واليهود كأمر واقع مع قوله: إن الدين عند اللَّه الإسلام. ولكن في الواقع الحياتي كان يقبل وجود الآخرين. والحديث المشهور موجود في صحيح البخاري وفي وسائل الشيعة: إن الرسول كان جالسًا فمرت جنازة فقام وقام الأصحاب وقالوا: يا رسول اللَّه، إنها جنازة يهودي. قال: أَوَليست نفسًا؟ هكذا كان يتعامل نبينا. ونحن كيف نتعامل فيما بينا. يقول القرآن: ﴿**لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ لم يقل: المسلمين؛ لأن التكريم الإلهي للإنسان بعنوانه الإنساني بغض النظر عن العناوين الأخرى».

لقد تصدَّى الشيخ الصفار لمبادرات الوحدة والتآلف، وشارك بفعالية في جهود التقريب بين المسلمين، رغم حالات التشنُّج الطائفي، مؤكدًا «أدركت مبكرًا ضرورة تجاوز مثل هذه التوجُّهات، واعتماد منطق الاعتدال والتسامح والحوار والعمل البناء لمعالجة مشكلة الخلاف والتمييز الطائفي». وهو كان قد أعلن عن تحوُّلات فكرية وسياسية في نهجه عندما كان خارج السعودية تبعًا لتغيُّر قناعاته، وأعقب ذلك انفتاحه على التواصل مع المسؤولين الرسميين في السعودية، وقد تغيَّرت لغة الخطاب السياسي والديني، وثم عودته مع زملائه إلى وطنهم لممارسة دور ثقافي اجتماعي فاعل ومؤثِّر في الساحة.

الشيخ الصفار ورؤى المستقبل

المهندس جعفر محمد رضي الشايب[1]

في أيّ لقاء يجمعك مع فضيلة الشيخ حسن الصفار، يأخذك للتفكير بالمستقبل، واضعًا بعين الاعتبار ظروف الواقع المعيش ومعطياته، ولكن نظرته دومًا نحو الآفاق المستقبلية سواءً على الصعيد النظري أو العملي -ومن خلال تجربتي الطويلة في الاستفادة من فكره وآرائه- رأيته ينظر دومًا للأمام ويتطلَّع للمستقبل، ويخطِّط له برؤى ثاقبة وعزيمة ثابتة.

منذ أول لقاء جمعني مع فضيلته -وكنت حينها في الصف الأول ثانوي- في منزل المرحوم الحاج محمد تقي آل سيف بتاروت، شدَّني تصوُّره للمستقبل، ونظرته الواثقة والثاقبة لما ينبغي أن يكون عليه الشباب أمثالنا. ومع أنه كان لا يزال يافعًا حينها، إلّا أنّ أحاديثه كانت مليئة بالثقة والحماس والرؤية المستقبلية، والدفع باتِّجاه إعادة النظر في دور الشباب وموقعيتهم في

(١) رجل أعمال وكاتب، رئيس منتدى الثلاثاء بالقطيف.

إصلاح وتطوير مجتمعاتهم. في ذلك اللقاء الذي جمع ثُلَّة من شباب المنطقة في حوار مفتوح، استحضر الشيخ -حفظه اللَّه- نماذج تاريخية عديدة لشباب أسهموا في تحسين أوضاع مجتمعاتهم، وكذلك لشخصيات معاصرة عملت على تطوير وبناء أمتها، وذكر من بينها نموذج السيد موسى الصدر الذي عمل على التصدِّي لقضايا مجتمعه في لبنان، وكان الصدر حينها بالمناسبة يقوم بزيارات متكرِّرة للمملكة، ويستقبله كبار المسؤولين فيها وهو بزيّه الديني المعروف، وتُغطَّى لقاءاته في القنوات التلفزيونية.

بعد هذه اللقاءات الشبابية، انتظمت في حضور محاضرات الشيخ في القطيف وسيهات بصورة مستمرة، كما كنت أقتنص فترة عودتي من أمريكا للإجازة الصيفية في حضور مجالسه في مدن المحافظة، حيث كانت ملهمة، وتحمل مضامين فكرية وثقافية تناسب اهتمامات الشباب وتطلُّعاتهم، ويقدّمها بطرح تجديدي مخالف للحالة التقليدية السائدة التي تعودنا عليها، بل وتواكب التطوُّرات والتحوُّلات السائدة عالميًّا. فقد كانت تساؤلات الشباب الدينية والفكرية حينها تقف حائرة أمام تعدّد الأُطروحات التي تأثَّرت بها ساحتنا الثقافية، ولم يكن الطرح الديني التقليدي متمكِّنًا من مواجهة الأسئلة والقضايا المطروحة وقادرًا على التفاعل معها، ممَّا حدا بالكثير من الشباب إلى الانخراط ضمن تيارات واتِّجاهات مخالفة للحالة الدينية السائدة.

لقد تمكَّن الشيخ الصفار وقتها من كسب تأييد مجموعة كبيرة من الشباب، وتفعيل دورهم ضمن أنشطة وفعاليات اجتماعية متنوِّعة، لعلّ أبرزها نشر وتوزيع الكتب، والمشاركة في دورات وبرامج تثقيفية وتأهيلية، وكذلك الكتابة والتأليف والنشر في مختلف الصحف الخليجية والعربية. هذا النشاط

الاجتماعي والثقافي أعاد للكثيرين من الشباب ثقتهم بالدين وموقعيته، من حيث استحضار الدور الحضاري له في الواقع المعاصر، وتمكّنه من الانسجام مع الواقع المعيش. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اهتم الشيخ حسن الصفار مبكِّرًا بطرح نموذج عملي لدور عالم الدين في المجتمع؛ لكون الحالة السائدة حينها لرجل الدين الانغماس الكامل في القضايا الدينية البعيدة عن قضايا المجتمع التي كانت تُركِّز بكثافة على الأحكام الفقهية والمعارف الدينية فقط البعيدة عن شؤون الحياة. لقد كان هذا الطرح التجديدي حينها يواجه بمقاومة شديدة من قبل القيادات الدينية والاجتماعية التقليدية التي كانت ترى في ذلك خروجًا عن الأعراف التي كانت سائدة، وأن عالم الدين يقتصر دوره على إعطاء الأحكام والرَّدّ على المسائل الفقهية بمختلف تفرُّعاتها وتفاصيلها. وعشنا نحن هذا الجيل مرحلة التحوُّل في دور عالم الدين، ورأينا بعد فترة من الزمن كيف تغيَّرت نظرة الناس لدور عالم الدين، وكيف تفاعل واستجاب مختلف علماء الدين، بحيث أصبحوا أكثر تفاعلًا مع شؤون وقضايا الحياة، وتركوا الدور التقليدي المقتصر على نقل وشرح الأحكام الفقهية إلى دور أكبر وأشمل، ممَّا انعكس على تفاعل المجتمع -وخاصة الشباب- بصورة أفضل مع علماء الدين.

وفي سنوات لاحقة -وكنت حينها لا أزال أواصل دراستي- زار الشيخ حسن الصفار الولايات المتحدة الأمريكية للاطِّلاع على أوضاع الطلبة الخليجيين الدارسين هناك، والتقى بالكثيرين منهم في مدن وولايات مختلفة، وكان حينها يبشّر بضرورة الاستفادة من الفرص المتاحة أمام الطلبة هناك، من انفتاح وتعارف وتواصل مع مختلف التجارب العربية والغربية، ونقل المفيد منها إلى مجتمعاتنا. وكان -أيضًا- يتطلَّع للمستقبل، فدعا لعقد

اجتماعات مع النشطاء من الطلبة لتأسيس جمعية طلابية خليجية منفتحة على الجميع، تُعنى بشؤون وقضايا توجيه الطلاب في أمريكا. ومن هنا تم إنشاء «مركز الشباب المسلم» الذي أصبح مظلَّة اجتماعية وثقافية يلتقي ضمن برامجها المئات من الطلبة بشكل منتظم خلال مؤتمرات سنوية عامة ومخيمات محلية، ويستضيف المركز شخصيات دينية من مختلف الدول العربية لإلقاء محاضرات والمشاركة في برامج ثقافية عامة.

لقد تحوّل هذا النشاط الطلابي -وعبر مدى عقود- إلى حاضنة للطلبة الشباب من الجنسين ومن مختلف الدول العربية، ومصنعًا لخلق الكوادر المؤهَّلة في المجال الثقافي والإداري والإعلامي، حيث عقد المركز أكثر من اثني عشر مؤتمرًا عامًّا، وعشرات المخيمات الطلابية، كما كان يصدر عدَّة مجلَّات شهرية منتظمة كـ(الشباب المسلم) و(مريم)، إضافة إلى نشرات تصدرها فروعه في مختلف الولايات. هذا الإنجاز لم يكن ليحدث لولا وجود شخصية تمتلك الرؤية المستقبلية، والأفق المنفتح على الفرص المتاحة، والدفع باتِّجاه تحقيقها.

وفي المجال الفكري، أتذكر أنّ الشيخ حسن الصفار أطلق منذ أواخر الثمانينات مشروعًا فكريًّا تنويريًّا، أعتقد أنه كان سبّاقًا في طرحه، يتعلَّق بفكرة التعدُّدية والتنوُّع. فمثل هذه الأفكار والمفاهيم لم تكن مطروحة أو مستساغة في الوسط الديني حينها، باعتبار أنّها تنطوي على الاعتراف والقبول بالآخر المختلف، وأن طرحًا من هذا القبيل قد يُفسَّر بأنه استعدادًا للتنازل عن الأسس والمبادئ والثوابت. لكنّ هذه الأطروحات التجديدية التي كانت في رؤية الشيخ الصفار تحديًّا قائمًا وأفقًا مستقبليًّا مهمًّا في الوسط الديني، كان البعض متردِّدًا في الإفصاح عن تأييده لها علنًا، وكان الشيخ الصفار يدافع

عنها في محاضراته الثَّريَّة التي أقامها في سوريا، وأصدرها لاحقًا في عدَّة دراسات وكتب.

هذه الأطروحات في الحقيقة شملت بصورة طبيعية العديد من المفاهيم ذات الصلة بها، ومن بينها قضايا حقوق الإنسان، والحريات الدينية، والتعايش والتسامح والتعدُّدية وغيرها من العناوين التي تحوَّلت في فترة زمنية لاحقة إلى مواد كتب حولها وفيها الكثير، سواء من الأوساط الدينية أو غير الدينية. وبدا لاحقًا أنّ الكثير من التحفُّظات حول هذه الأطروحات بدأت تتلاشى أو تطرح ضمن نقاشات أكثر موضوعية. وهذه الاهتمامات الفكرية الناضجة جاءت نتيجة للخبرة الطويلة التي اكتسبها من ممارسته العمل الاجتماعي بأشكاله المتعدِّدة، وما يتبعها من تجاذبات، ويُحيط بها من صراعات بين مختلف الفاعليات الدينية والقوى الاجتماعية.

الرؤية المستقبلية لدى الشيخ الصفار -أيضًا- جعلته من الأوائل الذين اشتغلوا فكريًّا على موضوع التقارب المذهبي من زاوية وطنية، حيث كان هذا الموضوع من القضايا الحسّاسة جدًّا، وطرحه يُشكّل دومًا إشكالات مذهبية واجتماعية لدى مختلف الأطراف. تمكّن الشيخ حسن الصفار من الإقدام على طرح هذه القضية من عدَّة أبعاد، تشمل الوحدة الوطنية، والاندماج المجتمعي، والحوار المذهبي، متجاوزًا بذلك كلّ المحاذير والإشكالات المطروحة، ومُلبِّيًا حاجة وطنية ملحّة.

أطلق الشيخ حسن الصفار العديد من المبادرات المتعلِّقة بالحوار بشكل عام، وبالحوار المذهبي خصوصًا، بصورة جعلت منه رمزًا بارزًا في هذا المجال على الصعيد الوطني. ولم يقتصر ذلك على الجانب النظري

فقط، بل إنه مارس ذلك عمليًّا من خلال استضافته للعديد من الشخصيات السلفية، ولقاءاته المتكرِّرة مع أبرز رموز المؤسسة الدينية السلفية، وفتح حوار إيجابي معها ضمن سياقات متعدِّدة. وعندما أطلق الملك عبداللَّه بن عبد العزيز في ٢٠٠٣م -عندما كان وليًّا للعهد- مشروع الحوار الوطني، كان الشيخ الصفار من أوائل المشاركين في لقاءاته المتكرِّرة، وقدّم من خلاله العديد من الأطروحات والآراء التي كانت متوافقة مع هذه التحوُّلات والمسارات الجديدة.

وضمن هذا الإطار -أيضًا- تناول الشيخ الصفار قضية تعتبر من القضايا الشائكة والملتبسة، وهي موضوع المواطنة وإعادة مكانته كمفهوم أساس في الفكر السياسي، باعتبار أنه كان من المفاهيم المشوَّشة وخاصة في الأوساط الدينية والفكر الديني، حيث يتداخل الدين والمذهب والوطن ضمن دوائر غير محدَّدة أو واضحة. جاءت أطروحات الشيخ الصفار في هذا المجال معزِّزة لموقعية الوطن أولًا فوق الانتماء المذهبي والديني، وبذلك فقد حسم هذا التداخل ليكون طرحه مُتقدِّمًا على الآخرين، في الوقت الذي كان الكثيرون -وخاصة في الأوساط الدينية- تقدّم الدين والمذهب على الوطن، باعتبار أنّ رابطة الدولة الوطنية جاءت متأخِّرة على روابط الاعتقاد التي تعتبر أنّ لها الأولوية والسيادة من وجهة نظرهم.

وتأتي حوارات الشيخ الصفار المتلفزة وكتاباته في مجال المواطنة ضمن سياقات توافقية، تخلق توازنًا واضحًا بين دوائر الانتماء الديني والمذهبي والولاء الوطني، وممَّا جاء في كتابه (المذهب والوطن) أنه «لا تعارض ولا تزاحم بين الولاء للدين - المذهب والولاء للوطن، فحب الوطن من الإيمان. ومن يخون وطنه لا دين له. والوطن كهف ومأوى لجميع

أبنائه على اختلاف مذاهبهم، فهم شركاء في أرضه وخيراته، ويتحمَّلون جميعًا مسؤولية بنائه وحمايته، ويتساوون في حقوقهم وواجباتهم تجاهه. إنّ الوطن لا يضيق ذرعًا باختلاف القناعات المذهبية لأبنائه، فحرية المعتقد حقٌّ إنساني ثابت ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾. والحب الصادق للوطن يعني حب أبنائه والمنتمين إليه، فما أحب وطنه من ملأ قلبه بالحقد والكراهية لإخوانه المواطنين. وهذا الكتاب دعوة صادقة لبناء وطن المحبة وتعزيز الوحدة الوطنية، عبر احترام الخصوصيات المذهبية، وإذكاء روح التنافس في خدمة الوطن، والعمل من أجل تقدّمه وعزته».

وعلى صعيد آخر، كان للشيخ حسن الصفار آراء جريئة حول قضايا المرأة ودورها العام في المجتمع تخالف السائد في الأوساط الدينية، من ناحية التشدُّد في إعطاء المرأة حقّها في المشاركة في الشأن العام، وتقييد حركتها وحريتها، وتأكيد موقعية ولاية الرجل عليها بصور متشدِّدة ولا تتناسب مع تحوُّلات العصر الحاضر. ناقش الشيخ الصفار هذا الموضوع مبكِّرًا في خطاباته وكتبه، مستعرضًا نماذج بارزة لشخصيات قيادية لنساء بارزات في التاريخ الإسلامي مارسن كامل حرياتهنّ في المشاركة العامة والدفاع عن حقوقهنّ بكلّ جرأة وشجاعة، دون أن يتعارض ذلك مع عفَّتهنّ أو ينتقص من مكانتهنّ. وفي أكثر من لقاء وتصريح، يتناول الشيخ الصفار مواضيع تمكين المرأة ومعالجة المعوِّقات والقيود التي كانت تجعلها حبيسة أمام إطلاق قدراتها وكفاءاتها والحصول على مواقع وظيفية متقدّمة أو المشاركة بفاعلية في شؤون مجتمعها وقضايا وطنها.

هذا الطرح الجريء وما تبعه من مبادرات جادَّة، واجهت في البداية مواقف متشنِّجة ومُشكِّكة من قبل الكثيرين من مختلف الأطراف، ولكنّها

لاحقًا أصبحت مادة متداولة عند الكثير من المثقَّفين والكتّاب، الذين نشر العديد منهم إشادات بهذا الطرح والرؤية التي أسهمت بكلّ تأكيد في تحقيق تقارب وتفاهم بين أطراف كانت مختلفة ومتباعدة أشدّ البعد في المجتمع السعودي، وتخفيف حدَّة أزمة التباعد بين مكوِّناته.

تلك هي بعض النماذج البارزة من مبادرات لا حصر لها، تُنبئ عن رؤية مستقبلية واضحة اهتم الشيخ حسن الصفار بها ولا يزال، حيث إنه كان دومًا يتلمّس آفاق المستقبل، ويدرس متطلَّباته، ويُطلق مبادرات نظرية وعملية لا تتناسب مع الواقع المعيش فقط، بل تأخذ الأفق المستقبلي بعين الاعتبار، ممَّا يجعل منه رائدًا بارزًا في العديد من الأدوار التي قام ويقوم بها.

رجل التنوع والتعايش الوطني

المهندس علي بن حسين الملا[1]

الحديث عن سماحة الشيخ حسن الصفار يمثّل مسؤولية كبيرة، عند من يتوخّى الحرص على الدِّقَّة والموضوعية، ويفهم السيرة الذاتية الثرية. الرجل الذي نعرفه اليوم كواحد من رجالات مجتمع القطيف، ومن رموزها الدينية تأسس وتكوّن وتشكّل عبر عقود طويلة مصقولًا بالتجربة والخبرة الطويلة.

نشأ في بيت رجل ورع ذي سيرة عطرة، وقد غذّاه الملا موسى الصفار بغذاء الأخلاق والالتزام والتقوى. فظهرت مواهبه الأولى في الخطابة ليشده الناس بملكاته كخطيب واعد وهو ما زال ليّن العود ناعم الأظافر. وحين بلغ مبلغ الرجال؛ عركته التجارب وعصرته الحياة.

(١) رجل أعمال، وجيه إجتماعي وعضو سابق في مجلس المنطقة الشرقية – صفوى.

وحين بلغ مبلغ الكهول نضجت مداركه واتّسع أفقه ليكون واحدًا من الحريصين على المواطنة الصالحة، والداعين إلى الاندماج والتعايش الوطني، ومرغّبًا في الانفتاح وتقبُّل الرأي الآخر، وما زال على هذه الخطى موفَّقًا بفضل اللَّه.

وها هو اليوم أحد رجالات الوطن في محافظة القطيف الغالية علينا جميعًا، يبذل مساعيه الخيِّرة، ويوظّف منبره لايكون ناطقًا باسم الخير والصلاح والتسامح والتعايش ونبذ الفرقة وتجنُّب الفتن.

رجلٌ لديه من التجارب ما يكفيه إلى أن ينظر بعين المستقبل، لا بعين الماضي، وبفهم الاختلافات، لا التعصُّب للرأي، باسمًا هادئًا حاضرًا ومشاركًا في أنشطة المجتمع بكافة أطيافه.

شخصية لا يمكنك إلَّا أن تحترمها وتجلّها، حتى وإن اختلفت معها في شأن من الشؤون، فهو -وإن اختلف معك- لن ترى منه إلَّا الوجه البشوش، والمصافحة الصادقة، والعشرة الوفية.

حفظه اللَّه وأطال بقاءه، ومتَّعه بالصحة والعافية، ونفع به وطننا الكبير.

المهندس/ علي بن حسين الملا

ملامح من شخصية الشيخ الصفار

المهندس حسن مرزوق النخلي[1]

قد يصعب الحديث عن شخصية من مثل شخصية سماحة الشيخ حسن بن موسى الصفار، لما يتطلَّبه ذلك من جهد للوقوف عندها، فقد اتَّسعت أبعاد شخصيته لمختلف الجوانب، إنها فعلًا عملية صعبة لوصف فرد قامة مثل الشيخ يُمثِّل وحدة متكاملة من الصفات والمميِّزات العقلية والفكرية والثقافية والاجتماعية والمزاجية، والتي تبدو في تعامله وعلاقاته ونشاطاته المتنوِّعة في المواقف والقضايا المختلفة، والتي تُميِّزه عن غيره من الأفراد تميُّزًا واضحًا، هذه الصفات والمميِّزات تشمل بالتأكيد دوافعه وعواطفه وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته واتِّجاهاته، كما تشمل -أيضًا- عاداته الاجتماعية وعلاقاته وذكائه وقدراته وميوله ومواهبه الخاصة ومعلوماته، وما يتَّخذه من مواقف وأهداف ومُثل وقيم واتِّجاه في الحياة بكل مناشطها.

(١) باحث وكاتب - المدينة المنورة.

من أبرز ملامح شخصية الشيخ الظاهرة للعيان ضمن مشواره العلمي والعملي:

أولًا: في جانبه الثقافي والفكري:

فهو يحمل فكرًا وقَّادًا يساعده في ذلك سعة اطِّلاعه على كثير من المعارف، يشهد على ذلك كثرة إصداراته المطبوعة والتي بلغت حوالي (١٠٦ مؤلفات طبقًا لموقعه الإلكتروني الرسمي)، وتنوُّع مواضيعها في مجالات شتى دينية واجتماعية وأسرية، تربوية وحقوقية وغيرها، مع غزارة في المعلومة التي تعتمد على الدليل والمرجعية المستندية والإحصائية، وسهولة في الطرح، لتكون مستوعبة حتى من قبل القارئ البسيط، فضلًا عن مئات المقالات الرصينة في الصحف والمجلات المحلية والأجنبية، والندوات المتعدِّدة في الملتقيات العلمية داخل وخارج المملكة، والتي كان له دور في حضورها والمشاركة فيها، فضلًا عن اللقاءات الصحفية والتلفزيونية في كثير من المواضيع والمناسبات.

شخصية الشيخ الفكرية هي شخصية إسلامية بالدرجة الأولى، شخصية مفكِّرة، عاقلة، مدركة، تمتلك الوعي والإيمان والقابلية على العطاء بخصوبة وبإخلاص، وتمتلك القدرة على قراءة معطيات الواقع وتحليله، واستقراء متطلبات الحاضر وتطلُّعات المستقبل، هي شخصية بالقطع منفتحة الذهن.

من أظهر اهتمامات الشيخ تركيزه قولًا وفعلًا على أهمية الوحدة الإسلامية أينما اقتضت الظروف المناسبة لها، والمناداة بالتقريب بين المذاهب الإسلامية من الناحية العقدية والفقهية بمستوياتها الدُّنيا، وهو ما تمارسه مجامع التقريب في بعض الدول الإسلامية مثل إيران ومصر،

من خلال المشتركات الكلية الكبرى والجزئية الدينية التي تُؤثِّر إيجابًا في التقريب.

يُشكِّل الحوار الرُّكن الأساس في أيَّة عملية تقريبية، وهو المنطلق الأول، ولا تقريب بدونه؛ لأنه يستهدف التفاهم وتبادل الرؤى والأفكار لرفع المفاهيم المغلوطة والمهمَّة التي يحملها طرف ضد الآخر، من خلال آلياته المتاحة سواء كان عن طريق التواصل المباشر بالنقاشات، أو من خلال الدراسات، أو إقامة المؤتمرات والندوات والنشاطات العلمية وغيرها.

مارس الشيخ حسن نشاطًا حواريًّا تقريبيًّا ملحوظًا على الأقل في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة بعد عودته من الخارج إلى أرض الوطن عام ١٩٩٤م، تمثَّل هذا النشاط في:

أ- التواصل مع مسؤولي وقيادات الدولة بما يخدم التلاحم بين القيادة وشرائح المواطنين، لمعالجة بعض القضايا والمشاكل القائمة، وكذلك لقاءات حوارية مع علماء دين كبار داخل المؤسسة الدينية الرسمية وخارجها، كالشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ صالح اللحيدان رحمهما اللَّه تعالى وآخرين، كانت تهدف لتجاوز حالة القطيعة المذهبية والانغلاق الطائفي.

ب- المشاركة في المنتديات الثقافية المتنوِّعة داخل المملكة، ومن أهمها منتدى مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني، والذي كان يرعاه خادم الحرمين الشريفين الملك عبداللَّه بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، بهدف الانفتاح على المحيط الوطني، وإقامة جسور العلاقة مع بقية المواطنين، وهو في كتاباته وخطبه دائمًا ما يُحفِّز ويُشجِّع متابعيه وقرَّاءه في الوطن على الانفتاح والتواصل مع بقية مكوِّنات المجتمع من الأطياف المختلفة.

ج- إصداره مجموعة مؤلفات فكرية تُؤصِّل لثقافة الحوار وتقريب وجهات النظر خصوصًا في القضايا الخلافية، ومن أهم هذه الإصدارات كتابه (كيف نقرأ الآخر)، و(خطاب الوحدة.. نقد وتقويم)، و(الانفتاح بين المصالح والهواجس)، و(التسامح وثقافة الاختلاف)، و(الحوار والانفتاح على الآخر)، و(السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل)، و(التنوُّع والتعايش)، و(التطلُّع للوحدة وواقع التجزئة في العالم الإسلامي)، و(رؤية حول السِّجال المذهبي)، و(عن اللقاء الوطني للحوار الفكري).

بالنظر للحالة الثقافية في المجتمعات الإسلامية بالخصوص منها في مجتمعنا الخليجي، هناك جفوة بين مذاهب الفكر الإسلامي المتعدِّدة، فالمثقفون من أهل السُّنَّة لا يعنيهم الاهتمام بما هو لدى الفكر الإسلامي الشيعي ولا يعرفون رجاله، والعكس صحيح، فتكوَّنت لدى كل منهما مكتبة خاصة بمصادر خاصة من داخل المذهب، وكذلك الأمر ينطبق على الباحثين من كلا الطرفين، وهذا أمر يدعو إلى الغربة والقطيعة بينهما، لذلك فالغاية هي أن يقترب بعضنا من بعض، بالاطِّلاع على دخائل بعضنا، وتفحُّص واقعنا الإسلامي ومصادر القوة عند كل منا للوقوف على أدوائه، لا أن نسير في خطين متوازيين.

الشيخ الصفار استطاع من خلال خطبه ومحاضراته وكتبه والندوات التي يشارك فيها أن يرقى إلى مستوى هذا المثال الإسلامي النموذجي، والمبدأ الذي يؤمن به بأن الإسلام واحد ومصادره واحدة، ويستفيد من كتب التراث المتعدِّدة كلها، ويستدل بها دون حرج، ثم يعود في النهاية إلى الرأي الذي يراه سليمًا ناهضًا وإن لم يقتنع به الجميع على اختلاف مشاربهم ومواقفهم من الدين وأحكامه وقضاياه المعاصرة.

إن فكر الصفار هو نقدي إصلاحي يرمي إلى النهوض بحياة المسلمين ومجتمعاتهم، خصوصًا ما هو متعلِّق بالبيئة الخليجية، بتصحيح مناهج التفكير، وتقويم المفاهيم الخاطئة فيه، فهو من الفكر الذي يؤمن بالإصلاح الشامل الذي يدرس بناء الشخصية القادرة على تحقيق الرؤية الإسلامية الصحيحة خصوصًا لفئة الشباب.

لذلك فإن فكر الشيخ ليس حياديًّا؛ لأن الحياد قد يكون -في نظره- معارضًا للفكر؛ لأن المحايدون في الفكر يعني أنهم لا يفكّرون، بل رؤاهم قائمة فقط على الانتماء الذي يفرض عليهم الموقف.

عندما يكون الفكر مدعومًا بالوضوح والاتِّساق والالتزام والاقتناع فهو بذلك يكون على الطريق الصحيح للوصول إلى أهدافه بشكل سليم.

المنتج الثقافي والفكري للشيخ الصفار في كتاباته وخطبه هو إسلامي المصدر والواقع، فهو يلامس الواقع الاجتماعي من خلال العيش فيه والتعايش معه في ميادينه وساحاته، ويتفاعل معها ليتم التغيير في اتجاهاته السليمة، فالرصد الواعي للمنتج الثقافي الإسلامي المخلص لا يأبه بحجم الإنتاج بقدر ما يأبه بالمضمون وكيفيته، ففي الساحة الإسلامية توجد عدة أنماط من الكتابة الثقافية والفكرية، منها ما هو عميق، ومنها ما هو سطحي مشين، ومنها ما هو مبتلى بالتعصُّب الذميم، وآخر تعوزه القدرة على التشخيص بين ما هو أصيل إسلامي وما هو دخيل يخلط أصحابه بين الفكر الإسلامي وغيره!! فالشيخ نراه في كتاباته بفكر إسلامي ناصع يعضده الدليل المباشر، مستفيدًا من آراء غيره من العلماء في المدرسة الإسلامية الشاملة -سنة وشيعة- في إيصال أفكاره، فالثقافة هي ليست سعة اطِّلاع فقط، وإنما هي مسؤولية

والتزام ومنهج سلوك واستقامة وحمل هم واهتمام وتهذيب وتعليم وتقويم، والمجتمع الذي يتقدَّمه رجال مثقفون محصَّنون بتلك المواصفات سوف لا تُخطئ بوصلة سفينته مرافئ الأمان، خصوصًا أن من وظائف هذا المنتج الثقافي والفكري دراسة التيارات الفكرية المعاصرة، واستخلاص محتواها الفكري، لإعداد دراسات وأفكار نقدية كاملة عنها؛ لأن هذه التيارات هي ليست آراء فردية لأفراد هنا وهناك، بل هي أفكار تسندها قوى ومؤسسات دولية وتنظيمات تدفعها إلى اتجاهات مختلفة، وهي كثيرًا ما تخلب ألباب الناس واتجاهاتهم لارتدائها لباس العلمية وتلاعبها بالألفاظ ودعوتها في الغالب إلى الانحلال، هذه التيارات مدعومة بشتى أنواع الأسلحة المادية والفكرية وبأساليب ملتوية.

ثانيًا: شخصيته الأدبية والأخلاقية:

في اعتقادي أن كل من يرتبط بالشيخ من قريب أو بعيد يجد فيه سمة الأبوَّة في التعاطي مع الغير، لما يملكه من تواضع وأدب جمٍّ في تعامله مع الآخرين صغيرهم وكبيرهم، جاهلهم ومُتعلِّمهم، لذلك كان التواضع من صفاته البارزة التي لمستها شخصيًّا منه أينما لاقيته أو شاهدته في لقاءاته مع الآخرين، وهي صفة الكبار أصحاب الثقة بالنفس، يصاحبها هدوءه الواضح في كل المواقف، فلا تراه يتشنَّج حتى في الظروف والمواقف الحسَّاسة حينما يستفزُّه أحدهم بانتقاد أو طلب تصريح، شاهدت وقرأت ذلك في بعض اللقاءات الإعلامية والصحفية عدة مرات!

يمتلك الشيخ صفة الحكمة في التعامل، وتبرز هذه الصفة بقدرته الفائقة على الدخول في صلب الموضوع والتعرُّف إلى عناصر المشكلة

والتعامل معها مباشرة، بدلًا من الانشغال بمواضيع جانبية وتافهة أو غير ذات أهمية، وهذه الصفة تتضمَّن موقفًا سليمًا يجعل من يمتلكها ذا قدرة كبيرة على احتواء الأشخاص بإيجابية.

الأخلاق كما يراها الصفار هي «التجلِّي الأمثل لإنسانية الإنسان، فمن دون الأخلاق لا يكون الإنسان إنسانًا، فهي الكاشفة عن حقيقة الذات»، ويرى أن مجتمعاتنا في العصر الحاضر أشدُّ حاجةً إلى الأخلاق عمَّا سبق، بسبب قوة الحالة الذاتية الأنانية عند إنسان العصر، مع تضخُّم النزعة المادية في حياته، وتغوُّل التوجُّهات المناوئة للفضائل الأخلاقية، بسبب تحكُّم التحدِّيات الكبيرة التي تواجه المجتمعات الحديثة، مع استشراء حالات الفساد وضعف القيم الإنسانية.

أيضًا من الخصال الجميلة التي يتميَّز بها سماحته مهارة فن التواصل مع معارفه أو غير معارفه، والمبادرة بالسؤال أينما كانت هناك مناسبة تستدعي ذلك أو حتى لم تكن، فهو يُخجلك باهتمامه الشديد في هذا الموضوع، لذلك فإن الشيخ من أهم اهتماماته الانفتاح على الآخرين المؤتلفين معه والمختلفين، وله في ذلك كتابات كثيرة، بل مواقف تحضُّ كثيرًا على هذا الانفتاح والتواصل وخصوصًا مع المختلف، ويعتبر العزوف عنه -أي المختلف- مظهرًا صارخًا من مظاهر التخلُّف والتعصُّب، ويدعو بذلك عمليًّا إلى تضافر الجهود الواعية لصناعة أجواء صالحة تنمو فيها بذور الانفتاح والحوار لتكثيف نقاط الالتقاء وتضييق موارد الاختلاف، باعتبار أن الإسلام يدعو إلى ذلك، ويرفض الانغلاق الفكري والاجتماعي، وأن الخطوة الأولى في الانفتاح هي الانفتاح على الذات، بأن يتعرَّف الإنسان إلى ذاته وإمكاناته، ثم يتطلع إلى الإمكانات الأخرى، فإذا رأى فيها ما هو أفضل

أو ما يمكن إضافته إلى ما لديه، فسيكون ذلك أقرب وأنجع إلى التقويم، وهذا هو مفهوم المنطق السليم والحكمة التي تحدّثت عنها، ويتميَّز بها سماحته للرقي بالنفس الإنسانية والشخصية الفردية والاجتماعية وللارتقاء بحالها إلى مراتب السمو والقوة، فالشخصية الإسلامية القوية تمثّل مؤسسة إعلامية مستقلّة إن قامت بدورها الانفتاحي المحب للتواصل والتفاهم، بعكس الشخصية الضعيفة المنكفئة على نفسها والمنعزلة بذاتها عن الآخر، فهي مفهوم مجرَّد لا تُقدِّم أي شيء لنفسها ولغيرها.

ثالثًا: الصفار المواطن:

عهدتُ الشيخ الصفار -متابعًا له في أغلب كتاباته ولقاءاته وخطبه- مواطنًا صادقًا وأمينًا وحريصًا على الجهر بحب وطنه، وتحفيز متابعيه وقُرَّاءه على العمل بما يُرسِّخ مفهوم المواطنة قولًا وفعلًا، باعتبار أن المواطنة الحقَّة هي مطلب شرعي وأخلاقي وحضاري، فالوطن -حسب رؤيته- هو «كهف ومأوى لجميع أبنائه على اختلاف مذاهبهم، فهم شركاء في أرضه وخيراته، ويتحمَّلون جميعًا مسؤولية بنائه وحمايته، ويتساوون في حقوقهم وواجباتهم تجاهه»، فالوطن بهذه الرؤية هو مفهوم يُؤطِّر الواجبات والحقوق وفقًا لدستوره، والمواطنة هي ممارسة وفعل لتعميق المفاهيم الوطنية.

كان وما زال سماحته ومذ عرفته مصلحًا وطنيًّا، يجاهد في سبيل ردم المعوِّقات التي تقف حجر عثرة أمام بناء مجتمع متصالح ومتجانس إلى حدّ ما يساهم في تنمية بلاده، تلك المعوِّقات الإثنية كالطائفية والمذهبية والمناطقية والقبلية وغيرها، والتي لعبت دورًا كبيرًا لسنوات طويلة في تضخُّم حالة المحسوبية والفساد والاستعلاء والصراعات لحساب فئات دون فئات

أخرى، فكانت للشيخ مواقف وإسهامات مميَّزة في مواجهة هذه الحالة، تمثَّل جزء منها بمؤلفات قيِّمة تعكس وجهة نظر الفاحص الحكيم العاشق والمحب لوطنه وأهله، تم إصدارها بمسميات (المذهب والوطن)، و(السِّلم الاجتماعي.. مقوماته وحمايته)، و(التعدُّدية الدينية.. قراءة في المعنى)، و(الاستقرار السياسي والاجتماعي ضرورته وضماناته)، و(المبتعثون.. طموح التنمية والتقدُّم)، و(خطاب الوحدة.. نقد وتقديم)، و(الطائفية بين السياسة والدين)، و(الإصلاح الديني والسياسي)، و(المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية)، و(التسامح وثقافة الاختلاف)، و(الوطن والمواطنة.. الحقوق والواجبات)، و(التنوُّع والتعايش)، وغيرها من الكتب والمقالات.

التسامح والاعتدال صفتان أخلاقيتان يتمتَّع بهما سماحته، تُعبِّران عن قناعاته وإيمانه بهما كمواطن صالح، ناضل من أجلهما لأجل التعايش الذي يرى بأنه «الخيار المنطقي والصحيح ولا بديل له إلَّا التفريط بمصلحة الوطن وتمزيق وحدة الأمة»، فهو «لا يتحقَّق إلَّا بالمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص، دون تمييز أو تصنيف، وبالاحترام المتبادل، والتوقُّف عن التعبئة والتحريض من كل جهة تجاه الأخرى».

في كتابه القيِّم «السِّلم الاجتماعي... مقوِّماته وحمايته» يرى أن تحقُّق هذا السِّلم عامل أساسي لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فقدت حالة السِّلم هذه فإن نتيجتها الطبيعية تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار. ويرى أن من أهم مقوِّماته السلطة والنظام، العدل والمساواة، وضمان الحقوق والمصالح المشروعة لفئات المجتمع، كل ذلك لتحقيق التنمية والتقدُّم للمجتمع الكبير المعبَّر عنه بالوطن.

العلَّامة الصفار نموذجًا حيًّا من نماذج التضحية، والبصيرة، والفكر، والحوار، والنقد، والأخلاق، جدير بالمهتمين من الطبقة المتديِّنة والمثقَّفة من المسلمين دراسة فكره، وقراءة تجربته، وتمعُّن نتاجه، ففي فكره عناصر الدِّقَّة والشمولية، وفي تجربته مظاهر الوعي والأمانة والوطنية، وفي نتاجه الموسوعية والحكمة والمنطق السليم، فقوَّة شخصيته وثراء فكره وثقافته ووعيه السياسي وولائه لوطنه، كل ذلك وغيره جعله محل تقدير رسمي واجتماعي ونخبوي. أسأل اللَّه أن يُوفِّقه وينفع به ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

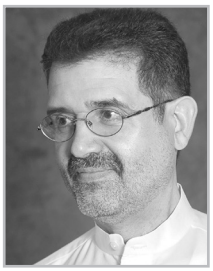

المسألة الطائفية
في خطاب الشيخ الصفار

السيد إبراهيم شرف الزاكي[1]

الطائفية من الأمراض المزمنة التي تنخر في جسد الأمة، وتفتك بنسيجها الداخلي، وتُدمِّر وجودها الكياني، حيث لا يلبث هذا الوباء الفتَّاك والمتوحِّش أن يخبو، أو يكاد يخفت، حتى يعاود الظهور مرة أخرى، وبشكل أشرس وأفظع ممَّا سبق، نتيجة لأسباب ذاتية، أو لأسباب موضوعية، ممَّا يؤدّي إلى إنهاك جسد الأمة وضعضعته، واستنزاف طاقات الأمة وهدر إمكانياتها، وإعاقة إرادتها في النهوض والتنمية والتقدّم، وتكبيلها بالقيود المانعة عن السير على طريق المستقبل.

ومع كل هذا الإنهاك والضعف والتضعضع، ما زالت هذه الأمة تتعرَّض باستمرار إلى المزيد من عمليات الضرب والفتك والإبادة والنحر والدمار والتشويه، بسبب ضعف الإيمان، وقلَّة التقوى، وعدم الورع عن استعمال

(١) باحث وكاتب - سيهات.

سلاح الطائفية المُدمِّر، والاستخدام السيِّئ والمفرط لهذا السلاح ضد الذات، من خلال التحريض والتجييش المذهبي والطائفي، إلى العمل على تغذية حالات الإقصاء والنبذ والتخويف والتشكيك، وغيرها من ممارسات فتَّاكة مزَّقت حاضر الأمة وضيعت مستقبلها.

إن المتابع لخطاب «الشيخ حسن بن موسى الصفار»، يلحظ أن مسألة الطائفية ومشكلاتها وقضاياها، تحتل مساحة أساس من مجمل خطابه، وكأنها همٌّ يُؤرِّقه ويشغل تفكيره. فهو يرصد الكثير من المظاهر التي تتجلَّى فيها أمراض الطائفية، ويسلّط الضوء عليها ويبرزها، ومن ثَمَّ توجيه النقد إليها، وتقديم الرؤى والحلول التي تساهم في تنفيس هذه المشكلة وحلِّها.

ومع أنه يتحدَّث بصراحة، حين يشير إلى الخلفيات والأسباب التاريخية التي تكمن خلف هذه المشكلة، ومسؤولية التراث في ترسيخ ثقافة الطائفية، حيث يحاول إخضاعه للنقد والمراجعة، إلَّا أنه لا يذهب إلى الحدود القصوى في مساءلة هذا التراث، أو العمل على تفكيك بناه المؤسسة بشكل جذري. فخطاب «الشيخ الصفار»، في هذه المسألة، على ما يبدو، غير منشغل كثيراً بتشريح النصوص المؤسسة لتراث الماضي وتحليله وتفسيره، بقدر ما هو معني أكثر بالحاضر وقضاياه وتبعاته، والتعاطي مع إشكالياته ومشكلاته وأحداثه التي تثقل كاهل الأمة، وذلك من أجل بناء حاضر مختلف، ومستقبل متطور.

المسألة الطائفية في خطاب «الشيخ الصفار»، وما يرد حولها من موضوعات وأفكار، يمكن رصدها ومتابعتها في مجمل أحاديثه وكلماته وخطبه وحواراته، وفيما يكتبه أو يلقيه في مناسبات حوارية وطنية أو دينية

أو تقريبية، حيث ازداد اهتمامه بهذه المسألة بعدما مر على الأمة من ظروف صعبة وحساسة ودقيقة من تاريخها، خصوصاً بعد احتلال العراق، وانفجار المسألة الطائفية فيه وتفاقمها، وخطر انفلاتها وانتقالها إلى مناطق أخرى، وتفشِّيها في بيئات مجاورة، إن لم يتم حصارها ووأدها في مكانها وفي مهدها، مع العمل على تحصين البيئات الوطنية الأخرى من الانجرار إلى متاهاتها المظلمة والسوداوية، والسقوط في مهاويها، من خلال رفع مستوى المناعة الدينية والأخلاقية والقانونية، التي تمنع جميع فئات الأمة وقواها وأطيافها من الانجرار إلى مصيدتها والوقوع في شراكها البغيضة.

طريق الخلاص

إن ما يمكن فهمه واستخلاصه واستنتاجه من خلال مضمون خطاب «الشيخ الصفار»، أن العمل على تحصين البيئات الوطنية، ورفع مستوى المناعة لديها، يتطلَّب رفع مستوى وعي الإنسان فيها، وخلق وعي اجتماعي مسؤول، وذلك من خلال التغيير الجذري والعميق لمنظومة الأفكار الاجتماعية التقليدية السائدة والمتوارثة منذ قرون، وخلق نماذج بديلة ومتطورة في الإدارة والاجتماع السياسي، تتجاوز النماذج الأبوية والقبلية والبطريركية التسلطية، حيث ما زالت الأمة تعاني من حالة الاستبداد والتعصُّب، واستمرار الركود الفكري والاجتماعي والانسداد السياسي، وظاهرة الصراع الدموي بين بعض أطيافها، وبينها والسلطة، والذي ساد خلال تاريخ الأمة الطويل.

لذا لن يتحقَّق هذا التغيير والإصلاح المنشود، كما لن تتجاوز الأمة إشكاليات الماضي ومعضلات الحاضر، إلا بإيجاد إصلاح فكري واجتماعي

وسياسي عميق، تتطوَّر معه منظومة الحكم والسلطة والإدارة، ليكون ذلك القاعدة التي يقام عليها البناء التأسيسي لإقامة دولة مؤسسات عصرية حديثة متطورة، وليس مجرد إصلاحات فوقية وسطحية وشكلية، لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

ولعل ممَّا يمكن ملاحظته من خلال متابعة خطاب «الشيخ الصفار»، هو اهتمامه العالي بالمفاهيم والقيم والأخلاقيات، وتسليطه الضوء المركز عليها، والإعلاء من قيمتها في حياتنا العملية والعامة، وتأكيده على بثِّ ونشر معانيها والتبشير بها، وترسيخ مضامينها بيننا، والعمل بإخلاص على تمثُّلها في واقعنا وحياتنا اليومية المعاشة، حيث لا قيمة ولا معنى لها إن لم نتمثلها، أو إن ظلَّت مجرَّد مفاهيم طوباوية، وتعابير رومانسية، ترد وتتكرَّر على ألسنتنا، وفي أحاديثنا وخطاباتنا مجردة من مضامينها.

وفي هذا السياق يمكن لقارئ نصوص «الشيخ الصفار» والمتابع لها، التقاط ورصد ما يرد ويتكرَّر في خطابه من مفاهيم كثيرة، يؤمن بها ويدعو إليها، من مثل مفاهيم الحرية، وحرية إبداء الرأي والتفكير والاعتقاد، والإيمان بالديمقراطية والتعددية والاختلاف والتنوع، ونشر روح التسامح والمساواة بكل معانيها، وتكافؤ الفرص والعدالة، والعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان والمواطنة والأخوة، والتقريب والتقارب والوحدة والحوار والتعايش واللاعنف، والتعليم القويم والتنشئة السليمة والتربية الحسنة، ورفض الظلم والخنوع والاستبداد، وإلى غير ذلك من مفاهيم ومصطلحات كثيرة ترد في خطاب «الشيخ الصفار»، حيث يؤكِّد على ضرورة فهمها وتطبيق معانيها في الحراك الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي على أرض واقع مجتمعاتنا، وفي سلوكنا اليومي والحياتي، من أجل الدخول في العصر

الحديث، القائم على الحريات، وإلغاء الامتيازات القائمة على المحسوبيات، بالإضافة إلى إعلان المساواة القانونية والسياسية لكل المواطنين.

ومن هذا المنطلق يأمل «الشيخ الصفار» أن تأخذ كل هذه المفاهيم حظها في الرواج والانتشار والتغلغل في ثقافة الإنسان المسلم وسلوكه، كي تؤدي مع الزمن إلى تكوين واقع جديد ومختلف عما هو سائد من ثقافة طائفية مصحوبة بمعاني التفرقة والتعصب والاستبداد والإقصاء باسم الدين وقيمه، حيث يُغلِّف البعض قناعاته بقناع ديني زائف لتبرير تجاوزاته البغيضة وأعماله الشريرة، في الوقت الذي لا ينفك «الشيخ الصفار» عن الالتزام بإبراز القيم الدينية الأصيلة، وبتأصيل القيم الإيجابية مهما كان مصدرها، والموائمة بين المفاهيم الحديثة والمعاصرة والتراث، والدعوة إلى تبيئتها وتثبيتها كقيم أصيلة وراسخة، على أساس أنها جزء من قيم الدين الأساسية المعتبرة، أو أنها لا تتعارض مع مقاصد الدين.

التغيير بالحوار

إن مشكلة الطائفية وما يرافقها من أذى وضرر يصيب الإنسان والمجتمع، لن يتم فهمها ومعرفة أبعادها وانعكاساتها، بالإضافة إلى مصادر نشأتها، ومن ثم السعي إلى اجتثاث جذورها والتخلص منها، إلَّا من خلال إعادة صياغة عقلية الإنسان المسلم وثقافته بالتربية والتثقيف والتعليم، ومن خلال طرق وأساليب الحوار المختلفة، التي يشترك ويساهم فيها جميع مكوّنات المجتمع، بدون إقصاء أو استثناء لأحد، لنفض الأفكار البالية القابعة في الرؤوس منذ زمن طويل، وسعياً إلى تجاوز الركود الفكري والاجتماعي، الذي ساد لقرون ماضية، وورَّثنا الكوارث والأزمات والتخلُّف، من أجل

إحداث تحوُّلات فكرية عميقة، وتحديث فكري متين، تتطوَّر معه منظومة الحكم والسلطة والإدارة.

إلَّا أن المعضلة هنا، والتي دائماً ما نشكو ونعاني منها، ونضجر بسببها، وخصوصاً حينما نتحدَّث عن موضوع الحوار، تكمن في أن أهل الحوار والمؤمنين به، والمنتسبين إلى مدرسة الحوار، والمنتمين إلى ثقافتها، هم قلَّة، على الرغم من دعوة الدين وحثِّه الدائم على التمسُّك بهذا النهج والاقتداء به، لما يختزنه مفهوم الحوار من ثروة هائلة لا تنضب، حيث تحتاج إلى من يكتشفها ويستثمرها الاستثمار الأمثل، ليس فقط من أجل حاضر هذه الأمة ومستقبلها، وإنما أيضاً من أجل ماضيها، ماضيها الذي يحتاج منا إلى المراجعة والتقييم والنقد واستخراج العبر، وكل ذلك بالطبع من خلال التفكير والتفكُّر، والحوار النقدي الخلاق.

وانطلاقاً من هذا المعنى يمكن لأيِّ أحد أن يختلف مع «الشيخ الصفار» وأفكاره ورؤاه، وهو أمر طبيعي ولا ضير فيه، بل هو أمر مستحسن ومطلوب ومرغوب فيه، لما في الاختلاف والتعدُّد من فوائد جمَّة لا تُحصى. وإذا كان هناك اليوم من يعارض نهج «الشيخ الصفار» وأفكاره، فإنه لمن المؤكَّد أن هناك على الطرف الآخر من هو مقتنع بنهجه وراضي عن أفكاره، حيث تحوَّل هذا النهج إلى حالة وتيار له شعبيته وثقله وموقعه، ويضم عدداً كبيراً من العلماء والخطباء والمثقفين والناشطين اجتماعيّاً.

ولعل ما يميّز «الشيخ الصفار»، ضمن هذا الإطار، أنه شخصية حوارية، ويمارس نهجاً استيعابيّاً يشجّع على التقارب والتعاون، والقبول بالتعدّدية والاختلاف في الرأي، فهو مُتمرِّس في هذا الشأن، وذو خبره عالية في

الحوار، تجيد أصوله وفصوله، نتيجة ما راكمته من تجربه وممارسة امتدَّت على مدى سنين طويلة، تحوَّلت إلى خبره عريقة، قلّ إن تجدها عند غيره ممَّن لم يخوضوا مثل هذه التجارب الحوارية، أو لم يُطوِّروا إمكانيات وأدوات الحوار في ذواتهم وشخصياتهم.

إن التجارب الكثيرة التي انخرط وشارك فيها «الشيخ الصفار» عمَّقت تجربته الحوارية، وأكسبته خبرة واسعة في معرفة أساليب الحوار وطرقه المتنوِّعة. فالتراكم المعرفي الذي لا يصاحبه ويتبعه الانخراط في تجارب حوارية عملية، غالباً لا تضيف إلى صاحبها خبرة وتراكمًا نوعيًّا في مجال الحوار والجدل والسجال، لأن تعدُّد التجارب الحوارية وتكرارها يصقل هذه القدرة عند الفرد، وتتحوَّل مع الزمن إلى خصلة وسجية من مكوّناته الشخصية وعاداته الطبيعية، التي يمارسها بشكل روتيني وبدون تكلُّف.

من الأشياء الأخرى التي يتميَّز بها «الشيخ الصفار» أيضاً، أنه صاحب رؤية ومشروع واضح المعالم والخطوط، ولا يصعب على أيِّ متابع لخطابه إمكانية معرفة هذه الرؤية ومعاينتها وتلمسُّها، من خلال أقواله وكتاباته وممارساته وأفعاله، وهو الأمر الذي يُمكن للجميع رصده ومتابعته، ومن ثَمَّ نقد خطابه ومساءلته، سواء كان ذلك بالكلمة والقول والكتابة، أو بالحوار المباشر والصريح، فالذين يتصدَّون للشأن العام وقيادة المجتمع وتوجيهه ليسوا ملائكة، ولا ينبغي لهم أن يكونوا كذلك، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، وما علينا إلَّا أن نراقب ونرى وننتقد ونحاسب، بعيداً عن لغة القوة والشتيمة والتجريح والتسفيه، بل من خلال الكلمة الطيبة والقول الحسن وقوة المنطق، لا بمنطق القوة.

«والشيخ الصفار» يُسلّم بأن كل من يعمل في الشأن العام عليه أن يتوقَّع وجود معارضين له، يخالفونه في الرأي، أو يثيرهم بروز دوره وتصدِّيه للشأن العام، وعلى الإنسان أَلَّا يطمع في رضا كل الناس عن شخصه ودوره، أو موافقتهم جميعاً على كل آرائه وتوجُّهاته، فكما لديه رأي، للآخرين آراؤهم ومن حقّهم التعبير عنها، وليس هناك صاحب رأي وموقف محقّاً كان أو مبطلاً لم تواجهه معارضة في مجتمعه، إلَّا أن ما يتمنَّاه «الشيخ الصفار» هو ترشيد أسلوب الخلاف، بأن يتَّجه إلى مناقشة الرأي والموقف، بدل التجريح والتسقيط الشخصي، حيث يطرح كل طرف مشروعه ورؤيته البديلة، بدل أن ينشغل بنقد الآخرين فقط، والعمل ضدهم.

ومن خلال وحي تجربته الشخصية، يشير «الشيخ الصفار» إلى أنه استفاد من وجود المعارضين له لاكتشاف الثغرات ومواضع الخلل في طروحاته ومشاريعه، فالإنسان ليس معصوماً، وقد يفيده مُخالِفه في تشخيص نقاط ضعفه، لذلك من المهم الابتعاد عن المكابرة، والمبادرة إلى الإصلاح والتصحيح، فوجود المعارضين يستثير همَّة الإنسان وتحدِّيه على الصعيد الشخصي، وعلى مستوى التيار الذي معه، فيُذكي حالة التنافس في سياقها الإيجابي.

الإصلاح كعمل تراكمي

يمكن القول بأن خطاب «الشيخ الصفار» حول المسألة الطائفية، يتوزَّع على عدد من المحاور الرئيسية المهمَّة، ويتعرَّض للعديد من القضايا والمسائل، ويثير الكثير من المشكلات والإشكاليات، التي يمر بها واقع الأمة، بالإضافة إلى ما يتضمَّنه خطابه من اقتراحات وأفكار تساهم في حل

مشكلة الطائفية ومعضلاتها، إلَّا أن الملاحظ أن كل تلك الأفكار والرؤى تتوزَّع وتتناثر على مجمل خطابه، وغير محصورة ضمن كتاب واحد وبشكل تفصيلي ومبوَّب.

وعلى الرغم من أن رؤية «الشيخ الصفار» حول المسألة الطائفية مبثوثة وموزَّعة في مجمل خطابه، إلَّا أن القارئ لخطابه يلحظ دقَّة توصيفه للمشكلة الطائفية ومنابع جذورها، ومكامن الخلل في واقع الأمة اليوم، وعمق الأزمة التي تعيشها، حيث يتحدَّث الشيخ الصفار حول هذه المشكلة بشكل واضح ومباشر، ولا يخلو كلامه من الجرأة، والكلام الصريح، على الرغم من تكلِفة هذه الصراحة، وتكلِفة مواجهة المدِّ الطائفي المتوحِّش، وتكلِفة الوقوف أمام موجاته العاتية، بالإضافة إلى الثمن الباهض الذي يمكن أن يدفعه من يجاهر بكلمة حق في الدعوة إلى مواجهة الطائفية وصد تمدّدها، والدعوة إلى الوحدة والتقارب والتآلف، ومجابهة باطل التفرقة والتمزُّق والانقسام.

إن خطاب «الشيخ الصفار» النقدي والصريح للأوضاع الدينية والاجتماعية والثقافية القائمة، ودعوته إلى تجاوز نمط التفكير السائد، وتحديث مجتمعاتنا بالأفكار الجديدة، وتبنِّيه الدعوة إليها، والتزامه التبشير بها، ليس وليد لحظة الانفجار الذي عصف بالمجتمعات العربية عندما أقدم الشاب التونسي «محمد البوعزيزي» على إضرام النار في جسده في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٠، احتجاجاً على الظروف الاجتماعية والمعيشية الصعبة التي كان يمرُّ بها في مجتمعه، حيث شكَّل عمله هذا نقطة انطلاق لتحرُّك شعبي واسع عمَّ العديد من البلاد العربية، بدا في حينه وكأنه إيذاناً ببدء حدوث تداعيات وتحوُّلات وانقلابات كبرى في المنطقة.

لذلك يمكن الجزم بأن خطاب «الشيخ الصفار» الإصلاحي يعدُّ سابقًا على لحظة الاحتراق بزمن ليس بالقصير، ففي الوقت الذي كانت فيه الجماهير العربية تنادي بأعلى أصواتها، مطالبة بالحرية والكرامة والعدالة والمشاركة، ورافعة شعارات التغيير والإصلاح، وداعية إلى تحرير الإنسان/ المواطن من قيود الاستبداد والظلم والقهر والتخلُّف، كانت هذه المطالب والقضايا والأفكار والمفاهيم والقيم تشكّل عصب خطاب «الشيخ الصفار» الإصلاحي، حيث يمكن ملاحظة ذلك من خلال كتب «الشيخ الصفار» المطبوعة والصادرة قبل تلك الشرارة التي أشعلها وأطلقها «البوعزيزي» فأحرق بها جسده.

لا يمكن الشك بوجود رؤية إصلاحية عند «الشيخ الصفار»، يمكن رصدها وتحديدها من خلال متابعة خطابه، إلَّا أن السؤال عن نتيجة وحصيلة هذا المشروع، ومقدار ما تحقَّق وتجسَّد منه على أرض الواقع، يبقى أمراً مشروعاً وخاضعًا للتقييم، على أن ما يمكن إضافته هنا، هو أن الأفكار والمفاهيم والقيم الجديدة، والسعي إلى تغيير نمط التفكير السائد، يحتاج إلى زمن وعمل تراكمي، قد يطول وقد يقصر، بناء على ظروف كل مجتمع، حيث يمكن أن تتراوح نتيجة هذا الحراك بين النجاح والفشل.

إنه لمن المؤكَّد أن الأزمات والنزاعات والقلاقل والتحدِّيات التي يمر بها أيُّ مجتمع، تساهم بدون أدنى شك في تسريع اختمار الأفكار الجديدة، واستيعابها وتمثُّلها. فالمجتمعات الحية التي تكافح من أجل الإصلاح والتغيير، وقيود عصر السياسات التقليدية، وتسعى إلى إعادة صياغة حياتها بما يتَّفق والتطوُّر الحضاري السائد في هذا الزمن، تشهد في العادة حوارات ونقاشات وجدالات واختلافات حادة وصاخبة بين أطرافها وأطيافها وقواها

المختلفة، تساهم في تفكيك البنية الثقافية التقليدية السائدة، وتخلق أرضية خصبة ومناسبة لعمليات التغيير والتحوُّل، وتتهيَّأ معها، أو نتيجة لها، ثقافة مرنة قادرة على استيعاب وإدماج المفاهيم الجديدة وتقبلها وإعادة إنتاجها بصورة تستوعب المتغيرات الواقعة والحادثة.

خلاصة القول: إن تزايد الحديث اليوم عن المسألة الطائفية، يشير إلى تفاقمها المتوسِّع والمُطَّرد، وانتشارها المتزايد والمتعاظم في حياتنا المعاصرة، وتداعياتها السلبية وانعكاساتها المدمرة على حياة البشر، حيث أخذت الكثير من المجتمعات والدول تعاني من تداعيات ومفاعيل هذا الأمر، وما ينتج عنه من سلبيات خطيرة ومكلفة، تُهدِّد كيان الأمة وشعوبها بالتفكُّك والضعف والانهيار، وهو بالتالي ما ينعكس سلباً على سلامة وقوة هذه الأمة ومنعتها.

الشيخ الصفار
المفكر العامل

الأستاذ أمير موسى بوخمسين[1]

القائد هو الشخص الذي يستطيع التأثير في المجتمع عبر استخدام نفوذه وقوَّته، ليوجّههما لإنجاز أهداف محدَّدة، ويربط بين تحقيق أهداف المجتمع وأهداف الفرد، من أجل خلق حالة التفاعل. وكلما اكتملت عناصر القوة لديه اكتملت عناصر قيادته. والقيادة ليست مغنمًا أو أمرًا كماليًّا يأتي من خلال الراحة والكسل، بل هي مسؤولية وعناء وتعب؛ لذلك نجد أن القادة في المجتمعات قلَّة محدودة، لما لهم من مواصفات يتميزون فيها عن الآخرين. وفي تاريخنا المعاصر هناك قادة سياسيون وعسكريون واجتماعيون ومفكرون وغيرهم، من ذوي التوجّهات المختلفة، استطاعوا أن يبنوا أمماً ويتركوا بصماتهم التاريخية، التي ساهمت برُقي العالم وإثراء ميادين مختلفة من العلوم في مختلف المجالات. فالقيادة تتطلب عناصرَ من

(١) كاتب – الاحساء.

الضروري توفرها، وأبرزها:

١- **التأثير**: وهو القدرة في إحداث تغيير اجتماعي، وذلك من خلال الاتصال بأفراد المجتمع وتوجيههم، وقبولهم لما يطرحه.

٢- **القدرة الذاتية**: مدى القدرة على إحداث التأثير في المجتمع، وقوة مكانته المؤثرة اجتماعيًّا.

٣- **المهارات المتعددة**: (الذهنية والفكرية: «التفكير - التخطيط - الإبداع - الابتكار - القدرة على التفكير خارج الصندوق») - (الإنسانية والاجتماعية: «العلاقات - الاتصال - والاستماع والإنصات») - (الفنية والتخصصية: «التنظيم - التنفيذ - اتخاذ القرارات - حلّ المشكلات»).

هذا ما تميّز به سماحة الشيخ حسن الصفار في شخصيته القيادية التي مارس من خلالها دوره القيادي في المجتمع، لما له من تأثير ونفوذ ومهارات متعددة، استطاع من خلالها كسب المجتمع والتأثير فيه من خلال سنين طوال من التعب والمشقة ومجاهدة النفس والعمل الجاد. فالقيادة لم يحصل عليها كمغنم، وإنما من خلال عمله وجهاده الذي قضى فيه عمره مسافرًا بين البلدان، للقيام بالدعوة والتبليغ، وتأليف الكتب، وإلقاء المحاضرات، والمشاركة في النشاطات المختلفة التي تصب في خدمة المجتمع، كالأنشطة الثقافية الفكرية والخيرية والمشاريع الاجتماعية في مختلف ميادينها.

وقد توجّ هذا التوجُّه بعد رجوعه من الخارج، عندما أعلن برنامجه العملي الذي أعتبره خطةً ومنهجًا له في المستقبل بعد غياب عن البلاد دام سنوات، هذا البرنامج اتَّخذه من خلال دراسته للواقع الاجتماعي ومتطلباته، والسعي في إعداد البرنامج ضمن خطة عمل متكاملة حتى يحقق ما يسمو إليه

من خلال برنامجه الذي أعلنه، والذي يحتوي على ثلاث مهمات رئيسية، كل واحدة منها تلامس الهمّ الاجتماعي والوطني، وهي على النحو التالي:

١- العمل على تثقيف المجتمع من خلال المحاضرات والكتب والندوات، التي أثراها بالعطاء المعرفي والثقافي والتأليف والتوثيق، وأصدر ما يفوق ١٢٠ كتابًا في مختلف الميادين، الاجتماعية، والدينية، والحقوقية، داعياً في أطروحاته ومؤلفاته إلى الانفتاح والتسامح.. في كتاب المسيرة الفكرية لمؤلفه الأستاذ حسين منصور الشيخ الذي تطرَّق فيه لمؤلفات الشيخ الصفار وتوجّهاتها وتصنيفها إلى المسارات المتنوعة، كالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي الداخلي، الاهتمام بالتربية الروحية والشخصية، التأصيل الفكري لقضايا العصر، معالجة هموم الأمة، قراءة التراث والاستهداء به، ومعالجة الهموم الوطنية.. ومن خلال حضوره الجماهيري عبر حضوره للندوات والمؤتمرات الثقافية المختلفة أكد على أهمية الوعي الفكري والثقافي في المجتمع.

٢- الانفتاح على كافة أطياف المجتمع بمختلف مشاربه وتوجهاته، فتفاعل مع الجميع وانفتح على كافة الأطياف شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا ووسطًا، ومع التوجّهات المختلفة من إسلامية وليبرالية وغيرها، ولم يُعقه ذلك عن التعاون مع مختلف الأطراف، بل مدّ يد المساعدة والعون في تأليف القلوب وتوحيدها من أجل خدمة أبناء الوطن، فزيارته للمختلفين معه، ومبادراته المتنوعة بالدعوة للحوار والانفتاح على الآخر، أكدت على رحابة صدره في قبول المختلف الآخر، مؤكدًا بذلك تكرارًا ومراراً على ضرورة الانفتاح على كافة شرائح المجتمع وأهمية هذا التوجّه، وترجم ذلك من خلال كتاباته الداعية إلى هذا التوجّه عبر كتب صدرت له: التنوع والتعايش

- تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية - الحوار المذهبي والمسار الصحيح - الوطن والمواطنة، وغيرها.

٣- التواصل مع الجهات الرسمية والانفتاح عليها، وذلك على صعيد مختلف المستويات العليا في مؤسسات الدولة من أجل خدمة المجتمع، وأصّل ذلك من خلاله زياراته للمسؤولين، وكذلك مبادرته في عقد جلسة علنية سنوية يتعرّض فيها لجميع ما يقوم به من أنشطة، ومنها التقرير الخاص بصرف الحقوق الشرعية من (خمس وتبرعات وصدقات)، وحضوره في المحافل الرسمية، كحضوره في مؤتمرات مركز الحوار الوطني، والندوات والمناسبات الرسمية.

الشيخ حسن الصفار مثال للرجل الداعية المفكر العامل، الذي ترجم كتاباته وأقواله من خلال أعماله في خدمة المجتمع كمنهاج ومصداق للرجل العامل بشفافية وإتقان، وهو بذلك يجسّد الحديث الشريف، عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اللّه يحب إن عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه».

الشيخ الصفار
وملامح خطابه الاجتماعي

الأستاذ بدر شبيب الشبيب[1]

لا شك أن للمجتمع حضورًا لافتًا في خطاب سماحة الشيخ حسن الصفار. يظهر هذا لكل متابع لإنتاجه الغزير المتمثّل في كتبه وخطبه ومحاضراته ومقالاته. فمثلًا نجد من بين مؤلفاته العناوين التالية التي يجمعها الاهتمام بالمجتمع وشؤونه: (ثقافة النهوض الاجتماعي، القيادات الدينية.. الخطاب والأداء الاجتماعي، العمل التطوعي.. تنمية الذات وقوة المجتمع، الاستقرار السياسي والاجتماعي.. ضرورته وضماناته، شخصية الفرد جدلية العلاقة بين الفرد والمجتمع، الجمعة.. شخصية المجتمع الإسلامي، الرشد الاجتماعي.. رؤية قرآنية، السلم الاجتماعي.. مقوماته وحمايته، النادي الرياضي والمجتمع، المؤسسات الأهلية وحماية الأمن الاجتماعي، حضور المسجد والمشاركة الاجتماعية للمرأة، الكوارث ومسؤولية المجتمع،

(١) أديب وكاتب – أم الحمام.

الإمام الحسن ونهج البناء الاجتماعي). وهذا أحد الشواهد الذي يمكن بإضافته لأمثاله من إنتاج الشيخ الذي لا يكون المجتمع أو الاجتماعي جزءًا من عنوانه، ولكنه في صلب موضوعه تمامًا سيعرفنا على الحضور العميق للمجتمع والاجتماعي في خطاب الشيخ. من أمثلة ذلك من بين كتبه: التسامح وثقافة الاختلاف، ثقافة النهضة والبناء، عاشوراء خطاب التنمية والإصلاح، علماء الدين قراءة في الأدوار والمهام، الأوقاف وتطوير الاستفادة منها، فقه الأسرة، الحوار والانفتاح على الآخر، المؤسسة الدينية الوظيفة والتحديات، الشباب وتطلعات المستقبل. ومن أمثلتها بين عناوين محاضراته ومقالاته: صلة الرحم فوق الاختلافات الدينية، تجنب الصراعات، المجتمع وصناعة الرؤية، الإبداع والتطوير في البرامج الاجتماعية، الانتماء الفكري والانفتاح الاجتماعي، أنفقوا لحماية المجتمع، وغيرها الكثير.

كل هذه الشواهد تتعاضد مع الحضور الميداني الاجتماعي الثري للشيخ في معظم محافل الخير التي تقام في المجتمع حضورًا نوعيًّا؛ يشجع المبادرات الاجتماعية، ويحتفي بأهل العطاء والإبداع في كافة الميادين، ويتواصل مع المؤسسات الاجتماعية الرسمية والأهلية، ويقترح تأسيس جمعيات أو مشاريع لخدمة وتطوير المجتمع.

كل هذه الشواهد مجتمعةً تكشف بجلاء عمق اهتمام الشيخ بالشأن الاجتماعي العام، بل يمكن اعتباره واحدًا من أبرز الشخصيات ذات الدور الفاعل تنظيرًا وتطبيقًا في هذا الصدد؛ ليس على المستوى المحلي فحسب، بل على مستوى الوطن كله.

لهذا فإن محاولة قراءة ملامح خطابه الاجتماعي لا تأتي من باب الترف

الثقافي، وإنما هي قراءة لمسيرة ممتدة اكتنفت فيها الرؤية بالتجربة الميدانية اكتنافًا شديدًا، مما جعلها تتفاعل وتتطور وتتكامل، ولا تزال.

وفي هذه العجالة نسرد بعضًا من ملامح هذا الخطاب الذي يحتاج لدراسة أعمق وأشمل:

الملمح الأول: يذهب الشيخ إلى أصالة الفرد وأصالة المجتمع معًا. وبالتالي فإن حفظ استقلالية الفرد أمر ضروري لنمائه، فلا ينبغي التضحية بشخصية الفرد من خلال هيمنة السلطة الاجتماعية عليه. وفي الوقت ذاته، فإن الفرد ينبغي أن يكون عضوًا فاعلًا متفاعلًا مع مجتمعه، مساهمًا في بنائه وتطويره.

يقول سماحته: «ويبدو من مجموع النصوص الدينية ترجيح هذه النظرة وهي أصالة الفرد وأصالة المجتمع في نفس الوقت. فالفرد أصل يجب الاعتراف بشخصيته واستقلاليته، وشرعية حبه لذاته، والمجتمع أصل لا تتجلى ولا تبرز إنسانية الإنسان إلَّا بعضويته فيه وعطائه له»[1].

الملمح الثاني: يرى الشيخ بأن تقدم المجتمعات وتأخرها هما المحصلة النهائية لما عليه أبناؤها، فلا يصح والحال هذه إلقاء اللائمة على الآخر وإخلاء المسؤولية عن الذات المجتمعية. يقول سماحته: «التقدم والتخلف في المجتمعات ليس عفويًّا، أو يأتي بالصدفة، أو حسن وسوء الحظ، وإنما هناك وضع يعيشه المجتمع ينتج تخلفًا أو تقدمًا.

لذلك فبالإمكان التنبؤ بمستقبل أي مجتمع، من خلال دراسة ما يعيشه

(١) كتاب شخصية الفرد جدلية العلاقة بين الفرد والمجتمع، ص٥٨.

من عقليات وسلوكيات يتطبع بها أفراده، فإذا كانت هذه العقليات والسلوكيات منتجة للنهوض، فإن مجتمعها مرشح للتقدم، بينما لو كانت منتجة للجمود والتحجر فإن المجتمع الخاضع لها سيعيش حالة من التخلف»[1].

ويضيف: «إن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليست مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهيئًا للتقدم والانطلاق. وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفًا وانحطاطًا»[2].

الملمح الثالث: يرى الشيخ ضرورة تفعيل كافة الطاقات الاجتماعية وتعاونها وتعاضدها من أجل إحداث التغيير الإيجابي في المجتمع ودفع عجلة التقدم في مساره. وقد اهتم بهذا الجانب اهتمامًا بالغًا يظهر من خلال حثّه مختلف شرائح المجتمع على القيام بدور تكاملي رائد في هذا المجال. فتارة يتوجه بخطابه للمثقفين وأخرى للأكاديميين وثالثة للنساء ورابعة للشباب وخامسة لأصحاب المال وسادسة للقيادات الدينية، وهكذا.

ففي إحدى محاضراته يتحدث للمثقفين قائلًا: «المثقف المهموم بمجتمعه والذي يريد الارتقاء بمجتمعه لا بد وأن يكون واقعيًّا، وأن يعرف أن عالم الدين مؤثر في المجتمع، وبالتالي إذا استطاع المثقف أن يؤثر في عالم الدين ولو بمقدار ما، فإنه يؤثر في الجمهور والمجتمع. ويضيف: إنني أعتقد أن الموقف المطلوب من المثقف، هو المنافسة الإيجابية مع المؤسسة

(١) كتاب الرشد الاجتماعي، ص٧٣.
(٢) كتاب الرشد الاجتماعي، ص١١٧.

الدينية، في ميدان إنتاج المعرفة والثقافة الدينية.

وفي خطابه لحملة الشهادات العليا يقول: أيها الأكاديميون والمثقفون الأعزاء إنكم تمثلون رصيدًا كبيرًا وأملاً واعدًا لمجتمعكم الذي انتظر وجودكم طويلًا وهو يفخر بكم، ويتوقع منكم المساعدة في رفد مسار العمل الاجتماعي والتطوعي.

وفي حديثه عن الشباب واستثمار قدراتهم وطاقاتهم يقول في كتابه (الدين والقيم الإنسانية، ص١٣٤): «إن مسؤولية استثمار مرحلة الشباب الاستثمار الأمثل هي مسؤولية الفرد والمجتمع، فقد يكون الفرد ضحية إهمال المجتمع، وتوجيهه الوجهة الخطأ، كما أن الفرد غير معذور في إهدار ما وهبه اللَّه من طاقة شبابية، كان يفترض به أن يوجهها الوجهة الصحيحة... ويفترض بالمجتمعات المسلمة أن تتوجه نحو هذه الشريحة، لاستثمار هذه الروحية المعطاءة والوقادة، بحيث تحتضنها مؤسساتها، وتعمل على استثمار طاقاتها».

وعن المال وأصحابه ودورهم في خدمة المجتمع يقول: «يمثل المال قوة في الحياة الاجتماعية، فإن امتلاكه يعطي الإنسان قوة في شخصيته، ومكانة في محيطه الاجتماعي. وبذلك يستطيع مساعدة الآخرين، وخدمة مجتمعه ودينه».

وفي كلمته لعضوات اللجنة النسائية المساندة للخدمات التربوية والتعليمية بمدينة سيهات ركّز على دور المرأة في إنجاز عملية النهوض الاجتماعي، ودفع الأبناء نحو الاهتمام الدراسي والتفوق العلمي، وحماية الأسرة من التأثيرات السلبية لما يرافق الانفتاح الثقافي.

وتحدث في كتاب (القيادات الدينية والخطاب الاجتماعي، ص١٦٥) عما أسماه وظائف شاغرة لطلبة العلم على الصعيد الاجتماعي. يقول: «فمجتمعاتنا بحاجة إلى مؤسسات أبحاث ومراكز دراسات، ترصد أوضاع المجتمع، وتتابع تطوراته، وتشخّص احتياجاته الفكرية والتربوية، ثم تضع المناهج والبرامج التوعوية التثقيفية، وتعيد صياغة الأفكار والمفاهيم الإسلامية بما يتواكب مع التحديات المعاصرة.

كما تشتد الحاجة في هذا العصر إلى المؤسسات الإعلامية الإسلامية، من قنوات فضائية، ومواقع على الإنترنت، وإصدار المجلات والجرائد، وتوظيف مجالات الفن لصالح قضايا الإسلام والأمة. إن هذه الحقول وأمثالها ينبغي أن تتوجه لها الطبقة الدينية، وتهتم بها، وتتصدى لملء الفراغ فيها».

وهو يرى في كتاب (علماء الدين قراءة في الأدوار والمهام، ص٧٨) أن رجل الدين الناجح هو الذي يشارك الناس آلامهم وآمالهم، ويتصدى لخدمتهم والإحسان إليهم.

الملمح الرابع: يرى الشيخ أن «سلامة العلاقات بين أفراد المجتمع، وبين شرائحه وقواه المختلفة، ثم بين المجتمع وسائر المجتمعات، ضمن الأسرة الإنسانية، يشكّل هدفًا أساسًا، ومقصدًا رئيسًا لآيات القرآن وشرائع الدين. من هنا تناولت نسبة كبيرة من الآيات القرآنية قضايا العلاقات الاجتماعية كمنهج عام وكتشريعات جزئية»[1].

وبعد استعراضه للعديد من الآيات التي تؤكد على مبدأ التعارف

(١) كتاب: النهوض الاجتماعي، ص٤٤..

والاحترام المتبادل بين الأمم والحضارات البشرية، والحوار والتعايش؛ يخلص إلى القول: «ويفترض في الأمة التي تحتضن القرآن أن تعيش أفضل استقرار اجتماعي، بالالتزام بمبادئ العدل والحرية واحترام الكرامة وحفظ الحقوق. لكن نظرة فاحصة لأوضاع الأمة تكشف ما تعانيه الكثير من مجتمعاتها من فقدان الاستقرار الاجتماعي».

ويمكننا في هذا الملمح أن نرصد العديد من الكلمات المفتاحية التي ركز عليها كثيرًا في خطاباته وكتاباته؛ من مثل التواصل والتعايش والتلاحم والتعاون والتسامح والتعارف والتنافس الإيجابي، والانفتاح على الآخر، والحوار والتقريب وتكامل الأدوار والحقوق، والوعي بالمسؤولية الاجتماعية، ونبذ النزاعات والصراعات وغيرها.

الملمح الخامس: يدعو الشيخ بكثافة إلى إيجاد المؤسسات الاجتماعية الأهلية، وذلك في سياق اهتمامه بالعمل المؤسسي الذي يكون له الدور الأكبر في مسيرة تقدم المجتمعات واستدامة تلك المسيرة. ومن يطالع متابعات الشيخ في المجلدات العشرة من كتابه (مسارات) سيشهد دعمه للمؤسسات القائمة وللقائمين عليها، ودعواته المتكررة إلى إنشاء مؤسسات أهلية جديدة تسد بعض الثغرات الموجودة بالفعل في الميدان الاجتماعي. ويرى سماحته بأن «مستوى العمل الأهلي والنشاط التطوعي لا يزال ضعيفًا جدًّا في مجتمعاتنا، ولا يتناسب أبدًا مع التحديات التي نواجهها، ولا مع حجم الطاقات التي نمتلكها، ولا ينسجم مع مفروض انتمائنا لدين عظيم يحمّل أبناءه المسؤولية تجاه واقع البشرية جمعاء»[1].

---

(١) كتاب: المؤسسات الأهلية وحماية الأمن الاجتماعي، ص٢٩.

الملمح السادس: تتوزع خطابات الشيخ الاجتماعية على دوائر مجتمعية عدة: المحلي، والوطني، والإقليمي، والإسلامي، والعالمي. ويجمعها الإنسان الذي استخلفه اللَّه في الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها لما يحقق كرامته وإنسانيته، ويحفظ حقوقه وحقوق الآخرين.

الملمح السابع: ينطلق الشيخ دائمًا من النصوص الدينية لتأسيس أو تأكيد الأفكار الاجتماعية التي يدعو إليها، وتوجيه النقد لما يراه من قراءات خاطئة للدين تبعد الناس عن الفاعلية والتقدم الاجتماعيين. يقول سماحته: «وتحتاج مجتمعاتنا، وخاصة الأجيال الناشئة منها، إلى الثقافة الدافعة نحو العمل، والمحركة باتجاه الإبداع والانطلاق. ويمكن للتوجيه الديني أن يقوم بدور أساس في هذا المجال، لأن مفاهيم الإسلام وتعاليمه تستهدف بناء شخصية الإنسان العامل الكادح، الذي يتطلع إلى عمارة الأرض وتسخير الكون، وتحقيق خلافة اللَّه تعالى في هذه الحياة»[1].

هذه ملامح سبعة بارزة في الخطاب الاجتماعي للشيخ حسن بن موسى الصفار. وهي ليست نهائية، إذ يمكن الحديث عن غيرها أيضًا، فالشيخ مدرسة في العمل الاجتماعي لا يمكن الإحاطة بكافة أبعادها في مقال واحد. ولكن هذا من باب ما لا يدرك كله لا يُترك كله.

(١) كتاب: العمل والفاعلية طريق التقدم، ص٢٩.

الشيخ حسن الصفار ومقومات القيادة

الأستاذ جاسم حسين المشرَّف[1]

سماحة الشيخ حسن الصفار من أهم وجوه الحراك الفكري والديني والوطني؛ لما يحمل من مقومات لا تجتمع إلا في قيادي طموح، قد عرف وجهته، وتمثل هدفه، وملك زمام أمره، وأتقن توجيه أشرعته مهما اشتدت الرياح واغبرت الأجواء وعتت الأمواج.

هذه الشخصية العصامية لا تعرف الجمود، ففي كل يوم له شأن، وفي كل ساعة له عمل، يحمل من سعة الأفق وبُعد النظر ما يجعله في شغل عن صغائر الأمور.

ويملك من المعرفة الغزيرة، والثقافة الواسعة، والخبرة المتراكمة، وقوة الحضور، ولطف الاستيعاب، وسمو الأخلاق، وبلاغة التأثير ما يجعل

(١) أديب وكاتب – الأحساء.

جليسه ومستمعه وقارئه يذعن له بالمكانة والفضل.

ولديه من روح المبادرة ما يجعله في طليعة المتواصلين مع جميع الأطياف والتوجهات الفكرية، والدينية والاجتماعية، مؤكدًا على المشتركات التي تفتح مسارات من التعاون، معطيًا نقاط الخلاف التي قد تكون لدى هذا الطرف أو ذاك حجمها الطبيعي دون مبالغة أو إجحاف.

لبق في نقده رفيق مع مخالفيه، حازم في مواقفه، لا يجامل على حساب الحقيقة التي سعى إليها واقتنع بها.

وبالرغم من كثرة محبيه والمحيطين به ممن يتشرفون بخدمته إلا أنه يأبى إلا أن يقضي أعماله الخاصة بنفسه.

ولا يسمح لأحد بخدمته فيما تصل إليه مقدرته.

الوجيه هو وجه المجتمع في همومه وتطلعاته وحاجاته، لا يتوانى في بيانها لمن بيده أمر هذا المطلب أو غيره، وهكذا كان وما زال سماحته، متصديا لما فيه نفع مجتمعه، مستثمراً علاقاته الممتدة والعميقة، ومكانته لخدمة مجتمعه ووطنه.

لا يعتذر من خدمة أحد كائناً مَن كان مَن اختلف معه ومَن ائتلف مثلاً بمثل، ويجتهد في إيجاد السبل الموصلة لقضاء حاجة مَن قصده، ولا تمنعه كثرة مشاغله من متابعة هذه القضية أو تلك حتى انقضائها.

والبناء الحضاري لأي أمة عملية تكاملية تقوم على تناسق الأدوار وتقدير المواهب، ولا يمكن اختزال قيمة الإنسان في جانب-مهما علا وعظم-على حساب بقية الجوانب.

وحاجتنا للعالم العامل «العارف بزمانه» لا تقل قيمة عن حاجتنا للفقيه المتبحر، والعارف العابد وهكذا في جميع المهن التخصصات.

وفي خطابه وكتابته يحرص على اختيار ما يهم المجتمع وما يلامس حاجته برؤية واضحة وفكرة ناصعة ولغة قريبة للمتلقي، بعيدة عن تعقيد المصطلحات، وتشابك الخلافات.

ينبذ الجمود في قراءة النصوص والتفرد في الرأي، والادعاء المطلق للحقيقة، فالحقيقة مشاعة للجميع ولا يقطع بها إلا من عصمهم الله تعالى.

تلك الطاقة المعرفية والخبرة الواسعة والمتابعة اللحظية للأحداث جعلته قارئاً بارعاً للواقع الديني والاجتماعي والسياسي ومشخصاً حاذقاً ذا رأي منطقي ومتزن بعيداً عن المثالية المفرطة.

جوانب شخصية سماحته متعددة ومتشابكة وتجربته ممتدة جديرة بقراءتها والاستضاء بها، فَـ«في التجارب عِلمٌ مستأنف» كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام

جاسم المشرَّف

٢ شعبان ١٤٤٣

الشيخ حسن الصفار والموازنات الخمس

الأستاذ الشيخ زكي عبدالله الميلاد[1]

قدَّم سماحة الشيخ حسن الصفار تجربة فكرية وإصلاحية مهمّة، تطوَّرت هذه التجربة وتراكمت على مدى عدَّة عقود من الزمان، ظلَّت تتَّسع في أفقها متخطِّية حدود منطقة الخليج والجزيرة العربية، ممتدَّة إلى المنطقة العربية، وقد وصلت إشعاعاتها إلى أجزاء متفرِّقة من بلدان العالم الإسلامي، مسجِّلًا بهذه التجربة حضورًا لافتًا يمكن أن يُؤرَّخ له في تاريخ تطوُّر الفكر الإصلاحي الإسلامي المعاصر.

في هذه التجربة جمع الشيخ حسن الصفار بين موازنات فكرية وعملية دقيقة ميَّزت تجربته، وتفارقت بها مقارنة بتجارب مصلحين آخرين، من أبرز هذه الموازنات:

(١) مفكر وكاتب - القطيف.

أولًا: الجمع بين الشفاهية والكتابية، بين الخطاب الشفهي والتأليف الكتابي، بين اللسان والقلم. فمن جهة يُعدُّ الشيخ حسن صاحب مكتبة صوتية كبيرة تخطَّت في تعدادها أربعة آلاف تسجيلًا صوتيًّا، ومن جهة أخرى يعدُّ صاحب مكتبة تأليفية تخطَّت في تعدادها مائة كتاب. وله في هذين المجالين سيرة طويلة وحافلة بدأت منذ وقت مُبكِّر، وتنامت مع مرور الوقت وتطوَّرت، وحافظت على ديمومتها ولم تنقطع أو تتوقَّف في جميع المحطات الزمنية الداخلية والخارجية التي عاصرها الشيخ حسن في سيرته الفكرية والإصلاحية.

ففي مجال الخطابة، يُذكر في سيرة الشيخ حسن أنه مارس الخطابة الدينية بدءًا من سنة ١٩٦٨م، وكان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة. ويعدُّ الحدث الذي غيَّر مجرى حياته، وفارق بينه وبين أقرانه ومن ينتمون إلى جيله، ورسم له دربًا جديدًا، لم يكن متاحًا أو مألوفًا بشكل كبيرة بالنسبة إلى الكثيرين في مجتمعنا آنذاك. ومن ثَمَّ فقد أصبحت له سيرة يُعرف بها بين الخطباء، ويُؤرَّخ لها عند أهل المنبر، ووصل إلى درجة بات يُحسب من طبقة الخطباء الكبار والمميَّزين أداءً وخطابًا.

وفي مجال الكتابة والتأليف، كانت للشيخ حسن كذلك سيرة مُبكِّرة ترجع إلى سنة ١٩٧٤م، مع صدور باكورة تأليفاته كتابًا موسومًا بعنوان: (الصوم مدرسة الإيمان)، وكان عمره آنذاك ستة عشرة سنة تقريبًا. ثم توالت بعد ذلك هذه التأليفات وتواصلت ولم تتعثَّر أو تتوقَّف عامًا بعد عام، امتدَّت لأكثر من أربعين عامًا، أثمرت حصيلة كبيرة من التأليفات فاقت المائة كتاب، وضعت الشيخ حسن في عداد المؤلفين المعروفين بغزارة التأليف والإنتاج الفكري.

وتتأكَّد أهمية هذه الموازنة عند معرفة أن الطابع العام الغالب على الخطباء وأهل المنبر هو الاستغراق في الخطابة بعيدًا عن التأليف، أو ارتفاع وتيرة العناية بالخطابة وانخفاض وتيرة العناية بالتأليف، بشكل لا يُحقِّق توازنًا متعادلًا أو متقاربًا بين هذين المجالين. وأما عن جانب الكتابة والكتَّاب فإن الطابع العام الغالب عليهم -أيضًا- هو الاستغراق في الكتابة بعيدًا عن الخطابة، أو ارتفاع وتيرة العناية بالكتابة وانخفاض وتيرة العناية بالخطابة، قاصدين بها البيان الشفهي، بشكل لا يُحقِّق توازنًا متعادلًا أو متقاربًا بين هذين المجالين.

وقد استفاد الشيخ حسن كثيرًا من هذه الموازنة، فالخطابة وفَّرت له منبرًا حيويًّا ومؤثّرًا للتعبير عن أفكار ومواقفه، ووجد فيه أكبر فرصة أتاحت له إمكانية الإشهار والإعلان عن أفكاره ومواقفه. والكتابة وفَّرت له أفقًا حيويًّا لبلورة الأفكار والمواقف وتنضيجهما، ومثَّلت له زادًا معينًا لمنبر الخطابة، وأسهمت في دعم المحتوى وقوَّة المضمون، جعلت منه صاحب منبر مُتَّسم بأفقه الثقافي الإصلاحي والتنويري.

ثانيًا: الجمع بين التواصل الجماهيري والتواصل النخبوي، وهذه من الموازنات الدقيقة التي عُرف بها الشيخ حسن الصفار وطَبعت تجربته الفكرية والإصلاحية. فمن جهة تمكَّن الشيخ حسن من التواصل مع الوسط الجماهيري العام محقِّقًا نجاحًا واضحًا في هذا الشأن، متميّزًا بخطابه الجماهيري القريب إلى أذهان الناس على تعدُّد فئاتهم الاجتماعية، وتمكَّن من جهة أخرى من التواصل مع الوسط النخبوي محقِّقًا كذلك نجاحًا واضحًا في هذا الشأن.

وقد حافظ الشيخ حسن على هذا التواصل المزدوج بطريقة فعَّالة وحيوية، فتواصله مع الوسط العام بقي متواصلًا ومحافظًا على فعاليته ولم ينقطع أو يتوقَّف، ولم يبرد أو يفتر، ولم يكن مؤقَّتًا بوقت ولا محدَّدًا بزمن. وكان راغبًا بقوة في هذا التواصل، ومندفعًا إليه، ومتمسِّكًا به، مؤكِّدًا بصورة مستمرَّة على أهميته الفائقة. وهكذا في تواصله مع الوسط النخبوي من أهل العلم والفكر والثقافة والأدب والإعلام والسياسة وغيرهم، فقد بقي الشيخ محافظًا على التواصل مع هؤلاء بلا توقُّف أو انقطاع. فلا التواصل الحيوي مع الوسط العام منعه أو حجبه من التواصل مع الوسط النخبوي، ولا التواصل الحيوي مع النخب منعه أو حجبه من التواصل مع الجمهور العام.

وتتأكد أهمية هذه الموازنة كذلك، عند معرفة حالة الانقسام أو التباعد في الجمع بين هذين النمطين من التواصل عند البعض، فهناك من يرغب أو يُفضِّل أو لا يُحسن إلَّا التواصل مع الجمهور العام، ويكون منقطعًا أو باردًا أو سلبيًّا في جهة التواصل مع النخب على أقسامها، في المقابل هناك من يرغب أو يُفضِّل أو لا يُحسن إلَّا التواصل مع النخب على أقسامها، ويكون منقطعًا أو باردًا أو سلبيًّا في جهة التواصل مع الجمهور العام.

وهذه الموازنة -أيضًا- أفادت كثيرًا الشيخ حسن، فتواصله الفعّال مع الجمهور العام عزَّز من موقعيته الاعتبارية مع النخب، الذين تعاملوا معه بوصفه صاحب رصيد جماهيري كبير، كما وجدوا فيه صاحب خطاب جماهيري يفتقدون إليه ويُدركون أهميته وفاعليته. وتواصله مع النخب استفاد منه في تحصيل مشورتهم بما يُعزِّز خطابه الفكري التواصلي مع الجمهور العام.

ثالثًا: الجمع بين فعل الحركة وفعل الثقافة والإنتاج الثقافي، وهذه من الموازنات الصعبة والدقيقة التي عُرف بها كذلك الشيخ حسن الصفار وطبعت تجربته الفكرية والإصلاحية. فمن جهة عُرف الشيخ حسن بفعل الحركة متمثِّلًا في النشاط المستمر والدؤوب الذي لا يهدأ ولا يتوقَّف، ولم يكن في قاموسه مكان لشيء اسمه التعب أو الكسل أو الخمول، كان وما زال على هذه الحال منذ أن سلك هذا الدرب، وهذا ما يعرفه عنه كل من عاصره وعايش تجربته. كما عُرف من جهة أخرى ليس بالإنتاج الثقافي فحسب، وإنما بغزارة الإنتاج الثقافي على مستوى النشر والتأليف. فعامل الحركة بالنسبة إليه لم يكن عائقًا أو مانعًا أو مُعطِّلًا لناحية العناية بالإنتاج الثقافي، كما أن الالتفات إلى الإنتاج الثقافي والعناية به لم يكن عائقًا أو مانعًا أو مُعطِّلًا لناحية العناية بفعل الحركة.

أمام هذه الموازنة تفارقت سيرة الكثيرين من المصلحين في الأزمنة الحديثة والمعاصرة، بين من غلّب فعل الحركة في سيرته الإصلاحية وعرف بهذا الفعل نشاطًا وسلوكًا، مُتفوِّقًا على فعل الإنتاج الثقافي الذي شهد تقلُّصًا أو تراجعًا أو غيابًا في سيرة هؤلاء، ويبرز من هؤلاء ويتقدَّم في الأزمنة الحديثة السيد جمال الدين الأفغاني الذي وسم حركته الإصلاحية بفعل الحركة، مُتفوِّقًا بهذه السّمة على الكثيرين من المصلحين في عصره وما بعد عصره.

وبين من غلّب فعل الإنتاج الثقافي في سيرته الإصلاحية وعرف بهذا الفعل نشاطًا وسلوكًا، مُتفوِّقًا على فعل الحركة الذي شهد تقلُّصًا أو تراجعًا أو غيابًا في سيرة هؤلاء، ويبرز من هؤلاء ويتقدَّم في الأزمنة المعاصرة الشيخ محمد جواد مغنية في لبنان الذي وسم حركته الإصلاحية بفعل الإنتاج الثقافي الواسع والغزير، مُتفوِّقًا بهذه السّمة على كثير من المصلحين في

عصره وما بعد عصره.

رابعًا: الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وقد عُرف الشيخ حسن الصفار بهذه الموازنة الفكرية الدقيقة وطبعت تجربته الفكرية الإصلاحية، فمن جهة نرى الأصالة متجلِّية بقوة في كتاباته وتأليفاته وأحاديثه، قاصدين بالأصالة العودة والاستلهام من المصادر الإسلامية الرئيسة والفرعية، الكتاب والسنة (سنة النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام جميعًا)، والتراث الإسلامي (تاريخًا وفكرًا ومعرفةً). ومن جهة أخرى نرى المعاصرة متجلِّية بقوة كذلك في كتاباته وتأليفاته وأحاديثه، قاصدين بالمعاصرة الانفتاح على التراث الإنساني وعلى المعارف الحديثه.

في هذه الموازنة نجد الشيخ حسن يذهب بعيدًا في أصالته لكنه لا يغفل أبدًا عن معاصرته، ونجده -أيضًا- يذهب بعيدًا في معاصرته لكنه لا يغفل أبدًا عن أصالته، في دلالة منه على وعي شديد بهذه الموازنة. كما أن التمسك بالأصالة لم تمنع الشيخ حسن من توجيه النقد إلى بعض الظواهر وبعض الممارسات في ساحة الاجتماع الديني.

وتتأكد أهمية هذه الموازنة عند ملاحظة ما نراه من اختلالات حادثة ظهرت في ساحة الفكر الديني، خصوصًا في هذه الأزمنة المعاصرة، فهناك من تغلَّبت معاصرته على أصالته، وهناك من تخفَّفت أصالته بسبب معاصرته، وهناك من قادته معاصرته إلى التخلِّي عن أصالته، إلى جانب من دفعت به معاصرته إلى الانقلاب على أصالته مندفعًا إلى نقدها والتهجُّم عليها، وهكذا تتعدُّد الظواهر والحالات كاشفة عن اختلال هذه الموازنة بين الأصالة والمعاصرة.

خامسًا: الجمع بين الهمّ الوطني والهمّ الإسلامي العام، وقد عُرف الشيخ حسن الصفار بهذه الموازنة كذلك وطبعت تجربته الفكرية والإصلاحية، فمن جهة نلحظ الهم الوطني حاضرًا في كتاباته وتأليفاته وأحاديثه ومتجلِّيًا، ومن جهة أخرى نلحظ الهم الإسلامي العام حاضرًا -أيضًا- في كتاباته وتأليفاته وأحاديثه ومتجلِّيًا. فلا الهم الوطني صرفه عن الالتفات إلى الهم الإسلامي العام، ولا الهم الإسلامي أخذه بعيدًا من الاقتراب إلى الهم الوطني.

وكان من ثمرة الهمّ الوطني أن قاده لأن يسجل حضورًا مشهودًا في المجال الوطني، والهمّ الإسلامي قاده لأن يسجل حضورًا مشهودًا في المجال الإسلامي العام. وفي المنظور الإسلامي فإن الرابطة الوطنية على مستوى الأوطان لا تتعارض أو تتصادم مع الرابطة الإسلامية على مستوى جماعات المسلمين.

هذه لعلها من أبرز الموازنات التي عرف بها الشيخ حسن الصفار، وطبعت تجربته الفكرية والإصلاحية.

الشيخ الصفار..
نظرة خاطفة على الجانب الخطابي

الأستاذ سلمان محمد علي العيد[1]

حينما نتحدَّث عن الشيخ الوالد حسن بن موسى الصفار، فإننا نتحدَّث عن جوانب عدة، ارتبطت بحياة ومسيرة هذه الشخصية الوطنية الدينية الفذَّة.

وأظنني -وللحق- لست بالأقدر للحديث عن الكثير أو العديد من الجوانب، عدا أنني سوف أتطرَّق للجانب الخطابي في حياة الشيخ حسن الصفار، فهو -مع تعدُّد مواهبه- ابتدأ حياته العلمية والثقافية خطيبًا، صعد المنبر ولمّا يبلغ العشرين من العمر، وقد شبَّهه عدد من الناس بكبار خطباء المنبر الحسيني لدى الشيعة الأمامية في الفترة التي ظهر فيها وهي السبعينات الميلادية.

ومن ينظر في السيرة العطرة لهذا الرجل يجد أنه دخل هذا المضمار مبكِّرًا فصار متميِّزًا، ومبدعًا، وليس من قبيل المبالغة بات «مدرسة» في

(١) إعلامي وروائي وكاتب - تاروت.

الخطابة، التي هي من الفنون الأدبية، الملازمة لكافة الشخصيات الراغبة في التأثير، فإمام الجماعة، والقائد السياسي، والمصلح الاجتماعي، لا بد أن يملك هذه الموهبة، ولنا في النبي وآله الطاهرين القدوة الحسنة في هذا الجانب، فكلّهم خطباء موهوبون، فالنبي الأعظم هو «أخطب الناس»، والإمام علي هو «إمام البلغاء والخطباء»، وفاطمة الزهراء تملك زمام هذا الأمر، وعلى النهج ذاته سار الأئمة الطاهرون، فالحسن والحسين وعلي بن الحسين... خطباء، ليس هذا وحسب بل حتى أبناء الأئمة مثل السيدة زينب عليها السلام، ولو أردنا إيراد الشواهد على ذلك لطال بنا المقام، وحوادث التاريخ تحكي هذا الأمر، بشكل مفصل.

بين الخطبة والخطيب:

وعلى ضوء القراءة السريعة لعدد من الإصدارات الأدبية (القديمة والحديثة على حدٍّ سواء) فقد تناول العديد من أصحاب الرأي والتنظير في هذا الشأن، وكلّها جاءت بناء على تجارب معينة، نتجت عبر تاريخ طويل من الخطابة، بعضها تتعلّق بالخطبة (أو الكلم)، وبعضها تتعلّق بالخطيب، عدا أن التركيز يتم على مسألة التناغم والانسجام والتوافق بين الخطيب وخطبته، بين المتحدِّث وكلمته، فالخطبة الناجحة لا تأتي -في الغالب- إلّا من خطيب ناجح، بغض الطرف عن المضمون الذي يسعى إليه هذا الخطيب، فقد يكون المضمون مُختلَفًا حوله، ولكنه يمثّل قناعة لدى الخطيب.

ولعل من أبرز ما يورده المتحدّثون عن المسألة الخطابية هو أن تكون الخطبة «واضحة، مركَّزة، بعيدة عن الإخلال في الطول أو القصر»، وغير ذلك، بينما يتحدّثون عن صفات معينة في الخطيب (بعضها ذاتي والآخر

مكتسب) لعل أبرزها الفصاحة وطلاقة اللسان، والشجاعة ورباطة الجأش والثقة بالنفس والغزارة العلمية والثقافية، والإخلاص، والموضوعية، وحسن المظهر ودِقَّة العبارة واللين وغير ذلك.

السؤال: ماذا عن الشيخ حسن الصفار في هذا الشأن؟

من ينظر في سيرته يرى أن خطبه تتَّسم بكونها من «السهل الممتنع»، يعالجها بلغة سهلة بعيدة عن التعقيد، لا تتعارض أبدًا مع كافة قواعد النطق والنحو والصرف واللغة بشكل عام، ولعل ما يُميِّز الشيخ حسن الصفار في كافة خطبه، وربما كانت ميزة يفتقدها الكثير من الخطباء حتى الكبار منهم، وهي مسألة التركيز، فالشيخ حسن الصفار يتحدث لمدة ساعة أو أكثر عن موضوع واحد، لا تتَّصف خطبه بأيٍّ من «شوائب» التشتيت والتِّيه اللفظي، فالخطبة منسجمة مع الخطيب في كل شيء، فالخطبة «مركَّزة» والخطيب منضبط غير مُتشتَّت.

وبالطبع لم تأتِ هذه القدرة إلَّا نتيجة المراس الذي تخطَّى الخمسين عامًا من العطاء وصعود المنبر في مختلف المحافل، والتي تطوّرت بفعل المِران والممارسة، إلى درجة أن الخطبة التي يعرضها الشيخ حسن الصفار تتحوّل إلى منتج ثقافي يصلح للنشر الكتابي، مع قليل من المعالجات التي تُحدث الفارق بين الأدب الكتابي وقرينه الأدب الخطابي، وهذه ليست متيسِّرة عند العديد من الخطباء.

ومن المعروف أن الشيخ حسن الصفار يعرض أفكاره ومشاركاته الخطابية في عدة مواقع:

أولًا: المناسبات الدينية التي عرف بها الشيعة الإمامية، وهي مناسبات أهل البيت.

ثانيًا: صلاة الجمعة، وهو أمام جمعة وجماعة.

ثالثًا: المناسبات الثقافية في الداخل والخارج (الندوات والمؤتمرات).

وكل موقع يقتضي أن تكون الخطبة ملائمة للمناسبة. وحتى يتحقَّق الغرض فلا بد أن يتم ما يقدّمه الشيخ الصفار منسجمًا مع الهدف الذي يراد منه، فما نجده هو القدرة على التركيز وإيراد الأمثلة والشواهد الدقيقة التي لا تخرج عن إطار الكلمة، لأن من القواعد الأساسية في أي منتج أدبي (مقالة أو خطبة بالتحديد)، أن تبدأ بفكرة أو معلومة أو قضية، وتنتهي بها، وإن اختلف التعبير في البداية عنه في النهاية، وهذا ما يجعل الفكرة أسرع في الوصول إلى المتلقي ومن ثَمَّ التفاعل معها، وهذا أحد أبرز أهداف الخطابة، وهي نفسها -بطبيعة الحال- أحد أهداف الخطيب.

ولأن الشيخ الصفار خطيب مميز، لذلك تكون خطبه مميزة، فالخطبة المميزة تأتي من الخطيب المميز، ولا يتصوّر أن تأتي خطبة جيدة من خطيب متواضع الإمكانية، فلا يمكن أن يأتي «باقل» بخطبة مثل خطبة «قس الأيادي».

بين الشكل والمضمون:

وفي الجانب الآخر، وعلى صلة بالموضوع الآخر، فإن الخطاب الناجح -كما هو الشعر والمقالة والرواية- يتوفَّر على تطابق الشكل والمضمون، تلك النظرية التي شغلت العرب منذ زمن طويل، وحرَّرها عبدالقاهر الجرجاني وحسمها في نظرية النظم والإعجاز الدلالي للقرآن الكريم، وقد أكد بأن قوة المنتج الأدبي تأتي من الشكل والمضمون معًا، فللجمال مواطن، ومواطن الكلم قد تأتي من أشكالها، ولكن الشكل إذا افتقد مضمونه بات بلا فائدة ولا

جدوى، ولا يُحقّق أيّة متعة فكرية أو فنية.

والناجح -في الطرح الأدبي المكتوب أو المسموع- هو الذي يُحقِّق المعادلة، التي تصعب على البعض، فلا يُتصوّر أن خطيبًا أو كاتبًا يطمح للتأثير في الآخر (مضمونًا) يقدّم فكرته بألفاظ صعبة وعبارات تنطوي على بعض الأخطاء اللغوية أو التركيبية أو النحوية وما شابه ذلك. والحال نفسه من يملك ناصية البلاغة والفصاحة وطلاقة اللسان وهو بدون مضمون يذكر.

وقد توّصل العديد من علماء اللغة إلى أن الجمال والتأثير يأتي من اللفظ والمعنى معًا، وهذه المعادلة موجودة وظاهرة عند حديث الشيخ حسن الصفار، فتجد خطابه خاليًا من كافة الشوائب والأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية، فضلًا عن اتِّسامه بالوضوح ودقَّة العبارة وسلامة اللفظ، في الوقت نفسه تجد أن مضامين الخطب تلامس الحياة العامة للمتلقّي الذي يقصده الشيخ الصفار، فهو يسعى للتأثير عليه وتنميته فكريًّا وثقافيًّا وروحيًّا وأخلاقيًّا.

ولم يأتِ هذا الربط بين الجانبين لدى الشيخ حسن الصفار إلَّا لكونه:

أولًا: رجل دين، والدين يدعو لإصلاح واقع البشر في الدنيا والآخر (المضمون)، لكنه يؤكد على الدعوة بالتي أحسن (الشكل). فهو يأخذ وينهل من كتاب اللَّه، وسنة رسوله، وسيرة السلف الصالح من آل البيت الطاهرين، فهم فُضّلوا بالعلم (المضمون) والفصاحة والبلاغة والبيان (الشكل)، وهو بذلك يسير على هذا النهج.

ثانيًا: رجل إصلاح اجتماعي، والقضايا الاجتماعية لا تحل بالضبابية بل بالصراحة والتحليل والتقييم والتقويم... إلخ (وكلها قضايا مضمونية)،

وحتى نصل إلى ذلك لا بد من دقَّة في المعالجة وآلية عميقة في الطرح (الشكل).

وهنا ملاحظة دقيقة -ربما يعالجها من يتطرَّق لحياة الشيخ حسن الصفار- هو أنه في كثير من كلماته وإصدارته يؤكّد على المضمون الديني، لكنه يعرضه بصورة جريئة وصريحة ولكنّها بعيدة عن العنف والاستبداد، فهو من أشد دعاة الحوار بين كافة الأطياف، فالحوار لا يتصوَّر أن يتم إلَّا بأسلوب ووسيلة راقية وجادَّة.

بين الفطرة والاكتساب:

في الطرح الخطابي للشيخ حسن الصفار نجد أن ثمَّة مواصفات منبعها الموهبة والفطرة، وهي نعم أنعمها اللَّه على بعض عباده، قام برصدها وتطويرها ورفدها، وبعضها جاءت من الصفات المكتسبة الناجمة من التحصيل والمثابرة والمتابعة والاطِّلاع.

فكيف تم ذلك؟

في هذا الصدد يورد منظِّرو المسألة الخطابية العديد من المواهب الفطرية التي تعدُّ من الصفات والمواهب اللازمة لأيِّ خطيب ناجح ومميَّز، نجدها حاضرة في سيرة الشيخ حسن الصفار، وذلك بمستويات مختلفة وبدرجات متفاوتة، قد يتفوَّق ببعضها على غيره من ممارسي الخطابة، نجد أبرزها:

١- طلاقة اللسان: ويعدُّ اللسان أداة الخطيب الأولى، بل هو أساس الخطابة، فلا يُتصوَّر أن خطيبًا يطمح للتميُّز والتأثير يفتقد هذه الموهبة،

التي لا تتوافر لكل أحد، وإن كان كافة الناس يملكون القدرة على الحديث والكلام، لكن هل كل أحد يملك الطلاقة والقدرة على الحديث العام، أمام الناس؟

٢- وهذا ينقلنا إلى الصفة الثانية وهي حسن الصوت، وجهارته، والتي هي موهبة أيضًا، تلتقي مع طلاقة اللسان، فمن يكن لسانه طلقًا، قد لا يكون صوته حسنًا، لذلك فدوره في العرض الخطابي يعاني من النقص في مسألة التأثير، فالصوت الحسن الطلق يُمهِّد لعملية التأثير في المتلقي.

فمن يملك هذه الصفتين قد لا يكون خطيبًا مؤثّرًا ما لم يملك الصفة الثالثة وهي:

٣- الثقة بالنفس ورباطة الجأش، وكلّها مسميات تحت محور «الشجاعة»، فالخطيب إذا كان متردِّدًا خائفًا من الجمهور لن يكون خطيبًا من الأصل.

٤- سرعة البديهة: وهي صفة فطرية تجعل من الخطيب ذا قدرة على مواجهة الموقف في حال طرأ عليه، وهذا وارد في عالم الخطباء، إذ يتعرَّضون لمواقف لا تنفعهم سوى سرعة البديهة والقدرة على التصرُّف واتِّخاذ القرار المناسب.

٥-قوة الشخصية: وهذه الصفة تابعة للصفات الأخرى، تدعم عملية التميُّز لدى الخطيب المتحدّث، وهي -في الغالب- صفة فطرية لا يتمتع بها كل أحد، من أبرز سماتها التفاعل مع الأحداث الجارية، ورجاحة العقل والبعد عن التقييمات الشخصية.

هذه الصفات -رغم تقسيمنا لها- هي متداخلة مع بعضها، ومتتابعة ومتتالية، تأتي الواحدة لتطلب الأخرى، وفي حال اجتمعت في شخص ما تجعله -بفضل اللَّه- ذا قابلية للتأثير، وهي -بالمناسبة- قابلة لأن يقوم صاحبها برفع مستوى وتيرتها وتأصيلها في الذات، وقد تأتي بعض العوامل لتُسهم في تقويتها أو إضعافها.

وهنا يأتي دور الصفات الأخرى اللازمة للخطيب، والتي هي صفات اكتسابية يتم تحصيلها بالجهد والمثابرة والاطّلاع والدراسة والحضور في المجتمع، ولعل أبرز هذه العلوم هي علوم اللغة والأدب، والتاريخ والاجتماع والثقافة والشريعة... إلخ. وكل هذه المواهب -الفطرية أو المكتسبة- تتأصَّل بالممارسة، فالخطابة هي «ملكة وموهبة» تتأصَّل وتتوسَّع وتتعمَّق بالممارسة، وهذا يتطلَّب الصبر والمداومة.

وإذ شئنا التفصيل في هذا الشأن نورد توصيات علماء الخطابة، وأبرزها:

- الخطيب الناجح هو المستمع الناجح.
- الخطيب الناجح دائم التحضير (أي يملك القدرة والشجاعة والحديث في أيِّ وقت)، فلا يصعد منبرًا بدون تحضير، اعتمادًا على ذاكرته.
- الخطيب الناجح من يملك القدرة على تنفيذ حكمة «لكل مقام مقال».
- الخطيب الناجح من يملك ذاكرة قوية.

لو طبَّقنا كل هذه الصفات على الشيخ حسن الصفار (حفظه اللَّه) نجدها

واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فهو موهوب منذ نعومة أظافره، وهبه اللَّه الجرأة لأن يصعد المنبر وهو صغير في السن، ومارس الخطابة وقام بتطويرها وتطوير ذاته حتى بات مميَّزًا في العرض، لا ننفي -بالطبع- البيئة المحيطة من قبيل تشجيع الوالد المرحوم الحاج موسى ابن الشيخ رضي الصفار، فضلًا عن ارتباطه بالمقدَّس السيد محمد المهدي الشيرازي الذي كان بطبيعته يُشجِّع المواهب خصوصًا في مجال الخطابة والتأليف.

فمن خلال البيئة المنزلية (ولا نريد الإطالة في هذا الشأن)، مع البيئة العامة، فضلًا عن أن كون الشيخ ضمن البيئة الدينية الشيعية، التي هي منبع لتخريج المواهب في مجال الخطابة، وذلك لوجود أجواء عامة تتيح المجال لكل أحد أن يكون خطيبًا، ويبقى -بعد ذلك- المجال متاحًا للمنافسة الشريفة، ونجد أن الشيخ الصفار دخل هذا المضمار وكان من المميَّزين.

أسرار النجاح:

إن حضور الشيخ حسن الصفار لأيِّ مناسبة فهذا عنوان لنجاحها، نقول هذا بدون مبالغة ولأسباب موضوعية، فالحضور إلى الشيخ يأتون -في العادة- على ثلاثة أنماط؛ نمط يكنّ الولاء والحب للشيخ فيرغب في الحضور لمجلسه إيمانًا بما يملكه الشيخ من ثقافة غزيرة ومعلومات جديرة وتوجيهات سديدة. ونمط يرغب في الاستفادة الشخصية انطلاقًا من قناعة بأن الشيخ الصفار يحمل شيئًا سوف يقوله. ونمط ثالث يختلف مع الشيخ ويرغب في معرفة رأيه وتوجُّهه، فقد يتَّفق وقد يختلف (وهو الأغلب لدى هذا النمط)، وكل هذه الأنماط ترغب في معرفة رأي الشيخ الصفار حيال الموضوع المعلن عنه إذا كان المجلس ذا عنوان بارز، وإذا لم يكن كذلك فإن

الشيخ يعد «بوصلة» لجملة من التوجُّهات العامة يرغب البعض في معرفتها، بغض النظر ما إذا كان هذا البعض متَّفقًا أو مختلفًا مع الشيخ الصفار في أيٍّ من التوجُّهات.

بالتالي فإن جذب الجمهور للخطيب يعدُّ نجاحًا، ويرجع ذلك لجملة من المقوّمات، التي ذكرنا بعضها أعلاه، لنضيف لها أن الشيخ -رغم مواهبه وثقافته العالية- قد ألزم نفسه بكافة آداب الخطباء ذوي النزعة القيادية والراغبة في التأثير، إذ يوجد بعض الخطباء من يحمل شعار «ألقِ خطبتك وارجع بيتكم»، ومن جملة الآداب -وهي كثيرة- الإخلاص في الطرح، والتواضع في تقبُّل الرأي الآخر، فضلًا عن احترام الجمهور بتقديم مادة علمية جديرة قد أجهد الشيخ نفسه لتقديمها كوجبة ثقافية ذات علاقة جدلية بالحياة اليومية، يعرضها بأسلوب راقٍ لا تجعل أحدًا يندم بأن أضاع ساعة أو ساعتين للاستماع للشيخ.

كما لم ينسَ طوال حياته العملية الالتزام بالآداب الظاهرية التي هي شروط الخطيب الناجح من قبيل: حسن المظهر، وحسن الهيئة، والالتزام بأدب الاختلاف، والابتعاد عن العنف اللفظي في الحديث، واعتماد شعار «الدعوة بالتي هي أحسن»، والابتعاد الكلي عن كافة العيوب المعروفة في الخطابة، والتي منها التكرار والأخطاء اللغوية والنحوية، وهو -طوال حياته- يبتعد كثيرًا عن الإطالة في الخطاب.

لذلك لا تجد خطابه مُمِلًّا ولا باعثًا على السأم والنعاس.

ذلك ما أمكن قوله عن الجانب الخطابي لدى الشيخ حسن الصفار، وأما الجوانب الأخرى فلها رجالها واللَّه أعلم.

عقليةٌ منفتحةٌ وبصيرةٌ واعية

السيد شفيق محمد الموسوي[1]

أن تكتب عن قامة علميّة شامخة شموخَ التواضع والرساليّة، هي أن تدخل إلى عالَم مليء بالطهارة والنُّبل، وأن تقف أمام عالِم أعطى حياتَه ووجودَه للإسلام، ونذرَ نفسه للمسلمين بكلِّ أطيافهم وتنوّعاتهم، مدافعًا عن قضاياهم، ساعيًا لجمع شملهم، عاملًا على تضييق فجوة الخلاف فيما بينهم، رافعًا شعار الأخوّة القرآني ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[2]؛ لأنّه على قناعة تامة بأنّ هذه الأمة محكومة بضرورة توحيد جهودها وطاقاتها وإمكاناتها لتترجم عمليًّا أنّها خير أمّة أُخرجت للناس علميًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وحضاريًّا وإنسانيًّا، وبرأي سماحة العلّامة الحجّة الشيخ حسن الصفّار، هذه الأمة قادرة على صنع كلّ ذلك؛ لأنّ ما تختزنه من علم ووعي ومسؤولية، وبإرادة شبابها

(١) كاتب وباحث لبناني.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٠.

وحكمة شيوخها، تستطيع أن تكون الأمة الأرقى وعلى المستويات كافة.

هذا ما يُؤمن به سماحته دامت بركاته، وهنا لنا الشرف وفي هذه العُجالة أن نلقي الضوء على بعض الأثر الفكري المبنيّ على قواعد إسلامية أصيلة، الذي رسم معالمه ورؤاه ومناهجه على مدى عقود عدّة، من خلال كتاباته ومحاضراته الكثيرة المتنوّعة والشاملة، والتي بنت ثقافة إسلامية واعية، تصلح أطروحة عملية تستطيع مجتمعاتنا الإسلامية أن تتّخذها منهجًا إسلاميًّا يرسم الخطوط العامّة لحلّ مشاكل الشباب، والوقوف عند قضايا المرأة والتنمية والوحدة والأصالة وما شاكل ذلك، ويحدّد الأطر والمضامين لنشر ثقافة التسامح والانفتاح على الآخر، بالإضافة إلى رؤية شاملة واضحة لكيفية الدعوة إلى اللّه، من خلال خطاب إسلامي واعٍ يُدرك أهمّية الكلمة والأسلوب للدخول إلى عقول وقلوب الناس، مع إيمان عميق بالابتعاد عن التجريد وطرح النظريات غير القابلة للحياة إلى ساحة العمل والتطبيق، حيث من خلال ذلك يقدّم سماحته إسلامًا قرآنيًّا قادرًا على إدارة الكون والإنسان والحياة.

وسأحاول وباختصارٍ آملًا ألّا يكون مخلًّا بما سأتحدّث عنه حول بعض أفكار سماحة الشيخ الصفّار وآرائه، وسأتناول بدايةً رؤيته حول مخاطر الانغلاق والتقوقع على الذات والتمترس حول أفكار قرأ أصحابُها النّص الإسلامي بعقلية متكلّسة رافضة لأيِّ اعتراف بالآخر مدّعية أنَّ بيدها وحدها مفاتيح الجنّة، وأنّها الفِرقة الناجية ولا أحدٌ ناجٍ غيرُها...

الانفتاح على الآخر:

ولأنّ سماحته يتميّز بعقلية منفتحة وبصيرة واعية، فإنّه أدرك بعمق أنَّ هذا الإسلام العظيم ديدنُه المحبّة، لذا، ومن خلال نهجه الإسلاميّ أدرك أنّ

من تجلّيات هذا الدين، الانفتاح على الآخر ونبذ العنف ومحاربة الكراهية، انطلاقًا من قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «النّاس صنفان، إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[1].

ولتحقيق ذلك برأي سماحته «لا بدّ من تضافر الجهود الواعية، لصناعة أجواء صالحة، ولخلق أرضية جديدة تنمو فيها بذور الانفتاح والحوار، لتتعارف الجهات فيما بينها، وتكتشف نقاط الالتقاء وموارد الاختلاف، ولتُثري كلُّ جهةٍ معارفها وأفكارها من خلال انفتاحها وحوارها مع الآخرين، وليأخذ الاختلاف مساره الإيجابي في إذكاء حالة التنافس المعرفي، وشحذ الإرادات والهمم لتقديم العطاء الأفضل، والقيام بالدور الأنفع»[2].

وبنظره الثاقب يرى سماحته أنَّ سقوط فكرة الانفتاح على الآخر وعدم الحوار معه يأخذنا إلى واحد من خيارين:

- إمّا هيمنةُ إرادةٍ معيّنةٍ وخضوع الآخرين لقوّتها، لكن مع شعورٍ بالغبن وتحفّز للانتقام والثأر.
- وإمّا سيادة ثقافة التناحر والتغالب التي تكرّس انغلاق كلِّ طرفٍ على ذاته[3].

وكلا الأمرين يجسّدان الغرور الذي ينمّي الكِبْر في النفوس وخديعة التفوّق على الآخر، ويأخذان نحو الاحتراب، ويصبح حاضر الأمّة حاضرًا قلقًا، تُبرز معه العصبيّات أنيابها، ويعلو صوت الحقد والكراهية، وبدل أن

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٨٣.
(٢) الشيخ حسن بن موسى الصفار، الحوار والانفتاح على الآخر، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ص٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٦٣.

تهتم الأمةُ بالتنمية الاقتصاديّة والاجتماعية والتكنولوجية والعلميّة وما يطوّر واقعها ويأخذها نحو الأحسن، فإنّها وللأسف تُسقط ذلك من قاموسها وتلجأ إلى أن تبحث في الكتب الصفراء، عن تكفير الآخر وتفسيقه وتضليله إضافةً إلى نشر ثقافة البغض بدل المحبّة، وثقافة العنف بدل السلام والمودّة، وثقافة القتل والموت بدل ثقافة الحياة..

ومن هنا، فإنَّ سماحة العلّامة الحجّة الشيخ الصفّار أدرك خطورة ذلك مبكِّرًا خلال حياته العمليّة، ولأنّه كان ينطلق من حركيّة قرآنية رساليّة.

كان يدقُّ ناقوس الخطر، متلمّسًا خطوات رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[1].

لم يوفّر سماحتُه فرصةً أو لقاءً أو مقالةً أو خطبةً أو حوارًا أو مقابلةً مكتوبةً أو مرئيةً إلّا وكان يؤكّد على احترام الآخر والاعتراف بوجوده، وهذا ما يوفّر للمجتمع الأمن والسلام والاستقرار، ولأنّ سماحته يعيش في قلب المجتمع بكلِّ آماله وآلامه، ولا يعيش في أبراج عاجية، بل مع الناس، قريبًا منهم ومن مشاكلهم، فإنّه تميّز بحركيّة العمل وسَعَة الأفق، فعُرف بضبط ما تعاني منه مجتمعاتنا، وما السبيل للخروج من المآزق، ولذا، فإنّه ومنذ ما يقارب العقدين وفي كتابه (كيف نقرأ الآخر) كتب (حفظه المولى):

«الجهل بالآخر والقراءة الخاطئة له هي نتاج خلل اجتماعي ثقافي.. فالمجتمع السويّ تعبّر فيه كلّ الأطراف عن نفسها، وتُظهِر آراءها ومواقفَها

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

بصراحةٍ ووضوح، حين تتوفّر الحرية للمجتمع، وتتساوى فرصُ التعبير عن الذات، فتتعرّف الأطراف على بعضها بشكلٍ مباشر دون وسائط وحواجز.. أما إذا سادت المجتمع أجواءٌ غيرُ عادلة، وعانت بعض أطرافه من التهميش والتمييز، فستجد نفسها مضطرة إلى الانكفاء والانطواء، ممَّا يفسح المجال لتشويه صورتها من قِبَل الأطراف ذات المصلحة في تغييبها وتهميشها..

وعلى الصعيد الثقافي، فإنَّ الثقافة السويّة تدفع نحو الانفتاح على الآخر، والمعرفة الموضوعية له، والتفاعل معه أخذًا وعطاءً، واحترام خصوصياته»[1].

وعن مخاطر الجهل يقول سماحته: «إنّ الجهل بالآخر والخطأ في قراءته يشكّل ظلمًا للذات والآخر، حيث يحرم الإنسان نفسه من معرفة الحقيقة ويضلِّلها عن إدراك الواقع، ما يمنعه من التفاعل الإيجابي مع الآخرين. كما أنَّ ذلك ظلم للآخر بإساءة الظن فيه، وبخسه حقّه، وقد يؤسّس للحيف والعدوان عليه.

وعلى المستوى الاجتماعي والوطني فإنّ جهل أطراف المجتمع ببعضها يؤدّي إلى انعدام قدرتها على التعاون والانسجام، ويهدّد وحدة المجتمع وتماسكه، ويفتح ثغرةً في جدار أمن الوطن واستقراره.

إنَّ التعرّف على الآخر الداخلي لم يعد مجرّد مسألة ثقافيّة فكريّة، بل أصبح قضية اجتماعيّة وطنيّة تتأثّر بها وحدة المجتمع وترتبط بالاستقرار والأمن الوطني»[2].

(١) كيف نقرأ الآخر، ص٩.
(٢) كيف نقرأ الآخر، ص٩.

ولأنّ الآخر واقعٌ موجود لا يمكن التنكّر له أو إلغاء وجوده، فإنَّ سماحة الشيخ (حفظه اللَّه) حدّد بدقّة الآخر، مَن هو؟ انتماؤه؟ توجّهه؟ انتسابه لمنهجٍ ما، اعتقاده برؤية دينية أو اجتماعية أو ثقافية؟ فيقول:

«لسنا مخيّرين في وجود الآخر، فهو حتميّة اقتضتها حكمة اللَّه تعالى في الخلق لتكون الحياة أكثر ثراءً، وليشحذ التنافس هِمَمَ أبناء البشر، ويفجّر طاقاتهم ﴿**وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُختَلِفِينَ**﴾[1].

والآخر هو المختلف عنا في أي جانب من الجوانب التي نهتم بها، فقد يكون آخر من حيث انتمائه الاجتماعي، لعرق أو قومية أو قبيلة.

وقد تكون آخريته لجهة انتسابه الديني والثقافي، لمبدأ أو مذهب أو مدرسة فكرية.

كما يكون اختلاف التوجُّه السياسي أو النهج السلوكي سببًا لتشكيل الآخرية.

وهكذا يتحدَّد الآخر في مختلف دوائر اهتمامات الإنسان ومجالات تركيزه.

والآخر قد يكون جزءًا من بيتنا العائلي وأسرتنا الصغيرة، حيث قد يختلف الدين أو المذهب أو المسلك بين الزوجين وبين الوالدين والأولاد، وفيما بين الإخوة الأشقّاء.

وقد يكون جارًا لنا في السكن أو زميلًا لنا في العمل.

وفي إطار أوسع قد يكون شريكًا لنا في الوطن والانتماء الحضاري.

---

(١) سورة هود، الآية ١١٨.

وعلى المستوى الدولي هناك جوار جغرافي وتشابك في المصالح خاصة في عالم اليوم الذي أصبح قرية كونية واحدة.

ما يعني أنَّ الآخر جزء من حياتنا كأفراد وشعوب ودول نتداخل معه، ونتأثر به ونؤثّر فيه، إنه لا يمكن إلغاء الآخر وإلَّا الانفصال عنه كلِّيًّا.

تلك هي الحقيقة التي لا مراء فيها ولا يمكن تجاهلها.

بَيْدَ أنَّ الامتحان الحقيقي أمام الإنسان هو مدى قدرته على تنظيم علاقته مع الآخر أخذًا وعطاءً، حتى لا يصبح التمايز سببًا للجفاء والعداء، بل دافعًا للتنافس الإيجابي والتعاون والتكامل والإثراء»[1].

علماء الدين.. الدور والمسؤوليّة:

وأنتقل إلى رؤية أخرى من رؤى سماحة الشيخ (حفظه اللَّه)، وتهدف هذه الرؤية إلى إبراز دور علماء الدين الذين يتحمّلون مسؤولية نبويّة عمادها إخراج الناس من الظلمات إلى النور، والعمل على إقامة مجتمع العدل والكرامة، والإسهام في الحثّ على العلم وعلى إنتاج أفضل الطرق والوسائل لرقيّ المجتمع وتقدّمه، وعلى الدفاع عن المظلومين والانحياز للفقراء والمساكين لإخراجهم من حالة العوَز إلى حالة الاكتفاء، ومن حالة الخوف والقلق إلى حالة الأمن والأمان.

لعالم الدين وظيفةٌ ترقى إلى مستوى شديد الخطورة والأهميّة، فبالإضافة إلى كونه المتخصِّص في تبيان أمور الحلال والحرام، وتوضيح المناهج الإسلامية في التربية والأخلاق والتفسير والعقيدة أو ما شاكل

(١) كيف نقرأ الآخر، ص٥-٦.

ذلك، فهو كونه نال حظًّا من العلم الربّاني، فإنّ المسؤولية تقع على عاتقه في صناعة الإنسان، الإنسان الذي يقدّم لواقعه أرقى النماذج في التطوير والتقدّم والإبداع وعلى المستويات كافة.

هذه الرؤية ومن خلال ما وضع سماحة الشيخ الصفار (حفظه اللّه) قواعده، هي الرؤية الإسلامية الأصيلة، منطلقًا من أصالة قرآنية أبرزت بوضوح المقام الرساليّ للعلماء، حيث يقول تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[1].

وممّا جاء عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «فضل العالِم على العابد، كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء»[2].

وعن أبي عبيد اللّه عليه السلام، قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «يجيء الرجلُ يوم القيامة، وله من الحسنات كالسّحاب الرّكام أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا ربّ أنّى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمُك الذي علّمته الناس يُعمل به من بعدك»[3].

انطلاقًا من هنا، فإنّ سماحته وأمام ما رأى ما يواجه الأمّة من واقع متخلّف ومأزوم، جعلها في الصفّ الأخير من الرّكب الحضاريّ العالمي، وهذا أكبر تحدٍّ تواجهه الأمّة، ومن هنا، أكّد سماحته على أنَّ «علماء الدين هم الجهة المعنيّة أساسًا بهذا التحدّي الذين يواجهه الدين اليوم... (حيث) تعيش الأمة الإسلامية واقعًا متخلّفًا عميق الجذور، فبينها وبين ركب

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.
(٢) البحار، ج٢/ ١٩/ ٤٩.
(٣) بحار الأنوار، ج٢، ص١٨.

الحضارة المادية المتقدّم مسافة شاسعة»[1].

ولأنّ هناك مصاعب ومشاكل، اقتصادية وسياسية تحيط بواقع الأمة، كان من الضروري أن تُوضع البرامج لمواجهة وحلّ المشاكل وإزالة الصعاب، وهذا يتطلّب توحيد جهود النّخب في الأمة للخروج من شرنقة التخلّف، «والأنظار -برأي سماحة الشيخ- شاخصةٌ نحو علماء الدين لكي يتصدّوا لإبداع المناهج وابتكار البرامج المنبثقة من وحي الدين، والتي تساعد الأمة على إنجاز عملية النهوض والتغيير، وترسم أمامها طريق المستقبل الحرّ الكريم»[2].

إنَّ سماحته يعطي لعالِم الدين دورًا، كما هو دور الأنبياء عليهم السلام في استنهاض البشرية من كبوتها وفي إخراجها إلى عالِم أكثر رقيًّا وحضارةً وإبداعات على المستويات كافة.. ولذا، فهو (حفظه اللَّه) يذكّرهم ويحثّهم ليأخذوا دورهم من دون تردّد أو خوف أو تعطيل لقدراتهم، فيخاطب فيهم روح الاستنهاض، ومذكّرًا بأنّ الأمة تنتظر أن يكونوا في موقع القيادة لأنّ «علماءَ الدين بما يحملون من هدي الرسالة، وما يملكون من تأثير روحيّ على الناس، وموقعية ونفوذ في أوساطهم، يشكلون رصيدًا ضخمًا ومخزونًا هائلًا من القدرة والإمكانية إذا ما وظفوا في مشروع النهضة والبناء الحضاري، فسيخلق أمواجًا من الفاعلية والنشاط، وسيدفع بحركة الأمة أشواطًا بعيدة إلى الأمام»[3].

ولأنَّ سماحة الشيخ (حفظه اللَّه) بصيرٌ بواقع الأمّة، وخبيرٌ بشؤونها

(١) الشيخ حسن الصفار، علماء الدين: قراءة في الأدوار والمهام، ص٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠.
(٣) المصدر السابق، ص١٠.

وشجونها، ويعرف نتيجة التصاقه بالجماهير المسلمة في الكثير من بلاد العالم، مكامن الضعف والخلل، فإنّه بقدر ما يحفّز علماء الدين للقيام بالنهضة، فإنّه يعرف أنَّ «أكثر علماء الدين لا يدركون خطورة الموقعية التي يمثّلونها، ولا يعرفون حجم القدرات التي يمتلكونها، ولا أهمّية الدور الذي يُمكنهم أداؤه لمصلحة الدين والأمة، ولذلك ينطوون على أنفسهم ويكتفون بممارسة أدوار تقليدية محدودة، وكما يأخذ على علماء الأمة عدم الأخذ بدورهم الرسالي، يأخذ على جماهير الأمّة جهلها مدى مسؤولية علماء الدين، لذلك تسكت على تقاعسهم وتقبل منهم اليسير من المهام الدينية المألوفة»[1].

وانطلاقًا من القاعدة القرآنية ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ**﴾[2]، فإنَّ سماحته يضع علماء الدين أمام مسؤولياتهم قائلًا: «المطلوب من علماء الدين في هذا العصر، بالدرجة الأولى، تجديد مناهج الاجتهاد في الدين لاستنباط الحلول والمعالجات لما يواجه البشرية من مشاكل وأزمات، وذلك يقتضي فهم قضايا العصر، والانفتاح على تطورات العلم والحياة والتحرّر من ضيق الأفق والقوالب الجاهزة في التفكير، ما يُفقد الاجتهاد معناه، ويحوّل العلماء المعاصرين إلى مقلّدين ومتّبعين لآراء السالفين»[3].

وأختم هذا الحديث عن هذه الرؤية بتحديد دقيق لما ينبغي أن يكون عليه علماء الدين ليستطيعوا أن يساهموا في عملية النهوض والتقدّم والرّقي الحضاري، فيقول (حفظه اللّه): «علماء الدين ليست مهمّتهم إصلاح أمور الناس في الآخرة فقط عبر توجيههم إلى عبادة اللّه وطاعته، بل هم معنيون،

(١) المصدر السابق، ص١٠.
(٢) سورة الغاشية، الآية ٢١.
(٣) الشيخ حسن الصفار، علماء الدين: قراءة في الأدوار والمهام، ص١٠.

قبل ذلك، بإدارة شؤون الناس في الدنيا وإصلاح أوضاعها.

ذلك أنّ الدين الذي يحملون رسالته ليس برنامجًا للنجاح في الآخرة فحسب، بل هو نظام لإسعاد الناس في الدنيا قبل ذلك.

يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[2].

و«بالدنيا تُحرز الآخرة» كما يقول الإمام علي عليه السلام.

و«ليس منّا مَن ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه» كما في حديث آخر. و«أعظم الناس همًّا المؤمن يهتمّ بأمر دنياه وأمر آخرته» كما يُروى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

وذلك يعني أنّ على علماء الدين الاهتمام بمختلف شؤون المجتمع، وأن يوجّهوا عنايتهم لجميع حقول الحياة»[3].

لا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إنَّ سماحة العلّامة الحجة الشيخ الصفار كان عالمًا موسوعيًّا، فكما أنّه فقيه كان قرآنيًّا، وكما هو صاحبُ نظرات اجتماعية، فهو -أيضًا- باحثٌ في قضايا الأسرة، وكما له باعٌ في الاقتصاد والعلاقات الدولية، هو صاحب رؤية إسلامية في حقوق الإنسان.

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠١.

(٣) الصمدر السابق، ص١٣.

خبيرٌ بعالَم النّفس البشريّة:

وهنا نطلّ على رؤاه فيما عالجه ووضع له الحلول في القضايا النفسيّة التي تُقلق واقع الإنسان وكيف له السبيل للخروج من مآزقه النفسيّة، ونتوقّف عند مفردة من المفردات التي تنتاب واقع الإنسان وهي الخوف والرُّهاب- الفوبيا، حيث قام سماحته بإصدار كتاب تحت عنوان: (كيف نقهرُ الخوف؟)، وفي هذا الكتاب نجد الثقافة الواسعة التي تميّز به (حفظه الله) وهو بذلك يعطي الصورة الأصيلة عن عالم الدين الذي يتحدّث بلغة العصر، ويعرف كيف يخاطب الناس بلغة العصر، بلغة إسلامية قرآنية ترمي إلى سعادة الإنسان ليس في الآخرة فحسب، بل في الدنيا التي هي مَعبرٌ للآخرة.

ولذلك فهو من خلال علم النفس عندما يتحدّث عن الخوف يقول: «الخوف الذي نتعرّض له بالدراسة هو تلك الحالة النفسية غير الطبيعية التي تؤدي بالإنسان إلى الخوف من أشياء غير واقعية، وهي حالةٌ مَرَضيّةٌ تقوم على أساس اختلال في التوازن النفسي سببُه القلق، والشعور المفرط بالذنب، وغيرها من الأسباب النفسية، ولها في علم النفس تعبيرٌ آخرُ هو (الرّهاب) أو (الخوف)، (الفوبيا) Phobie، وتصنّف حسب علم النفس ضمن أمراض (العُصاب).

ومن ضمن (الرهاب) أو المخاوف المَرضيّة التي اشتهرت في علم النفس - رهاب الخلاء ورهاب الاحتجاز ورهاب الاحمرار ورهاب المرض..[1] ويرى سماحته أنَّ هذه النماذج من الخوف هي ما يسلّط عليه الضوء المحلّلون النفسانيون، لكن نحن كإسلاميّين نسلّط الضوء على مفردة

(١) كيف نقهر الخوف؟ ص٢٦.

الخوف من خلال الرؤية الإسلامية، لنعطي الدواء والعلاج الإسلاميين لمن يرزح تحت وطأة الخوف.

ومن هنا، فإنّه يرى أنّ القرآن الكريم لم «يغفل عن هذه المشكلة ويتجاوزها وهو يسعى لتزكية نفس الإنسان وتوجيه سلوكه.. تحدّث القرآن عن مشكلة الخوف في آيات ومجالات عديدة.. وخلال جولة من التدبّر في مجموعة من الآيات القرآنية التي تتحدَّث عن الخوف تبيّنت لي الملامح التالية لنظرة القرآن الحكيم حول هذه المشكلة.. تبلغ الآيات التي تتحدّث عن الخوف بلفظة الخوف ومشتقاتها (١٣٤) آية في مختلف الشؤون والمجالات.. أمّا التي جاءت بلفظة «الخشية» فحوالي (٤٨) آية.. ومن المهمّ جدًّا أن ننتبه إلى أنَّ القرآن الحكيم تشكّل آياته توجيهًا متكاملًا للإنسان وعلاجًا لمشاكله النفسية.. فالحقائق الكونية والعقائد المبدئية والأحكام والآداب كلّها تؤدّي دورًا متكاملًا ومتفاعلًا في تزكية نفس الإنسان وعلاج مشاكلها..».

ويتساءل سماحته: هل في إمكان الإنسان أن يواجه الخوف عندما تُحدق به الأخطار الكبرى؟

يقول: «نعم، وذلك بتقوية الإرادة.. وتوطين النفس على مقاومة حالات «الخواف».. وفي توجيهاتنا الإسلامية «إن هِبْتَ أمرًا فقع فيه».

فأن يخاف الإنسان فهذا أمر طبيعي، ولكن يجب ألّا يكون الخوف عقبةً وحاجزًا أمام الإنسان يمنعه من التقدّم والاحتفاظ بالحرية والكرامة.. فالقرآن يعترف بواقعية الخوف لدى الإنسان، ولا يعدّه جريمة، إنّما الجريمة تكمن في سوء الاستفادة وفي الإفراط في ممارسة الخوف.. وأن يعدّ الخوف

عقبة في طريق تقدّم الإنسان وكرامته وحرّيته».

ثم ينقل سماحته صورًا من القرآن الكريم عن الخوف عند الأنبياء والأولياء الذين يتجاوزون حاجز الخوف ويقمعونه داخل أنفسهم، بقوّة إرادتهم وبتسديد من اللَّه تعالى.

وهناك خوفٌ يهذّب روح الإنسان، وهذا الخوف يكون مطلوبًا وحقيقيًّا وفي مجاله الصحيح.. وإنَّ أيّ قوةٍ يمكن أن يخشاها الإنسان في الحياة ويهابها لا تساوي ذرّة أمام قوة اللَّه تعالى.. وكلّ الأخطار التي يخافها الإنسان ويحذرها في الدنيا، ليست شيئًا أمام أخطار الآخرة ومصاعبها»[1].

فلماذا نخاف من القوى الزائفة؟

أليس الأصح والأولى أن نخاف من القوة الحقيقية المهيمنة وهي قوة اللَّه تعالى، إنّ الله تعالى يذكّرنا بهذه الحقيقة في آيات كثيرة: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاس واخشونِ**﴾[3][4].

ويحدّد سماحته معنى الخوف من اللَّه: «إنّه معنى الالتزام بحدود اللَّه وقوانينه.. ويعني احتضان القيم الإلهية، والعمل على نشرها وتطبيقها، والاستهانة بكلِّ قوّة أو خطر يقف في طريق ذلك.. فالمؤمنون المخلصون الذين يجسّدون حقيقة الخوف من اللَّه في أجلى صوره ومظاهره، حينما

(١) كيف نقهر الخوف، ص٤١-٤٣، بتصرّف
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.
(٣) سورة المائدة، الآية ٤٤.
(٤) كيف نقهر الخوف ص٣١-٤١ بتصرّف.

يتحمّلون مسؤولية الرسالة، ويعملون من أجل الحقّ والخير.. يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾[1].

وفي الفصل الثالث من كتاب سماحته (كيف نقهر الخوف؟) يغوص بعمق في داخل النفس الإنسانية، ويحدّد ما الذي يمنعُ هذه النفس من الانطلاق في الحياة وتحقيق أفضل الإنتاجات على الصعد كافة، فيجد أنّ الخوف من الفشل واحدٌ من هذه المعوقات عند كثير من الناس فـ«كلّ إنسان لديه طموح، وكلّ إنسان يريد أن يكون عظيمًا، أن يكون متقدّمًا، أن يكون متفوِّقًا، ولكن ليس كلّ إنسان يتخلّص من عقدة الخوف من الفشل. الخوف من الفشل هو ذلك الحاجز الذي يَحُول بين الإنسان وبين تفجير طاقاته، وبالتالي بينه وبين الوصول إلى أهدافه وأمانيه»[2].

وينصح سماحته بعدم الخوف من الفشل، ويطرح سؤالًا جوهريًّا: «لماذا يكون الفشل بعبعًا في نفسك؟» ويجيب: «إذا نظر الإنسان إلى الفشل كأمر طبيعي، ولم يضخّمه في نفسه، فإنّ عقدة خوف الفشل تتلاشى من قلبه، ولكنّه إذا تضخّم الفشل وصارت هذه العقدة عند الإنسان، حُرم الكثير من المكاسب، وأُصيب بالخيبة في حياته، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «قُرنت الهيبة بالخيبة»، الذي يخاف الفشل يصبح خائبًا في حياته لا يتقدّم ولا يتفوّق ولا تتفجّر طاقاته»[3].

ويُبحر سماحته في النفس الإنسانية أكثر، فكما هناك خوفٌ من الفشل،

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٩.
(٢) كيف نقهر الخوف، ص٩٦-٩٧.
(٣) كيف نقهر الخوف، ص١٠٠.

هناك الخوف من المشاكل لأنَّ «النّاس يتمنّون أن يعيشوا حياة مريحة، يريدون أن تكون الورود تفرش طريقهم دائمًا، وأن تكون حياتهم حياةَ رخاء وهدوء وسلام، ولذلك يتهيّبون تصوّر لحظات المشكلة ولحظات الصعوبة»[1]، ويأخذ سماحته على هؤلاء بأنّ عليهم أن يعرفوا أنَّ المشاكل والمصاعب شيءٌ طبيعيٌّ في الحياة، كما يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾[2]، ويقول أيضًا: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾[3] أي في معاناة، والحياة التي ليس فيها صعوبات وليس فيها مشاكل، ليست هنا في الدنيا، إنّها هناك في الدار الآخرة، إنّ الصعوبات والمشاكل والآلام هي طريق المجد والتقدّم»[4].

ويستفيض في الحديث عن الخوف من الموت، وكيف أنّ الإنسان تستولي عليه هذه الحقيقة، وكم كان سماحته رائعًا في الحديث عن أفضل طريقة للتعامل مع الموت، فيقدّم نصيحتَيْن؛ الأولى: «الاستعداد للموت: نحن كمسلمين نعتقد بلطف اللَّه ورحمته ونؤمن بالآخرة والحساب وبكلّ شؤون الغيب، لذلك، يمكننا أن نستقبل الموت بنفوسٍ واثقة مطمئنّة حينما نلتزم بحدود اللَّه ونطبّق تعاليمه في هذه الحياة.. فأولياءُ اللَّه لا يزعجهم الموت كثيرًا بل يعدّونه بطاقة دعوة لدخول جنّة اللَّه كما يقول تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[5]، والنصيحة الثانية: «ما دام الموت مصيرًا حتميًّا،

(١) المصدر السابق، ص١٠٥.
(٢) سورة الانشقاق، الآية ٦.
(٣) سورة البلد، الآية ٤.
(٤) كيف نقهر الخوف، ص١٠٦.
(٥) سورة الفجر، الآية ٢٧-٣٠.

ومستقبلًا طبيعيًّا لكلّ إنسان، فلماذا يترك الإنسان المبادرة بيد الموت ليفاجئه في أيّ لحظة، فيأخذ الإنسان دور الاستسلام والضعف أمام هجوم الموت المتوقّع؟

إنك ستموت حتمًا، فلماذا ترضى لنفسك بأن تموت مجَّانًا ومن موقع ضعف؟ بينما بإمكانك أن توظّف موتك من أجل قضيّة مقدَّسة، ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[1][2].

ولسماحته كلماتٌ في مواجهة الخوف، تفتح الطريق أمام الخائفين، ليعيشوا الأمن والأمان، ولتكون قلوبهم حازمة في مواجهة الخوف، كونها ممتلئة بالإيمان، وبأنَّ هناك ربًّا قادرًا يحفظ عباده الخائفين منه فقط، فيقول (حفظه اللَّه):

«لا أحد منّا يرضى بالواقع المتخلّف السيِّئ الذي تعيشه أمتنا وشعوبنا.. وقبل أن نبحث عن العوامل الخارجية التي فرضت علينا هذا الواقع، علينا أن نفتش في داخل أنفسنا، عن تلك الثغرات والنواقص والأمراض، التي أوصلتنا إلى هذا المستوى من الأوضاع. ومن أبرز تلك الثغرات والأمراض، هذا الشبح المرعب، والكابوس المخيّم على نفوسنا وهو مرض الخوف.. الخوف من الفشل.. الخوف من المصاعب والآلام.. الخوف من القوة.. الخوف من الموت. الخوف من كلّ شيء مجهول.. الخوف هذا الشبح المزيّف الذي يمنعنا من الإقدام، ويشلّ قدرتنا على التحرّك، ويبقينا أسرى لضغوطٍ واهية، وقوى ضعيفة.. إنّ علينا إذا ما أردنا تغيير واقع أنفسنا وأمّتنا، أن نبدأ بالثورة والتغيير في أعماق ذواتنا.. وأن نواجه هذا الشبح العدوَّ

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٤.

(٢) كيف نقهر الخوف، ص١١٧-١٢١ بتصرّف.

المزعج (الخوف) ونطرده من داخل نفوسنا.. لنتجاوز حاجز الخوف، وليفكر كلّ واحد منّا فورًا في أن يصبح بطلًا شجاعًا، ويقتحم بالفعل كلّ ما كان يتهيّبه ويخافه سابقًا من مجالات الخير والتقدّم.. ولا يقتصر واجبنا على أنفسنا فقط بل نحن مسؤولون عن إصلاح نفوس كلّ أبناء مجتمعنا، فلنعلن الثورة على الخوف.. ولتكن معركتنا مع شبح الخوف شاملة على الجبهات كافة، فنكافح الأفكار والآراء الخائفة الجبانة، والأساليب التربوية الخاطئة.. ومراكز القوى الخاضعة لإرهاب الخوف.. والأهمُّ من كلّ أولئك، تلك الجهات التي تعمل على نشر ثقافة الخوف، ومواقف الخوف في المجتمع.. لنعلن الحرب على كل هؤلاء، وبمختلف الوسائل والأساليب، حتى نطهّر نفوسنا ونفوس أبناء مجتمعنا من جراثيم مرض الخوف الفتّاك المعدي.. ولنزرع في نفوسنا ونفوس أبناء المجتمع، روح البطولة والشجاعة والإقدام. وعندئذ يحقّ لنا أن نطمح للتغيير، وأن ننتظر التقدّم، وأن نتوقّع الحرية..

ألم يقل ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

واللّه نسأل أن يعيننا على شرور أنفسنا، وأن يوفّقنا لتجاوز السلبيّات والنواقص والأخطاء، وأن يهدينا سواء السبيل إنّه خير موفّق ومعين»[2]..

حقوق الإنسان مبدأ إسلاميّ أصيل:

قلّما نجد عالِمًا يعطي لمسألة حقوق الإنسان هامشًا واسعًا لتأكيد هذه الحقوق.. والسعي لاحترام هذه الحقوق ينطلق من احترام إنسانيّة الإنسان

(١) سورة الرعد، الآية ١١.
(٢) كيف نقهر الخوف، ص١٦٥.

وتكريم اللَّه تعالى لهذا الإنسان.. وهذا ما كان محور تفكير سماحة العلَّامة الحجة الشيخ الصفار (حفظه اللَّه)، فإنّه غاص عميقًا في روح الخطاب الإسلامي ليجد أنّ هناك بَوْنًا شاسعًا بين حقوق الإنسان وبين بعض الخطاب الإسلامي الذي تقوقع على نفسه، وغيّب الروح الإسلامية السمحة التي تحترم الإنسان أيًّا كان هذا الإنسان إذا كان في موقع الحاجة، بعيدًا عن دينه وعرقه ووطنه.. ومن هنا، فإنَّ سماحته ومن خلال رؤيته الإسلامية الأصيلة، أعاد توجيه البوصلة نحو الاتّجاه الصحيح، نحو إعلاء الإسلام لشأن الإنسان منطلقًا من قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[1]، ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[2].

فالقرآن الكريم -كما يرى سماحته- أبرز قيمة الإنسان ومكانته التي وهبها إياه، بوصفه أفضل وأكرم مخلوق، إضافةً إلى «أنّ هدف القرآن الكريم تأصيل مبدأ كرامة الإنسان لإنسانيته أولًا وقبل كلّ شيء، فمن أيِّ عِرق انحدر وإلى أيّ دين وعقيدة انتمى، فهو إنسان له كرامته الذاتية»[3].

ولأنّ سماحته يتميّز بحسٍّ نقديّ وعقليّة منفتحة تقرأ النص المقدّس بعينين مفتوحتين، فإنّه يرفض أن تتجزّأ الكرامة الإنسانية، أيّ أن تكون للمسلمين وحدهم أو لأتباع مذهب واحد، من دون أي تخصيص لأصحاب دين أو مذهب معيّن.

وعلى هذا، فلا يحقّ تخصيص الكرامة الإنسانية بالمسلم فقط وما عداه

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
(٢) سورة التين، الآية ٤.
(٣) الشيخ حسن الصفار، الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان، ص٣٥.

تجوز هدرُ كرامته وأكل حقوقه؛ لأنّ الآية الكريمة صريحة واضحة في شمول تكريم اللَّه لبني البشر جميعًا.. وعلى هذا، فكرامة الإنسان أصلٌ وقاعدةٌ؛ لأنّ الآية تؤدّي «إلى تقرير أصل التكريم للإنسان كمبدأٍ فكريّ، وقاعدة فقهيّة، لا يصح تجاوزها إلا بمبرر مشروع ودليل واضح»[1].

ويأخذ سماحته على بعض الخطاب الإسلامي بأنّه لا يُولي اهتمامًا كبيرًا بالقضايا الإنسانيّة العامة، ولا يوظّف الجهود لمعالجة الكثير من المشاكل التي تنوء البشرية تحت ثقلها من مثل انتشار الأمّية والفقر ونقص الخدمات، علمًا بأنّ الرسالات جاءت لترشد الإنسان إلى أداء حقّ خالقه عليه بمعرفته والإيمان به.. ثم لتوجيهه لأداء حقوق الناس وبالتالي لاستقامة العلاقات الاجتماعية بين بني البشر جميعًا.

ويرى سماحته أنَّ النصوص حذّرت من التعدّي على حقوق الآخرين معتبرة أنّ هذا ظلمٌ لا يغفره اللَّه إلّا إذا غفره المظلوم.. وما يأسف له سماحته أنّ الخطاب الديني عند بعض المبلّغين يركّز على الدفاع عن حقوق اللَّه، ويُعطي ظهره للدفاع عن حقوق الناس، مع التأكيد على حقوق الحاكم على الرعيّة، وحقوق الزوج على زوجته، وحقوق ربّ العمل على العامل، أمّا تحذير الحاكم من الظلم والجَور، وتنبيه الزوج من غضب اللَّه في حال ظُلْمِ زوجته أو تقصيرِ الأب تُجاه أولاده، فهذا في آخر اهتمامات بعض الدّعاة والمبلّغين وللأسف الشديد.

وما يُرشد إليه سماحته، هو نصيحته إلى قيادات الأمّة بضرورة تطوير الخطاب إنسانيًّا، فيقول:

---

(١) المصدر السابق، ص٤٨.

«إنّ تطوير خطابنا الديني إنسانيًّا ليس مطلبًا كماليًّا، وليس قضية هامشية، بل هو ضرورة ملحّة تقع في الصميم من قضايا الأُمّة واحتياجاتها. إنّه سبيل إلى تحقيق مهام أساسية تأخّرت الأُمّة كثيرًا عن إنجازها وتحقيقها، وأبرزها ما يلي:

أوّلًا: إنجاز تقدّم على مستوى التنمية الإنسانية في مجتمعاتنا، حيث يعيش الإنسان واقعًا متخلِّفًا يفتقد فيه مقومات بناء الحياة الفاضلة، والتمتُّع بحقوقه الإنسانية المشروعة.

ثانيًا: النجاح في صُنع العلاقة السليمة مع الآخر داخل الأُمّة والوطن، وفي الخارج مع سائر الأُمّم والحضارات، حيث تعاني مجتمعاتنا من اضطراب العلاقة بين فئاتها وشرائحها، وحيث أقحمت الأُمّة في معركة صدام مع الحضارات والشعوب الأخرى بسبب توجهات التطرُّف والإرهاب.

ثالثًا: الإسهام في خدمة القضايا الإنسانية على الصعيد العالمي، لتكون الأُمّة بمستوى ما تتبنّاه من قيم الإسلام ومفاهيمه وشعاراته الرسالية العظيمة. إنّ القرآن يُقدِّم الإسلام مشروعًا للإنسانية جمعاء ﴿**وَما أرسَلنَاكَ إلا كافَّةً لِلنّاس**﴾[1]، ورسالة ورحمة وسلام لكلّ شعوب العالم ﴿**وَما أرسَلناكَ إلا رَحمَةً لِلعَالَمِين**﴾[2]، وإنّ أُمّة الإسلام يجب أن تكون رائدة الخير في المجتمع البشري ﴿**كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَاس**﴾[3].

فلا بدّ من خطاب يؤهِّل الأُمّة لهذا الدور، ويُقدِّم الإسلام للعالم على هذا المستوى.

(١) سورة سبأ، الآية ٢٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

هل من حقوق للإنسان في التشريعات الإسلامية؟

عن هذا السؤال يجيب سماحته فيقول: «لقد أكّدت آيات القرآن الكريم، قبل انبثاق مواثيق حقوق الإنسان في أوروبا بعشرة قرون، على كرامة الإنسان، وحفظ حقوقه المادية والمعنوية بكل تفاصيلها وجزئياتها، ورأت أنّ أيّ انتهاك لشيءٍ من هذه الحقوق يشكّل عدوانًا ومناوأة للّه تعالى ولدينه ورسله، تستوجب غضب اللّه تعالى وسخطه وعقوبته ونكاله. فالاعتداء على حياة فرد واحد من البشر يعدّه القرآن الكريم عدوانًا على البشرية جمعاء، وإبادةً لها، يقول تعالى: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[1]، والكرامة حقّ إلهيّ منحه الله تعالى للإنسان من حيث هو إنسان.. ويؤكد القرآن الكريم حريّة الإنسان في آرائه ومعتقداته.. وفي مجال حماية الحقوق المادية، يتوعّد القرآن الكريم مَنْ يسلب شيئًا من أموال الآخرين.. وعن حماية الحقوق المعنوية، يمنع الظنّ والغيبة والتجسّس»[2].

هذا في النظرية، وما هو واقع الاهتمام بحقوق الإنسان؟

يجيب سماحته بأنّنا نتباهى أمام الغرب بأنّ الإسلام سبق الحضارات باهتمامه بحقوق الإنسان.. «هذا لا شكّ صحيح نظريًّا..» أمّا على صعيد الممارسة والواقع فيجب الاعتراف بالقصور والتقصير، وهذا يعود إلى:

- عدم صياغة قانونية حضارية لقضايا حقوق الإنسان.
- ضعف الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان في الخطاب الإسلامي.
- واقع الانتهاك لحقوق الإنسان، في كثير من بلدان العالم الإسلامي[3].

(١) سورة المائدة، الآية ٣٢.
(٢) الشيخ حسن الصفار، الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان، ص٧٠-٧١ بتصرّف.
(٣) المصدر السابق، ص٧١-٧٥ بتصرّف.

وبحكمة العالِم بواقعه والذي يعيش عصره محصّنًا بثقافة قرآنية وبمعرفة واسعة بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ وسيرة الأئمة الأطهار، يرشد سماحته الأمة إلى العناوين الأساسية التي إذا ما تُرجمت على أرض الواقع يكون هناك حقوقٌ للإنسان، لا يعتدي فيها أحد على أحد، ويأمن الإنسان فيها على دينه وماله وعرضه من دون أي قمع أو إكراه..

إنَّ ما تطرّق إليه سماحة العلّامة الحجة الشيخ حسن الصفار (حفظه اللَّه) في كتابه (الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان) لم يجرؤ الكثيرون أن يطرقوا هذا الباب، لا لشيء سوى أنّهم ركنوا إلى السكون، وخافوا أن يقتحموا أبوابًا موصدة؛ لأنَّ فَتْحها يغذّي العقل، ويصقل الشخصية الإسلامية، وهم لا يريدون إلَّا أن يكونوا على هامش الحياة، وهذا ما يحقّق لهم الدَّعة والطمأنينة بعيدًا عن مواجهة التحدّيات وإبراز الإسلام الذي يبني الحياة والكون والإنسان، وهذا ما يتطلّب جهدًا وعرقًا ومواجهات تسبّب التعب وتغلق على المتحدّي أبواب الراحة.

لقد سدّ سماحته ثغرةً كبيرة في أدبياتنا الإسلامية نفخر أن نقدّمها للعالم بروحٍ إنسانيّة وحضارية مستلهَمَة من روح القرآن ومفاهيم الإسلام العظيم.

الشيخ الصفار..
الدور الاجتماعي ومسؤولية التبليغ

الأستاذة صباح عباس علي آل هاني[1]

سأتحدث عن التبليغ في البعد الاجتماعي والحياة الميدانية العملية، وسأترك الحديث عن التبليغ في البعد الفكري والنظريات البحثية الأكاديمية، لِأني في هذا المقال استهدف الطرح الأول وليس الثاني.

إن التبليغ هو البلوغ والبلاغ، وهو بلوغ أقصى المقصد، وليس أول المقصد. فالمبلغ مصطلح أعمق وأشمل وأوسع من المُوجِّه والعالم والخطيب والكاتب وغيرهم، فالتبليغ هو الوصول إلى أقصى المقصد وأقصى الحقيقة، وهو منهج وأسلوب للعاملين الفاعلين في الدعوة إلى اللَّه، والتبيلغ عملية تغييرية وعملية جذرية وليس عملية معلوماتية أو قناة إعلامية!!

ويتجلى واضحًا المعنى الحقيقي للتبليغ في أية التبليغ التي نزلت على

(١) كاتبة وناشطة في المجال الديني والاجتماعي – صفوى.

رسول اللَّه محمد ﷺ في غدير خم في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[1].

لقد أمر اللَّه تعالى نبيه أن يُقيم عليًّا إمامًا وعلمًا للناس، ويبلغّهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة، وكان أوائل القوم قد تقدموا في سيرهم باتجاه الجحفة، فأمر رسول اللَّه ﷺ أن يرّد من تقدَّم منهم ويحبس من تأخَّر عنهم في ذلك المكان، فلما اجتمع الناس نُودي لصلاة الظهر، فصلى النبي ﷺ بهم، فلما انصرف من صلاته قام فيهم خطيبًا وسط القوم على أقتاب الأبل وأسمع صوته جميع من كان حاضرًا، فاجتمع بين يديه ما لا يقل عن سبعين ألفًا وقيل مائة وثمانين ألفًا تحت لهيب الشمس الحارقة، وخطب خطبته التاريخية التي لم يذكر التاريخ خطبة مثلها في تاريخ الأنبياء، أجمع في اجتماع هذه الكثافة البشرية، وهذا الحشد الضخم، واستخدام أحدث الوسائل في التأثير والبيان والإقناع والإعلان كما تشير الدراسات في علم التأثير ولغة الجسد اليوم. لقد قدم رسول اللَّه ﷺ عرضًا أستوريًّا عالميًّا عن دوره التبليغي في إعلان الولاية لعلي عليه السلام ليبقى في ذاكرة الأمة حيًّا لا يموت، وفعل ما لم يستطع أحد أن يفعله من قبل ولا من بعد.

لقد قرَّب عليًّا عليه السلام منه وأمر بوضع أقتاب الإبل ليشكّل بها مرتفعًا يقف عليه خطيبًا يسمعه كل من كان حاضرًا، وأمر علي عليه السلام أن يعتلي المنصة بجانبه، وقد وضع يده الكريمة على كتف ابن عمه وقرَّبه منه وقال مقولته الخالدة:

«من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من

(١) سورة المائدة: ٦٧.

عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».. ورفع يده عاليًا حتى بان بياض أبطيهما في أجواء استثنائية واحتفالية عالمية حضرها خمسة أصحاب الكساء بأجمعهم.

لقد قام رسول اللّه ﷺ بدوره التبليغي كأروع ما يكون التبليغ، وأنهاه بأجمل صورة وأروع كيفية، ونزلت الآية الكريمة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[1].

فالتبليغ إذن هو الاستمرار والاستقامة في خط الدعوة وعدم التراجع للوصول إلى قمة المقصد ومنتهاه، باستحداث كل وسائل التأثير والإقناع، ثم الاستمامة من أجل تحقيق الأهداف المرجوة والمنشودة.

فحتى يكون المرء مُبلغًا لا يكفي أن يكون عالمًا، فقد يكون عالمًا ولكنه في الحقيقة غير مؤهَّل للقيام بدور التبليغ!!

فالمقصود بالتبليغ ليس التنظير، وليس السفسطائية، وليس نقل المعلومات للآخرين؛ لأن العلم بهذه الكيفية لا يحقق التبليغ، إنما يتحقق التبليغ بالقدرة على التأثير، والقدرة على البناء، والقدرة على التغيير. فالتبليغ هو الانخراط مع الناس ومع يومياتهم، فالمُبلغ يعيش آلامهم وآمالهم وأفراحهم وأتراحهم، ويجتهد ويعمل على إصلاح أمور الناس وتغيير وضعهم وتحسين أحوالهم، والأهم من ذلك هو: ترسيخ القيم الأخلاقية والمفاهيم الحضارية والمرتكزات الدينية في المجتمع.

وهنا في هذه السطور المتواضعة سأتحدث عن سماحة الشيخ حسن

(١) سورة المائدة: ٣.

موسى الصفار ودوره التبليغي ومسؤوليته الاجتماعية.

لقد قام الشيخ الصفار بدور المبلّغ الرسالي في خط الدعوة إلى اللَّه وفق أبجديات العمل الاجتماعي في مسيرته الثقافية والجهادية بما يلي:

الأبجدية الأولى: الاستمرارية في رحلة التبليغ وعدم التراجع:

إن المبلغين لرسالات اللَّه في الأرض يمارسون التبليغ في كل أوقاتهم، فهم لا يفترون ولا يتراجعون ولا يضعفون ولا ينهزمون، إنهم يبلغون في كل وقت وفي كل مرحلة وفي كل مكان، فأبرز صفة من صفاتهم أنهم يبلغون ويصرّون على عدم التوقّف وعدم التردّد وعدم الانسحاب.

والأنبياء عليهم السلام مثال حي لتبليغ الرسالة، إذ نقف على نماذج حية متجسّدة في حركتهم التبليغية، وهذه النماذج وهذه الشواهد من الآيات الكريمة تمثل وثائق تاريخية تكشف الواقع المرير والطريق الشائك المليء بالعقبات والمحن والخطوب، التي واجهها الأنبياء في طريق التبليغ والدعوة إلى اللَّه، ولم تزدهم تلك الآلام والمحن إلَّا ثباتًا وإصرارًا واستقامة، لقد كانت رحلتهم الجهادية مقرونة بالصبر والتحمل والمواجهة والتضحيات وهو عمل استثنائي ونوعي.

ففي سورة الشعراء تحدثت خمس آيات عن خمسة مواقف لخمسة من الأنبياء العظام وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في الآيات (١٠٩- ١٢٧- ١٤٥- ١٦٤- ١٨٠) في قوله تعالى على لسانهم عليهم السلام:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) سورة الشعراء: ١٠٩.

لقد استطاع الأنبياء قهر كل الظروف الضاغطة والأحداث المؤلمة بروح التحدِّي وامتلاك الروح الإيجابية المنفتحة والفاعلة والمؤثِّرة في مواجهة الواقع الفاسد بكل ما يمتلكون من قوة وطاقة وحيوية، كما أن عملهم لم يكن مساومة أو متاجرة بمنطق الربح والخسارة؛ لأن المبلّغ لا يتاجر بجهده وجده واجتهاده وعطائه أبدًا، بل كانوا عليهم السلام يعيشون همَّ المسؤولية بروح الإخلاص والذوبان الكامل في الأهداف.

وفي رحلة التبليغ للشيخ الصفار نجد روح الاستمرارية في نهجه التبليغي تجاوزت حاجز الخمسة والخمسين عامًا في حركة عطاء وعمل دؤوب مستمر بلا مؤشرات للتراجع فيها ولا للسأم أو الملل، بل همَّة عالية تُحلِّق صوب السماء، وطاقة إيمانية لا تتزلزل بحجم الجبال الرواسي!

يقول المفكر الإسلامي الأستاذ محمد المحفوظ:

«يتميَّز الشيخ الصفار بخطاباته الدينية الجريئة والمتميِّزة. وقد مارس الخطابة من عام ١٣٨٨ هجري الموافق ١٩٦٨م وعمره إحدى عشرة سنة، واستضافته العديد من المحافل الدينية والثقافية والاجتماعية لإحياء المناسبات الدينية، والمشاركة في المواسم الثقافية في القطيف والأحساء والبحرين والكويت وسلطنة عمان وقطر ودبي ودمشق وقم وطهران. ولديه مئات المحاضرات الدينية المسجلة والمبثوثة في بعض وسائل الإعلام المختلفة.

ومنذ استقراره في مدينة القطيف في عام ١٩٩٤ م، بعد هجرة دامت عقدًا ونصف العقد من الزمن، انشغل فيها الشيخ الصفار بأنشطة ثقافية واجتماعية وسياسية، وتحوَّل مجلسه العامر إلى منبر لإلقاء الدروس

والمحاضرات والاجتماعات الثقافية والاجتماعية والوطنية.

ولا زال الشيخ يواصل دوره الديني والاجتماعي والثقافي والوطني، وينشط على أكثر من صعيد، وذلك من أجل زيادة الوعي الديني في المجتمع، وترقيته ثقافيًّا وسياسيًّا وتنشيط مؤسسات المجتمع المدني»[1].

فالشيخ الصفار ماضٍ في منهجه الإصلاحي ودوره التبليغي برغم كل المُثبِّطات والعوائق والتحدّيات، فهو لازال صامدًا ثابتًا، فكما سخَّر كل إمكاناته وطاقاته لرحلة التبليغ الديني وهو ابن العشرين ربيعًا، وهو اليوم يحمل نفس الهاجس والدور والمسؤولية كذلك وعمره فوق الستين عامًا، ويتحرَّك بإرادته الفولاذية الجبارة وبنفس الفاعلية والهمة والعزيمة.

يقول العلامة الدكتور الشيخ عبدالهادي الفضلي في تقديمه لسلسلة كتاب (أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع) لمؤلفه سماحة الشيخ حسن الصفار:

«إن التبليغ الديني هو أهم واجب من واجبات العالم الديني والخطيب الديني، فعن طريقه ينشدّ المسلم عاطفيًّا بدينه ويرتفع إلى مستوى رسالته في هذه الحياة.

وقد أثبتت تجارب التثقيف والتبليغ أن نجاح من يقوم بذلك مرهون بمدى قدرته على ربط الفكرة بالواقع، ومقدار معرفته بنفسيات مستمعيه ودرجات وعيهم الثقافي.

وهذا ما نستطيع أن نلمسه في شخصية الشيخ الصفار، فهو من القلَّة

(١) أ. محمد المحفوظ، الشيخ الصفار.. منهجه الإصلاحي ومقاومة الخوف من التجديد.

الذين جمعوا بين رسالتي المسجد والمنبر، فقد تخرَّج من الحوزة العلمية بعد إتمام دراسته للعلوم الإسلامية، وشغل منصب العالم الديني في بلده القطيف.

وهو من أنشط العاملين في هذا المجال وبخاصة أولئكم النفر القليل الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة، وقد أفاد هذا بالإضافة إلى دراسته الحوزوية من قراءاته المتنوِّعة والمتعدِّدة، وإنك لتلمس هذا واضحًا في مؤلفاته ومحاضراته.

ويعدُّ في خطابته من الموهوبين، فهو يمتلك أدوات التأثير المنبري، ولديه آليات النفوذ إلى ذهنيات مستمعيه عن طريق مخاطبة عواطفهم.

إنه في أحاديثه هذه يدفع الفكرة دفعًا لتلمس واقع الناس، فتعمل على تغييره لما هو أفضل»[1].

الأبجدية الثانية: تجاوز حالات الانفعال ومواجهة الواقع بروح الأمل وعدم اليأس»

يمرُّ المُبلغ بمحطات قاسية في مسيرته العملية، وقد يولّد لديه أزمة نفسية خانقة تدفعه للشعور بالضيق والألم، وقد تقوده للانسحاب بسبب شعوره بالإحباط وعدم الجدوائية والألم، لكن ما نراه في حياة المُبلغين على العكس من ذلك، إذ لا تزيدهم المثبطات والنكبات إلَّا تألقًا وشموخًا وعنفوانًا، إنها تعصرهم عصرًا لِتُخرج أروع ما في أرواحهم وقلوبهم، فالمشاكل تعجن طينتهم، وتخرج أجمل ما لديهم من إمكانات وطاقات وقدرات.

والشيخ الصفار واجه في مسيرته الكثير من حالات الإحباط والانفعال

(١) مقدمة المرحوم الدكتور العلاَّمة عبدالهادي الفضلي، أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع، الجزء الأول، ص١٥.

والألم والمرارة في سنوات الهجرة وما بعدها، فلم يشعره ذلك بالخيبة، ولم يستسلم للحالات العاطفية التي يُشعل فتيلها بعض المغرضين والحاقدين والحاسدين والناقمين عليه. لقد كان ينظر إلى الواقع بعينين مفتوحتين تتطلَّعان إلى الأمور من جميع الزوايا والأبعاد، وكانت مواقفه وتصريحاته وخطاباته تدعو إلى مواجهة الواقع بروح التفاؤل والأمل، وعدم اليأس والقنوط وتجاوز السلبية والسلبيين. وكان ما يميّزه امتلاكه مهارة قانون الجذب والعمل على جذب الناس إلى الدين. لقد دأب الشيخ الصفار في حياته الاجتماعية وعمله التبليغي إلى بناء جسر بينه وبين الناس، وتلمّس مشاكلهم وهمومهم وآلامهم بامتلاكه قاعدة الحب ودخوله إلى قلوب الناس.

لقد كان يعيش مع الناس ومع مشاعرهم، يتفاعل معهم في شعوره وفكره؛ لأنه كان يعيش حسَّ المسؤولية، ولم يعش عالمه الخاص وحياته الخاصة المترفة، بل كان بقاعدة الحب الكبير التي تملأ قلبه وعقله يتلاقى مع الناس في الأوساط الاجتماعية داخل المنطقة وخارجها، وفي داخل حدود الوطن وخارج أسواره، وحول العالم في رحلات مكوكية لا سيما في العالمين الإسلامي والعربي، يجالس العلماء والفقهاء والحكماء وأهل الرأي والمبلغين والدعاة إلى اللَّه، والمراجع والكتّاب والمفكّرين. لقد كان يخدم الكبير والصغير، ويعود المرضى والمكسورين، ويخاطب الشباب والأطفال والكهول، ويتحدث بلغة الإنصاف الى الرجل والمرأة، ويلتقي مع اللاعبين في النوادي الرياضية، ومع حملة القرآن في أمسياتهم القرآنية وفي المحافل والبرامج والنشاطات في كل وقت وفي كل مكان، لا يشغله شاغل، ولا يحجبه شيء عن واجبه ومسؤولياته التبليغية والاجتماعية

لقد لعب الشيخ الصفار دورًا رياديًّا في مجتمعه، وذلك بقاعدة الحب

في قلبه لمجتمعه، ووضوح الرؤية بدراسة الواقع ومعطياته والخروج برؤية شرعية مُتَّزنة، وليس منهجية مترهِّلة تحمل في طياتها التراجع والانزواء والسلبية، بل منهجية واضحة تدرس الواقع الاجتماعي، وتدرس الظواهر والممارسات الاجتماعية المختلفة، ليعرف أين يقف من مستوى الكلمة ومستوى المسؤولية.

الأبجدية الثالثة: التجديد الديني والتطوير في لغة الخطاب:

يقول الشيخ حسن الصفار: إن تطوُّر الخطاب الديني ليكون بمستوى قيم الدين الرفيعة، وليستجيب لتحدِّيات العصر الضاغطة، وليتمكَّن من استنهاض الأمة، بحاجة إلى تكاتف القوى وتضافر الجهود من قبل المرجعيات والقيادات الدينية والعناصر الواعية المهتمَّة بمستقبل الدين والأمة، من أجل وضع خطة منهجية شاملة.

وإلى أن يتحقَّق هذا الطموح، فإن على كل من له دور في ساحة التوجيه الديني أن يجتهد في تطوير مستوى أدائه، وأن ينطلق من موقع الشعور بالمسؤولية تجاه الدين والمجتمع، وأن يدرك عمق التحدِّيات المعاصرة ليرتقي بخطابه إلى الأفق المطلوب والمناسب.

ويتحدَّث الشيخ عن نفسه قائلًا:

«لقد كنت مهتمًّا بتلمّس مشاكل المجتمع وقضاياه، مجتهدًا في تقديم ما يمكن من الحلول والمعالجات، ساعيًا إلى تطوير محتوى الخطاب وأسلوبه حسب إمكاناتي وقدراتي المحدودة»[1].

(١) الشيخ الصفار، الأحادية الفكرية في الساحة الدينية.

لقد كان الشيخ الصفار يُصرِّح بأن التجديد قضيته ويقول:

«بالنسبة لي فإن قضية التجديد هي منطلق نشاطي وتحرُّكي، فقد نشأت في بيئة دينية محافظة، ورأيت أقراني من الشباب مُعرضين عن الدين وعن الحالة الدينية، وهناك من استقطبته الاتجاهات المادية الوافدة، فانضموا إلى الأحزاب اليسارية من شيوعية وبعثية وقومية مختلفة، ومن عاشوا حياة اللامبالاة.

وفي مثل هذه الأجواء، بدأت أفكر أنه لا يمكن أن يكون الخلل في الدين ذاته، كما لا يمكن أن نتَّهم هؤلاء الشباب بأن لديهم خبثًا أو مرضًا أو انحرافًا طبيعيًّا ذاتيًّا، فليست المشكلة في الدين ذاته ولا في الناس ذاتها والشباب ذاتهم، إنما المشكلة فيما يُعرض من الدين ومن طريقة عرض الدين.

لذلك بدأت أتوجَّه إلى التجديد في طرح الدين والتجديد في فهم الناس للدين، وبدأت بنفسي وبعد الاطِّلاع والتأمُّل استطعت أن أتوصَّل إلى حقيقة أن يكون لي دور في دفع ودعم حركة التجديد الديني في المجتمع من أجل أن يعرف الناس حقيقة دينهم، ومن أجل إعادة هؤلاء الناس إلى دينهم، وبدأنا نمارس دورنا في هذا المجال عبر الكتابة والخطابة وعبر اللقاء المباشر».

كلمة وفاء..
إضاءات في حياة الشيخ الصفار

الأستاذة عالية مكي آل فريد [1]

أقف في هذه المحطة لأسكب سطورًا من حكايات وذكريات ومآثر عشتها معه في رحاب الحياة ودروبها الطوال، يكتنفها قلبي وعقلي، ليشهد لها التاريخ والواقع الاجتماعي المعيش.

كيف لا أكون وفيَّة لمقامه الرفيع وما تركه من أثر عميق في نفسي وفي مجتمعي ووطني من ذكريات جمعتني به منذ المراحل الأولى في حياتي، فقد عرفته أستاذًا حكيمًا، ومُعلِّمًا فاضلًا، صاحب رؤية وبصيرة نافذة في استقراء الأحداث، عالمًا جليلًا لا تهجم عليه اللوابس.

فضيلة الشيخ حسن موسى الصفار قامة من قامات العلم ورمز ديني واجتماعي، هو موسوعة في الفكر والثقافة والتربية، ونبراس في المعرفة

(١) رئيسة مركز إيلاف لرعاية وتأهيل الأطفال المعاقين، كاتبة – صفوى.

والأخلاق، عالم عامل بعلمه، سمح في الدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، ألهمه اللَّه قوة الحجَّة والمنطق ليصافح بها القلوب قبل العقول.

هو أحد شخصيات الوطن المتميِّزة، عمل منذ عقود على تطوير وعي أبناء المجتمع، وصاغ العديد من الأطروحات والمشروعات الثقافية والاجتماعية التي تنهض بالأمة، وتدفع بنخبها وشرائحها المتعدِّدة نحو العمل والبناء والتنمية.

أنشأ جيلًا راسخًا بالوعي الفكري والنهج الرسالي، خـدم الإسلام بلسانه وقلمه وأخلاقه.

إنني عندما أتصفَّح سيرته ومسيرته في قاموس الذكريات، يكفي ما أراه على صفحات الواقع، فلولا إيمانه برسالته الإصلاحية ونهجه المعتدل ووعيه الفكري والثقافي، ولولا عقليته التجديدية وانفتاحه وطاقته الإبداعية ونشاطه المكثَّف ما كان الحراك الثقافي الواعي الذي يتفاعل مع حركة المجتمع مستمرًّا، ولما تحقَّق الوعي الاجتماعي، لقد سجَّل بصمات حقيقية بالقيم النبيلة جسَّدها في مشوار عطائه، فقد فرض وجوده وحضوره القوي فكريًّا وثقافيًّا كعالم دين، وعاش حياة زاخرة بالعمل والتضحية مكللة بالاحترام والأدب وكريم الخلق. فكان شعلة مضيئة في مجتمعه ووطنه في المجال الديني والثقافي والسياسي، لينقش أسمه بأحرف من نور على صفحات التاريخ الإنساني، فشتان بين رجال يصنعون التاريخ ورجال يأتي بهم التاريخ ويرحلون دون أن يبقى لهم أثر في تاريخ أمتهم، وما صنعه الشيخ الصفار سيبقى خالدًا في الذاكرة التاريخية لبلاده، وستبقى تجربته حيَّة على أكثر من صعيد محطَّ استشراف واستلهام للأجيال القادمة.

جمع الثقافة الإسلامية الأصيلة التي تلقَّاها فطرة وتربية ودراسة، إضافة إلى قراءاته المستفيضة عن الإسلام وعلوم الأديان وتاريخ الحركات الإسلامية والفكرية، وفقه المذاهب وتاريخ الحضارات والثقافات المتنوِّعة.

فعندما أتحدَّث عنه قد لا أفيه حقَّه، فهو كخطيب استطاع أن يُطوِّر الخطاب الديني إلى خطاب تنويري أصيل، وأن يُحوِّل الكثير من القيم إلى الواقع المباشر في حياة الناس، وكان مثالًا حيًّا للعالم والداعية الذي يصل إلى الناس بأسلوب عفوي جميل غير متكلّف، يخاطب القلب من خلال العقل، ويخاطب العقل من خلال القلب، ويدغدغ الفكرة ويجتهد في بحثها بالتدقيق والتمحيص مهما كانت صعوبتها ليُقدِّمها للمستمع بطريقة سلسة وسهلة يستوعبها الصغير والكبير، المثقَّف والفرد العادي. ممَّا أكسبه حضورًا مميَّزًا من خلال طبيعة طرحه وتقديمه لمحاضراته وخطبه، والتي لا تخلو من إضفاء الروح المرنة عليها، فنادرًا ما يخلو حديثه من طرفة يستشهد بها بخاصية «اللهجة القطيفية»، كما لا يخلو مجلسه من مشاركة العلماء المهتمِّين ومن المثقَّفين المختصِّين والباحثين من كافة شرائح المجتمع.

عرفت الشيخ حسن الصفار إنسانًا سمح القلب، هادئ الطباع، لا تفارق الابتسامة محيَّاه، يتعامل مع الحياة بإيجابية وصدق، فكثيرًا ما يحرص على غرس الأمل والتفاؤل في نفس من يجالسه وفي نفس القارئ والمستمع ويقتلع اليأس، صادق النُّصح، يختار عناوينه وعباراته بعناية ودِقَّة.

وفي مسألة الخلاف والاختلاف، فقد تميَّز الصفار بطرحه التجديدي المعتدل، وبخطاب التسامح، فكثيرًا ما يدعو للالتزام بأخلاقيات الإسلام التي تدعو إلى احترام الرأي الآخر، واعتماد منهجية الحوار والجدال بالتي

هي أحسن، ومراعاة الحقوق العامة لإخوة الدين والوطن، فالاختلاف في الرأي لا يُجيز التعدِّي على حقوق الآخرين، ولا يخدش من حقوق المواطنة، فكثيرًا ما يُؤكِّد على الوحدة الإسلامية والوطنية كواجب وأصل من أصول الدين ومقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، وما لهذه القيمة من حاكمية على سائر القيم والمفاهيم، ففي اعتقاده لا يصح أبدًا تمزيق وحدة الأمة من أجل التمسُّك بفكرة أو مسألة شرعية معيَّنة، بل يجب اعتبار الوحدة أساسًا ومحورًا لا يجب المساس به، أما التفاصيل والأمور الفرعية في العقيدة والشريعة الإسلامية فلا ينبغي أن يترتَّب على الاختلاف فيها أثر يضر بوحدة الأمة وتماسكها.

كما دعا إلى احترام حقوق الإنسان والاعتراف بالآخر في حريته الدينية والفكرية، وعدم مصادرة أفكار الآخرين، وتعزيز مفهوم المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات، واحترام كرامة وإنسانية البشر دون النظر إلى مذاهبهم وتوجُّهاتهم، لتحقيق التقارب والتعايش بين أبناء الوطن الواحد.

الشيخ الصفار رجل الحوار والتسامح، فكثيرًا ما يدعو إلى تنشيط الحوار الداخلي بين الحكومات والشعوب منعً للاحتقان الذي يُؤدِّي إلى الانفجارات، أو اللجوء إلى القوة والعنف. كما يدعو إلى الحوار بين قيادات المذاهب الدينية ليتعرَّفوا على توجُّهات بعضهم البعض بشكل مباشر، وليس من خلال كتابات مغرضة ونقولات قديمة، من أجل تجاوز فتاوى التكفير والتبديع والتُّهم المتبادلة بين المذاهب الإسلامية، مؤكِّدًا على أهمية الحوار بين المدارس الفكرية والتيارات السياسية لتحقيق الألفة والتقارب، وكذلك أهمية الحوار بين المدارس الفكرية والتيارات السياسية والاهتمام بالبناء وتنمية الأوطان بدل الاسترسال في هدر الإمكانات وتضييع الجهود في

الاحتراب الداخلي والنزاع.

شجَّع سماحته على الانفتاح و نقد الانكفاء على الذات، وكسر العزلة التي يعيشها الشيعة في المنطقة، ودعا إلى التلاحم الوطني ووحدة الصف لا سيما في ظل المتغيِّرات الإقليمية والدولية. وفتح الباب أمام إخوة الوطن بالتواصل والحوار، فتراه دائمًا ما يدفع المجتمع للتواصل والمحبَّة والتراحم في حديثه وخطبه.

فقد أحب وطنه وجعل مصلحته نصب عينيه، فأخلص له وعمل من أجله، عاش مرتبطًا بأرضه، فحمل وطنه معه وحمل همَّه أينما حلَّ وارتحل محافظًا على هويته وثوابته.

ودعا جميع شرائح المجتمع الشيعي وحثَّهم على الانفتاح على إخوانهم بزيارتهم والتحاور معهم ومشاركتهم فيما يعود بالنفع العام على الوطن.

فلا زلت أتذكَّر كلمة المغفور له الملك عبد اللَّه بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله، حيث تشرَّفت باللقاء به على أثر مؤتمر الحوار الوطني في أولى لقاءاته في الرياض عام ٢٠٠٣م، وهذه كلمة لعلِّي أصرح بها لأول مرة شهادة للَّه وللتاريخ، كان يشيد بفضيلة الشيخ وبشجاعته ووفائه، ففي سياق حديثي معه حول أوضاع الشيعة وما يتعرَّضون له من تبديع وتكفير وحرمان من الوظائف في حقبة سابقة، فأجابني قائلًا: الشيعة سطَّروا ولاءهم لوطنهم وأرضهم ومجتمعهم بجدهم وعملهم وعطائهم، أنتم الشيعة جزء لا يتجزَّأ من هذا الوطن، لكم حق كبير في هذه الأرض، فما يُقال عنكم وما يُكتب غير صحيح، وما ينخاف عليكم ولديكم رجل محنَّك -حسب تعبيره- إنه الشيخ

حسن الصفار واللَّه، إني أحب هذا الرجل؛ لأنه شجاع ومحترم ومخلص لوطنه، بلغيه عني السلام.

ولن أنسى دوره -حفظه اللَّه- عندما بدأت بالشروع في أعمالي البحثية أيام تواجدنا في سوريا، فقد كان يدعمني ويساندني، ويجلب لي سلسلة الكتب والمصادر، يحملها والعرق يتصبَّب منه، وحرارة الشمس تلفح وجهه، لا زالت صورة هذا الموقف تراودني، حينها خجلت من نفسي كثيرًا لتواضعه الجمَّ، وأدركت حينها عمق حرصه واهتمامه بالكتابة والبحث.

ومع كل هذه الاهتمامات لم ينسَ اهتمامه بنصف المجتمع، فسلَّط الضوء على المرأة، ووجَّه بوصلته الدينية والعلمية للنهوض بها، محترمًا إنسانيتها وكرامتها ودورها الكبير منذ بداية انطلاقته في الدعوة والعمل الإصلاحي، مُقدِّرًا لما تملكه المرأة من كفاءات وقدرات، فدعا المرأة لبناء شخصيتها والوعي بحقوقها، وأن تدخل إلى معترك الحياة الاجتماعية بكفاءتها وأخلاقها.

فكثيرًا ما كان يدفع المرأة ويحثُّها على تنمية قدراتها العلمية وكفاءتها العملية، وأن تؤدِّيَ واجباتها تجاه الوطن والمجتمع بجديَّة وإخلاص، رافضًا امتهانها وتحجيمها في إطار أنوثتها ومفاتنها.

فهو دائمًا ما يدعو المرأة إلى اتِّخاذ زمام المبادرة وتحرير نفسها من وصاية الرجل في حركة انطلاقتها، عن طريق إبراز كفاءاتها وطاقاتها، لتكون متقدِّمة ومبدعة في مختلف المجالات.

وكان منفتحًا يستقبل المرأة بكل ودٍّ واحترام وتقدير، يستشيرها ويناقشها، فلا يخلو مجلسه من الأكاديميات والمثقَّفات المهتمَّات بالشأن

العام من مختلف أنحاء الوطن بين فينة وأخرى.

وعلى الصعيد الخاص، كان فضيلته متسامحًا ومتواضعًا وصولًا ليس فقط مع محبيه بل حتى مع خصومه و أعدائه، فقد كان ينبذ كل ما يؤدِّي إلى التباغض والتدابر والتقاطع، وكان من دعاة المحبَّة والتآلف، نابذًا للفرقة والتعصُّب والتباعد، فقد تسامى على كافة العصبيات والتحزُّبات الطائفية والمذهبية، فقيلت فيه مقولات وتم اتهامه و حاولوا النيل منه، وكان يتعامل مع خصومه بالحب والتسامح.

أسأل اللَّه أن يحفظه ذخرًا لنا وللمجتمع والوطن...

النبي وآله
في كتابات الشيخ حسن الصفار

الأستاذ عبدالباري أحمد الدخيل[1]

أجمعت الأمة الإسلامية على حب النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام استجابة لآيات القرآن الكريم، والأحاديث الواردة عن رسول اللَّه ﷺ والتي اعتبرها المسلمون في مختلف مذاهبهم صحيحة ثابتة، وهي التي تدفع كل مسلم لكي ينعقد قلبه على حب أهل البيت عليهم السلام.

وبالإضافة لهذه النصوص هناك شخصيات أهل البيت عليهم السلام التي فرضت نفسها بعلمها وفضلها.

ونحن -والحمد اللَّه- لدينا حالة من الاعتزاز والافتخار بولائنا لأهل البيت عليهم السلام، وكل إنسان شيعي يجد في نفسه هذا الاعتزاز والزهو، بأنه تابع لأهل البيت عليهم السلام. وهذا شعور داخلي وقناعة راسخة، تنعكس على رؤيتنا

(١) إعلامي وأديب وكاتب - تاروت.

وثقافتنا، وعلى تعاطينا وتعاملنا.

تأثير البيئة:

وقد ورث سماحة الشيخ حسن الصفار حبه لأهل بيت النبوة عليهم السلام في البدء من انحداره من هذه الأسرة الكريمة التي توارثت الحب والولاء، فقد سمع منذ نعومة أظفاره سيرة أهل البيت عليهم السلام عبر ما يُلقيه الخطباء في المجالس التي كان يصحبه إليها والده الحاج موسى الصفار رحمه الله، أو من خلال شعره الذي كان يستمع له ويحفظه.

يقول سماحته: «وكنت أذهب مع والدي إلى تلك المجالس [المجلس الحسينية في الحي]، وأجلس للاستماع، حيث يقرأ الوالد نسخة الوفاة لمدة نصف ساعة تقريبًا، قبل مجيء الخطيب واعتلائه المنبر... وأذكر من الخطباء الذين كنت أحضر مجالسهم آنذاك مع والدي الشيخ علي المرهون في حسينية الحداد، والملا باقر المدن في مجلس السيد جعفر السماعيل، والملا حبيب المقابي في مجالس أخرى»[1].

وفي مكان آخر يقول: «في كل مساء كان الوالد بعد تناول العشاء يتمشَّى بي على سطح المنزل، وخاصة في ليالي الصيف... وكان يدور بي حول سورها، ويقرأ عليَّ الأشعار التي كان ينظمها حول أهل البيت عليهم السلام، وخاصة عن شهداء كربلاء...»[2].

ومن القصائد التي تربط الإنسان عبر أسرته بالولاء لأهل البيت عليهم السلام

(١) موسوعة الموسم، المجلد ١٧٢، السنة ٣٦، ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م، فصل: ظلال من الذاكرة، ص٢٢.
(٢) نفسه، ص٢٣.

التخميس الذي نظمه والده في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

أمي الحنون كم في حملها تعبت وكم ليالٍ لها ما عينها هجعت
فصرت أدعو لها ما شمسنا طلعت لا عـذب اللَّه أمّـي إنها شربت
حب الوصـي وغذتنيه فـي اللبن
كانت لحب بني ياسين ترشدني وعـن محبة غير الآل تبعدني
وكان كأس الولا في صدرها لبني وكـان لي والـد يهوى أبـا حسن
فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسن

التاريخ والسيرة:

إن وعي الشيخ الصفار واتِّساع أفقه المبكِّر جعله يقف أمام هذا الإرث الذي رافق الطفولة ثم الشباب سواء من خلال الاستماع أو القراءة ثم ممارسة التبليغ في منطقة وسطًا، إذ اختلف الناس في التعامل مع التاريخ بين من ذهب إليه وأحضره بكل أثقاله وقيوده، وبين من قطع صلته بالتاريخ، ورأى أن ترمى كتب التاريخ في سلَّة المهملات.

لكن سماحته وقف بين هذين الرأيين، فلم يقطع صلته بالتاريخ، ولم يقف منبهرًا «ليتحوَّل إلى كاتب يُعيد استنساخه، بل جمع التاريخ وأعاد قراءته، فاستخرج القيم وأعاد بعثها معالجًا بها واقع الأمة»[1].

نعم، كان سماحة الشيخ الصفار يذهب للتاريخ ولسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام ليشعل شمعة تضيء ظلام الأمة الدامس، ويرسم بحروفه خارطة طريق لعودة الحياة في جسد هذه الأمة التي هرمت بعد ابتعادها عن خط ومنهج الإسلام الأصيل.

(١) حسن منصور الشيخ، المسيرة الفكرية، ص٦.

بل هذا ديدنه في كل ما يكتبه، يقول: «في كل ما كتبت أحاول الاستضاءة بهدي أهل البيت وسيرتهم، وأسعى لمقاربة الواقع الاجتماعي الذي أتحرَّك في محيطه، ضمن دائرة الاجتهاد في فهم متغيرات الواقع، وتشخيص مقتضياته»[1].

ويرى أن البداية «لانطلاق إسلامي جاد.. علينا أن نطعم أبناء الأمة الإسلامية، بالوعي الديني، ونشبعهم بالثقافة الإسلامية، وقاية عن الانحراف».

ثم يشرح سبب كتابته لكتاب (لكل أمة رسول) بأنها محاولة «للإسهام في التوعية الإسلامية للمجتمع»[2].

ويرى أن مصادر الثقافة الإسلامية تأتي من القرآن والعترة، «فالقرآن الكريم فيه الهدى والنور، والأئمة الطاهرون هم المشاعل التي تجسّد فيها نور القرآن، والنماذج التي توفر فيها هداه»[3].

و«أول واجبات الأمة تجاه هذين الثقلين حفظ مكانتهما في نفوس أبناء الأمة، وتنزيههما عن أي تجريح وتشكيك»[4].

ويتحدَّث عن قضايا الأمة من خلال استعراض سيرة النبي والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فقد اقتبس إشارات من السيرة النبوية في نهج التعامل مع الأمة وإدارة شؤونها، فسماحته يرى أن القراءة الواعية للسيرة النبوية الشريفة

(١) إضاءات من سيرة أهل البيت عليهم السلام، ص١٠.
(٢) لكل أمة رسول، ص٨.
(٣) حياة الأئمة والتاريخ المزيَّف، ص٨.
(٤) أهل البيت المحبة والاتِّباع، ص١١.

«يمكنها أن تساعد الأمة في تجاوز آثار تاريخ الاستبداد، وفي مواجهة الآراء المحافظة المتزمتة، كما تؤصل لتوجهات الإصلاح والتطوير»[1].

ويعترف سماحته في موقع آخر بالمسؤولية التي يتحمَّلها المثقَّف الرسالي، يقول: «وهنا يأتي دورنا ومسؤوليتنا في القيام بتوعية الناشئة، وتعريفهم بحياة أئمتهم، ودورهم في التاريخ، ومنهج الحياة، لكي يفهم أبناؤنا قيمة أئمتهم، ويدركون مدى الخدمات والتضحيات التي قدَّمها الأئمة للمجتمع الإنساني عامة، ولأجيال الأمة الإسلامية خاصة»[2].

ويُؤكِّد ذلك في مقدّمة كتاب (الإمام علي وقضايا الأمة، ص٨) أن الكتاب محاولة لاقتباس «ومضات من شعاع سيرة علي وفكره، في مقاربة لبعض قضايا واقع الأمة المعاصر».

ويرى -أيضًا- أن «علي بن أبي طالب عليه السلام في أقواله وأفعاله يُمثِّل -بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم- أفضل صورة ونموذج، لتبيين هدي الإسلام، وتجسيد قيمه وتعاليمه، في نباء المجتمع ونظام علاقاته»[3].

ويتحدَّث عن نهج البناء الاجتماعي ضمن سيرة الإمام الحسن عليه السلام، ويدعو لقراءة سيرته العطرة، «والتزام خطِّه الرسالي، والأخذ بمنهجه في التسامح الاجتماعي، لتسود أجواءنا المحبَّة والوئام، ولنتوجَّه لمواجهة الأعداء والأخطار صفًّا كالبنيان المرصوص»[4].

---

(١) السياسة النبوية ودولة اللاعنف، ص٢٩.
(٢) أئمة أهل البيت عليهم السلام رسالة وجهاد، ص١٣.
(٣) الإمام علي ونهج المساواة، ص٦.
(٤) الإمام الحسن ونهج البناء الاجتماعي، ص٢٢.

ويغتنم فرصة حلول موسم عاشوراء ليبثَّ هذه الأفكار البنَّاءة من خلال منبره، فحين «تطلُّ علينا عاشوراء وذكرى نهضة سيد الشهداء أبي عبداللَّه الحسين عليه السلام، فإنها تُتيح لنا فرصة الارتواء من نمير عطائها الخالد، والاقتباس من جذوة شعلتها الوقّادة، التي لم يزدها مرّ العصور والقرون إلَّا توهُّجًا وإشراقًا».

مؤكدًا أن «الحسين إنما خرج لطلب الإصلاح في الأمة كما قال عليه السلام وهو ربيب الوحي والنبوة، فسيرته في النهضة والإصلاح منهج يُقتدى، وخطابه ومواقفه تشكّل معالم هادية لكل حرّ غيور على مصلحة أمته ومجتمعه»[1].

ولولا خوف الإطالة لتتبَّعت كل ما كتبه، ولرأينا أن سماحته اتَّبع المنهج نفسه منذ أن بدأ في الخطابة والكتابة، إذ لم يستسلم لثقل أغلال التاريخ، ولم يقطع صلته بهذا النبع العذب.

ونجد هذا النهج واضحًا -أيضًا- من خلال عناوين خطب الجمعة التي ألقاها سماحة الشيخ الصفار، وكنموذج أذكر بعض الخطب الواردة في سلسلة مسارات في ثقافة التنمية والإصلاح:

* المبعث النبوي والبعث الأخلاقي، ٢/ ٢٤٥.
* بثُّ الأمل عند الشدائد (السيرة النبوية)، ٣/ ٨٨.
* كرامة الإنسان في الهدي النبوي، ٤/ ١٣٣.
* الشخصية المتشنجة والفهم الخطأ للدين (بمناسبة وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، ٥/ ٨٧.
* موقف الإمام علي عليه السلام في مواجهة العنف الأسري، ٢/ ٢٤١.

(١) الحسين منهج الإصلاح والتغيير، ص٦.

* من وراء تيار العنف والإرهاب. (الإمام علي والخوارج)، ٥/ ٢٢١.
* دروس في التضحية بالحقوق لحفظ المصلحة العامة، ٩/ ٢٤٥.
* الدعاء للآخرين في ظهر الغيب (الزهراء عليها السلام)، ١/ ٢٢٠.
* الزهراء القدوة في حياتها العائلية، ٤/ ٢٦٧.
* تكريم النبي للزهراء رسالة للآباء، ٧/ ١٩٩.
* التاريخ للعبرة أم للفتنة (السيدة زينب عليها السلام)، ٨/ ٢٥٩.
* المروءة مفهومًا وسلوكًا (ذكرى ميلاد الإمام الحسن عليه السلام)، ١/ ٣٢٦.
* استثمار عاشوراء لتقدم المجتمع، ٥/ ٤٢٧.
* لا تتنازل عن عقلك للآخرين (ذكرى وفاة الإمام الكاظم عليه السلام)، ٤/ ٣١١.
* الواقعية في تطبيق القيم والمبادئ (الإمام الرضا عليه السلام)، ٩/ ٢١٣.
* قيمة الجود والسخاء (من حياة الإمام الجواد عليه السلام)، ٦/ ٤١٣.
* الثقافة المهدوية وسوء التوظيف، ٦/ ٣٠١.

وفيما يلي قائمة بما ألّفه سماحة الشيخ عن النبي وأهل بيته عليهم السلام حسب تاريخ الصدور:

م	اسم الكتاب	سنة الطبع	عدد الطبعات	اللغات المترجم لها
١	ولكل أمة رسول	١٣٩٤هـ	٢	
٢	الرسول طريق إلى القمّة	١٣٩٦هـ	١	
٣	الحسين ومسؤولية الثورة	١٣٩٦هـ	٨	الفارسية
٤	أئمة أهل البيت رسالة وجهاد	١٣٩٧هـ	٣	السواحيلية

م	اسم الكتاب	سنة الطبع	عدد الطبعات	اللغات المترجم لها
٥	الإمام المهدي أمل الشعوب	١٣٩٩هـ	٣	السواحيلية، الفارسية
٦	الإمام الحسين رمز التضحية والفداء	١٣٩٧هـ	٢	السواحيلية
٧	رؤى الحياة في نهج البلاغة	١٣٩٧هـ	٦	الفارسية، الآذرية، الطاجيكية، الأوردو
٨	حياة الأئمة والتاريخ المزيف	١٤٠١هـ	٢	
٩	بصائر وهدى	١٤٠١هـ	١	
١٠	الثائر والسجن (دراسة في حياة الإمام الكاظم)	١٤٠٥هـ	٢	
١١	رسالة المجالس الحسينية	١٤٠٧هـ	١	
١٢	المرأة العظيمة: قراءة في حياة السيدة زينب	١٤١٤هـ	٧	الآذرية، الفارسية
١٣	الإمام المهدي وبشائر الأمل	١٤٢٣هـ	٢	السواحيلية
١٤	الإمام الحسن ونهج البناء الاجتماعي	١٤٢٣هـ	٢	السواحيلية
١٥	السياسة النبوية ودولة اللاعنف	١٤٢٥هـ	٢	الأوردو
١٦	الحضور في زمن الغيبة	١٤٢٥هـ	٤	

م	اسم الكتاب	سنة الطبع	عدد الطبعات	اللغات المترجم لها
١٧	الإمام الحسين الشخصية والقضية	١٤٢٦هـ	٤	السواحيلية، الأندونيسية، الأوردو
١٨	الإمام علي وقضايا الأمة	١٤٢٨هـ	٣	السواحلية
١٩	الحسين في وجدان الأمة	١٤٢٩هـ	١	الهوسا
٢٠	إضاءات من سيرة أهل البيت	١٤٣٠هـ	٢	الإندونيسية، الأوردو
٢١	عاشوراء خطاب التنمية والإصلاح	١٤٣٣هـ	١	
٢٢	الحسين منهج الإصلاح والتغيير	١٤٣٤هـ	١	السواحيلية
٢٣	عاشوراء ثقافة النهضة والبناء	١٤٣٤هـ	١	
٢٤	الإمام الحسين مدرسة العطاء والأخلاق	١٤٣٥هـ	١	
٢٥	أهل البيت.. المحبة والاتِّباع	١٤٣٧هـ	١	
٢٦	حلم الإمام الحسن.. نهج للتسامح الاجتماعي	١٤٣٧هـ	١	
٢٧	الحسين سر المجد والخلود	١٤٤٠هـ	١	الآذرية
٢٨	إضاءات من السيرة النبوية	١٤٤٢هـ	١	
٢٩	الإمام علي ضمير الأمة	١٤٤٣هـ	١	

الصفار..
عندما تجسَّد العقل رجلًا

الأستاذ علي حسن المسلمي[1]

اصطحبني قريبي ذات يوم قبل سنوات، في ظني قبل ما يُقارب الخمسة عشر عامًا، لمكتب سماحة الشيخ حسن الصفار بالقطيف، وكانت معرفتي بسماحة الشيخ آنذاك محدودة، هو لم يكن يعرفني -وأخال ذلك إلى الآن، غير أنه رآني ذات مرة- وأنا لم أكن أعرفه إلَّا بحدود اطِّلاعي القليل الذي جاء عبر الصدف تارة، وبدافع الفضول تارة أخرى.

اللقاء الأول عن قرب، والزيارة الأولى للمكتب، وأخال أنه قد رافقنا لتلك الزيارة أشخاص آخرون، دخلنا المجلس وبعد التِّرحاب والضيافة قدم علينا سماحة الشيخ بوجهه البشوش كعادته، فرحَّب بنا وأظهر سعادته بلقائنا.

حقيقة، أنا وبعمري اليافع ومع وجود سماحة الشيخ والفضلاء، كنت

(١) كاتب سعودي - الاحساء.

أصارع نبضات قلبي المتوتِّرة وأنا أحاول طرد الحواجز واستغلال الفرصة الذهبيَّة لطرح مجموعة من الأسئلة التي كنت أُمنِّي النفس أن أطرحها على الشيخ حين أقابله وجهًا لوجه، وها قد حانت الفرصة، وبالفعل تمكّنت من الجرأة على مقاطعة الأحاديث الروتينية من الترحيب وتوصيل التحايا والسلام وما شابه، فاستأذنته في طرح تلك الأسئلة فأجابني بالتِّرحاب.. أول تلك الأسئلة بدأ بعبارة: هل تتَّفق...؟ أصغى إليَّ حتى أكملت السؤال ثم قال: دعنا أولًا نتَّفق على أن نتقبَّل ما نحن فيه نختلف.. ثم أجاب على أسئلتي واحدًا تلو الآخر.

حقيقة لا أتذكَّر الأسئلة التي أعددت لها بشكل متفاوت، لكني لم أكن لأنسى هذه العبارة التي أصّلت عندي فكر هذا الرجل الاستثنائي!!

بعدها بفترة قصيرة، استضاف الإعلامي الشهير تركي الدخيل سماحة الشيخ عبر برنامجه المعروف (إضاءات) على قناة العربية.

تابعت اللقاء أكثر من مرَّة، كنت أتوقَّع سقوط الشيخ حسن في أحد فخاخ الإثارة الإعلامية التي يصنعها المذيع، إلَّا أن الشيخ كان حاضر الفكر، سريع البديهة، هادئ الطبع، مصغٍ جيّد، ومتحدّث مُفوَّه.. فعزَّز ذلك عندي ميلي اتجاه الرغبة لاكتشاف المزيد عن هذه الشخصية.

ومنذ ذلك اليوم أصبح سماحة الشيخ حسن الصفار إحدى أهم وجهاتي لقراءة المفكّر الناضج المتعقِّل، فأكاد أقول: إني تابعت جميع لقاءاته المتلفزة، ويمكن أن أدّعي أني قرأت الكثير من إصداراته الكتابية، ويمكن أن أقول: إني متابع جيد لمحاضراته المنبرية من وقت لآخر.. لماذا؟ لسبب بسيط ومنطقي: الشيخ حسن الصفار سواء اتَّفقت معه أو لم تتَّفق،

فإنك غالبًا ستنسجم مع طريقة تفكيره وطرحه، وهذا سينعكس عليك في تفكيرك وطرحك!!

هذا الرجل يستطيع أن يُقنعك تمامًا أنه لا يريد إقناعك بأفكاره، ولكنه قادر أن يُقنعك تمامًا لأحقيَّته في إصغائك إليه والتعرف على وجهة نظره.

هذا الرجل يستطيع أن يستفزَّ أفكارك، في الوقت الذي يجعلك مقيَّدًا عن استفزاز مشاعرك وأعصابك!!

هذا الرجل يستطيع أن يسرق تركيزك وانتباهك، لكنه لا يستطيع سرقة وقتك فيما لا ينفع!!

هذا الرجل عندما يتلقَّى سؤالًا به شبهة أو فخ أو إحراج أو محاولة إفحام وتعجيز، يُشعرك لوهلة من تعابير وجهه وملامح نظراته، أنه سيترجَّل من صهوة جواده ويرفع رايته البيضاء، لكنه سرعان ما يمتلك الأرجاء والأسماع والأذهان، فيدعوك قلبك الطيِّب أن تُشفق بالسائل، لكن الشيخ حسن سرعان ما يحتوي السائل بلطيف الطرح، وجميل الرأي، وهدوء الفكرة!!

الشيخ حسن الصفار بحق، العالم العامل..

الشيخ حسن الصفار بحق، العالم المجدِّد..

هو الجريء الذي يعيش المعادلة الصعبة، الحفاظ على الهوية والمعتقدات، والاتجاه بخطوات أقرب نحو المختلف، والاتجاه أعمق نحو المُتشنِّج، بل والاتجاه أكثر نحو المناوئ والخصم!!

الشيخ الصفار له كاريزما ورمزيَّة ينبغي على المعاصرين له أن يُقدِّموه للأجيال كمنهج وقدوة، ليس بالشرط التأسِّي بفكره وقناعاته، إنما بأساليب

تفكيره وطرق طرحه.

هذا التمجيد والمديح قد يتلقَّاه القارئ بشيء من النفور، ويحكم عليه بالعاطفي والمُبالِغ، وهذا حق من حقوق القارئ، وقد لا أسعى يومًا لإثبات دوافع هذا الثناء لسماحة الشيخ حفظه اللَّه، لكني أسعى حثيثًا لتحفيز المتلقِّي لقراءة الشيخ حسن، قراءة موضوعية متأنِّية من أي زاوية كانت، مقالاته، خطبه، كتبه، مواقفه، ردود أفعاله، أو حتى من خلال لقاءاته..

لماذا نتأنَّى في قراءة الشيخ الصفار؟

لأن هذا الرجل من يقرأ تاريخه ومحطات حياته سيصل إلى نتيجة -إذا كان القارئ موضوعيًّا- وهي: أن هذا الرجل اختارنا كمجتمعات، اختارنا كوطن، اختارنا كإخوة، عالمًا أنه سيختار معنا المتاعب المتوقَّعة والتوتُّر القادم، حاملًا بيده اليمنى رسالة الوعي، وفي اليسرى مسؤولية الرسالة، محدِّدًا الهدف بعينين في رأسٍ يحمل في جوفه «عقلًا رشيدًا».

لا شك عندي أن هناك العديد ممَّن سيُسلِّط الضوء على زوايا مختلفة في شخصية الشيخ ولأبعاد متعدِّدة، فكرية واجتماعية وطائفية وشخصية وغيرها.. إنما أستميحكم عذرًا بعد أن سلَّطت الضوء على البعد الشخصي لسماحة الشيخ، أن أسترسل في ذلك لأقول: هل يمكن أن تتوقَّع عمر الشيخ -أطال اللَّه في عمره في صحة وعافية-؟!

سماحة الشيخ اليوم في ربيعه الثالث والستين.. ما الغريب في ذلك؟

الغريب والمثير للإعجاب هو قفز هذا الرجل على حواجز الستين، فالستينيون حادو المزاج، قليلو الإصغاء، متعصِّبو الرأي، متراخو الهمَّة،

جدولهم اليومي محدود، انفتاحهم على الجديد صعب، ونَفَسهم قصير، بل قصير جدًّا، حسَّاسون جدًّا اتجاه مستوى تقديرهم وتقدير تجاربهم وخبراتهم والسماع لآرائهم..

هذه الصفات والطباع لدى شخصيتنا الكريمة هي شبه معدومة، بل إنه يمتلك ما يضادُّها تمامًا!!

ولإضاءة أكثر إشعاعًا حول هذا الرجل، لتعلمْ أخي القارئ أن سماحة الشيخ ارتقى المنبر منذ كان في الحادية عشرة من عمره، وقد ألَّف ما يربو على المائة وأربعين كتابًا في مختلف العلوم، كما تم تسجيل أكثر من أربعة آلاف محاضرة ما بين المسموع والمرئي، وقد استمرت رحلة العلم على ما يزيد على السبعة عشر عامًا تنقَّل خلالها لعدد من الدول والمدن.

قدرة الإدارة عند الشيخ الصفار

الأستاذ عيسى محمد علي العيد[1]

تسعى جميع الأنظمة الوظيفية في الشركات الربحية والمؤسسات الحكومية إلى تحقيق إنتاجية سريعة ومتقنة من خلال الكوادر التي تعمل بها. ويحصل ذلك إذا كانت الإدارة التي تدير تلك المنظومة ذات كفاءة عالية من الخبرة التي تستطيع رفع مستوى الجودة لدى الموظفين. وأبرز صفة يتحلَّى بها المدير الناجح هي صفة إدارة الوقت التي إذا أتقنت بشلكها السليم انتظمت أمور تلك المنظومة. وعلى العكس من ذلك إذا اختلَّت اهتزَّت مسيرتها العملية. إن من يتحلَّى بإدارة الوقت حتى على المستوى الشخصي يتميَّز وينتظم تفكيره وأسلوب حياته بشكل عام، فلا تجد شخصًا مميَّزًا إلَّا ولديه هذه القدرة على إدارة الوقت. ولأن إدارة الوقت مهمَّة في كل المجالات، أصبحت تُعقد الورش والدورات من أجل الارتقاء بتلك المهارة لدى الأفراد.

(١) كاتب – تاروت.

وسماحة الشيخ حسن الصفار ممَّن أتقن تلك المهارة، فعرف كيف يدير حياته. وتكوّنت لديه هذه القدرة على إدارة الوقت التي رسمت شخصيته وجعلتها متميّزة، حيث إنه تربَّى على أن يكون مثابرًا في المنهج الذي قد اقتنع به منذ كان صغيرًا، كما نقل هو ذلك في مذكراته التي نشرت في مجلة الموسم حيث قال: «أشعر بالفعل بأنني لم أمارس اللعب بالمقدار الكافي في مرحلة الطفولة كبقية أقراني، وهذا التقولب في هذه المرحلة المبكّرة حرمني من الاسترسال في مرحلة الطفولة، لكني أشعر بامتلاك حصيلة من التجارب في مجال العمل الديني والاجتماعي لبدايتي المبكِّرة»[1].

من يكون قريبًا من سماحته يلمس كيف أنه يحترم الوقت الذي جعل منه شكلًا منظمًا فلا يتداخل مع بعضه البعض. فقد خصص وقتًا لعائلته لا يتداخل مع وقت عمله الاجتماعي أو العلاقاتي إلَّا نادرًا. كذلك، فإن له وقت دوام قد قسَّمه بين القراءة والكتابة وممارسة الرياضة اليومية، واستقبال الزائرين. كما أنه خصَّص أوقاتًا للعلاقات الخاصة. والغريب أن العاملين في مكتبه، بعض الأحيان، ينسون بأن لديه موعدًا، فيُذكِّرهم هو به.

ارتبطت بشخصية سماحة الشيخ الصفار منذ كنت صغيرًا مستمعًا لمحاضراته وقارئًا لكتبه، وقد كنت لا أدرك سبب تميُّزه، ولكن عندما ارتبطت به عن قرب لمست أن سر تميُّزه هو إدارته للوقت، وكثيرًا ما أتساءل عن قدرته على التحضير وإصدار الكتب المختلفة مع كثرة انشغالاته وعلاقاته الكثيرة وسفراته المتكرِّرة، ولكن كنت مباشرة أجيب على تساؤلي بأن السر في ذلك هو في إدارته للوقت وترتيب الأولويات.

---

(١) مجلة الموسم العدد ١٧٢ لعام ١٤٤٣هـ الصادرة عن أكاديمية الكوفة – هولندا.

والعجيب في سماحته أن عقله ينظم الأوقات بشكل سريع ويأتي ذلك بثمار عجيبة. لا زلت أتذكَّر الوقت الذي أسَّس لقاءً أسبوعيًّا لطلبة العلوم الدينية في مجلس سماحته. وقد استمر ذلك اللقاء في مجلس الشيخ قرابة الثمانية أعوام إلى أن انتقل إلى ضيافة مجلس أحد المشايخ بناءً على طلبه. ومهما يكن من شيء، فقد انتقل هذا اللقاء إلى مجلس في إحدى قرى القطيف ذات ليلة، وكان من المقترح أن يكون سماحة الشيخ حسن الصفار هو المتحدِّث، في وقت كان هو فيه من ضمن المدعوين إلى مؤتمر الحوار الوطني الذي تم تأسيسه والذي كان يعقد في الرياض. كنت أتساءل حينها، كيف سيُوفِّق الشيخ بين اللقاءين المتقاربين جدًّا في الزمان والمبتعدين في المكان (الرياض والقطيف). وكانت المفاجأة أنه حضر المؤتمر ورجع في الليل رأسًا من المطار إلى مقر إقامة الجلسة الأسبوعية في الوقت المحدَّد، وتحدَّث ساعة كاملة.

قدرة الشيخ الصفار في إدارة الخلافات:

من يتعوَّد على إدارة الوقت يحرص دائمًا على إنهاء أية مشكلة تُعطِّل من الزمن الذي يعيش فيه؛ لأنه حريص على الدقيقة التي من الممكن أن يعمل فيها الأمور، لذلك فإن سماحة الشيخ الصفار دائمًا وأبدًا يدعو لعدم إضاعة الوقت في الخلافات، ولا بدّ من وضعها في حجمها الطبيعي وعدم تضخيمها والإسراع في حلّها، وكما يُنظِّر لهذا الكلام فإنه يُطبِّقه على نفسه. فمن يعرفه جيدًا، يجد تلك السِّمة واضحة في شخصيته. فلا تجده يومًا دخل في صراع طويل حتى مع من يخالفه الرأي والتوجُّه، بل على العكس، فهو يحاول جاهدًا في حل المشكلة والتصدِّي لها في بداياتها وعدم الانزلاق

في أتون مستنقعاتها. فهو يتحلَّى بقدرة كبيرة في إدارة الخلافات. فقد يكون السكوت عن بعض المشكلات هو موتها أو المبادرة إلى إنهائها في بدايتها. كما أنه يسعى بأَلَّا تحصل مشكلة أو خلاف نتيجة أمر يستطيع تقريب وجهات النظر فيه كما رأينا في بداية عودته من الخارج. ففي كل عام، يحصل اختلاف في منطقتنا على ثبوت الهلال بين المشايخ ومن ثَمَّ يتحوَّل الى اختلاف بين الناس، ومن المعروف أن الناس تثق في مشايخها، وقد كان يأتي لسماحته شهود الرؤية، لكنه قد أخذ على عاتقه بأَلَّا يتصدَّى لهذا الأمر، لكنه يأخذ الشهود ويذهب بهم إلى المشايخ المعروفين على مستوى المناطق المختلفة ليشهدوا عندهم حتى يصبح هناك اتّفاق على الهلال، فيُعيِّد الناس في وقت واحد.

وبهذا فقد استطاع الانفتاح على المذاهب المختلفة لأنه يرى أن العلاقة مع الآخر توضّح الصورة النمطية المرسومة في داخل كل فرد وتقلّل الاحتراب. ولم يكن انفتاحه على الآخر في الذهاب إليه فقط، وإنما دعوته واللقاء بالناس لكي يتفهَّم التفكير السائد في خلدهم.

وهناك أمثلة كثيرة على نبذه للخلافات التي تُضيع الوقت وتشغل الناس عن مصالحهم قد عالجها وتحدَّث عنها.

الإدارة المجتمعية ضرورة عند الشيخ الصفار:

من يضع نفسه رمزًا لمجتمع لا بدّ له من أن يتحلَّى بصفة الإدارة المجتمعية؛ لأن المجتمع هو عبارة عن شركة موسَّعة لها دوائرها المختلفة. وقد تكون تلك الدوائر لا يتوافق بعضها مع بعض، أو قد تتصادم في وجهات النظر والتوجّهات، وقد تتقاطع مع بعضها في توجّهات وتتَّفق في عمل.

في هذا الصدد يذكر الشيخ الصفار أنه استفاد من الشيخ فرج العمران الذي استوعب الجميع مع اختلافاتهم. وقد ذكر ذلك في سيرته الذاتية التي نشرت في مجلة الموسم حيث قال: إن من صفات الشيخ فرج «استيعاب اختلاف الانتماءات والتوجُّهات في الوسط الديني، حيث لم يحصر تواصله وعلاقته بجهة دون أخرى، ولم يُقحم نفسه في أيِّ صراع أو خلاف، وشواهد هذه الحالة واضحة جلية في سيرته وكتاباته، فهو يتواصل مع مختلف المراجع والعلماء كما في زيارته للنجف وكربلاء والكاظمية وقم ومشهد، ولا أعتقد أنه لا يعرف عن وجود خلافات وتباينات في تلك الأوساط، بل أعتقد أنه لا يرى نفسه معنيًّا بها».

ما قاله عن الشيخ فرج العمران رَحِمَهُ اللَّهُ طبَّقه هو في حياته المجتمعية. فعلاقاته موسَّعة مع الجميع، ولا يقبل بأن يتدخَّل أحد فيُحجِّمها بما هو يراه، فقد تكون له علاقات مع جهتين مختلفتين يحاول أن يتقاطع مع الجهتين ويتفاعل معهما، ويبتعد عن النقاط التي تسبِّب حساسية بين الطرفين؛ لذلك تجده ممتلئًا بالعلاقات على شتى التوجُّهات. وقد تكون هناك قطيعة من الجهة المقابلة له يتعامل معها بكل احترام؛ لأنه يعي بأن الخلافات لا تطول، وقد يأتي وقت تتَّفق فيه الأطراف، وقد حصل مثل هذا كثيرًا.

في كل عام، له جولات في رمضان بعضها مع شخصيات، لكن الأبرز منها هو زياراته للجمعيات الخيرية والأندية الرياضية، يحاول بقدر ما يستطيع أن يستمع إليهم ويناقش معهم المعوّقات والهموم المشتركة.

الإدارة فن من الفنون، وليست علمًا من العلوم، وإنما العلم يُضفي على هذا الفن بعض اللمسات ويضع النقاط على حروفها. الشيخ حسن الصفار

قد استوعب هذا الفن من خلال التجارب الكثيرة التي مرَّت به وطبَّقه على نفسه في تعامله مع مجتمعه.

الصفار
رجل المرحلة

الأستاذ فؤاد عبدالله المرهون[1]

الحديث في شخصية سماحة الشيخ الصفار سهل ممتنع، سهل حيث أنه مدرسة متعدِّدة ومتشعِّبة الجوانب، وممتنع حيث إنه لا تعرف من أين تبدأ وماذا تترك؟ فهو لم يكن رجلًا دينيًّا وحسب، إنما رجل فكر ومصلح اجتماعي وسياسي وناشر سنابل خيره في كل حقل وأينما حل.

وسأتحدث هنا بعجالة عمَّا شدَّني في خطاب سماحته من خلال متابعتي لخطاباته لأكثر من ثلث قرن.

أولًا: خطاب سماحة الشيخ خطاب تنويري عصري متجدِّد مواكب للأحداث والمجريات، يتابع كل ما يدور في الساحة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أولًا بأول، فهو لم تقمِّطه اللحظة التاريخية الماضوية ليسكن فيها وإليها، إنما يمرُّ عليها مرور الغارف لاستخلاص الدروس والعبر..

(١) كاتب سعودي – صفوى.

لذلك حين سماعه يشدُّك بواقعيته وبراعة أسلوبه من البداية إلى النهاية دون لحظة ملل أو كلل، وتخرج بروح متجدِّدة مفعمة بالأمل والطاقة والحيوية، ويحدث فيك لحظة التنوير.

ثانيًا: له دور ريادي في تغيير الكثير من المفاهيم المغلوطة المتداولة في المنبر التقليدي واستنطاق النصوص، حيث أعطى بُعدًا إنسانويًّا للخطاب، وغيّر كثيرًا من المفاهيم عن الفقر والغنى، والمرأة والنسوية، والحرية والدين، والتدين، والمواطنة، وصناعة الحياة وجودتها،حيث كان الخطاب السائد هو تمجيد الفقر والتوجُّس من المرأة، والفوبيا من الحداثة، والرهاب من كل ما هو جديد، بل ويرتكز الخطاب السائد حول حقوق اللَّه، فدشن سماحته البناء المفقود وهو حقوق الناس، وأن الدين مشروع حياة وسعادة وحياة طيبة، لا كما يقال على كثير من الألسن أن الدنيا جنة الكافر وحسب!. وانعكس هذا على كثير من الخطباء في الفترة الأخيرة.

ثالثًا: خطابه أكاديمي بعيدًا كل البعد عن الخرافات والغلو والمبالغات والقصص العجيبة التي تعجُّ بها منابرنا مع الأسف، مستشهدًا بالإحصائيات والأرقام وآخر ما توصَّلت إليه الدراسات والبحوث، بل ويعرض سنويًّا التقرير السنوي لمختلف مناشطه وفعالياته وإيرادات ومصروفات الحقوق الشرعية بكل شفافية، ويتردَّد على الجمعيات الخيرية والأندية ودور المسنين واللجان الاجتماعية ومؤسسات الاحتياجات الخاصة والأوقاف والمعاهد متلمسًا مشاكلها واحتياجاتها، ممَّا انعكس كل ذلك على أكاديمية خطابه.

رابعًا: خطابه إصلاحي نقدي : ونحن الشيعة حسَّاسون جدًّا تجاه النقد وإن كان بنَّاءً لأسباب كثيرة، لذلك كان الخوض فيه أشبه بالمشي بين أسلاك شائكة

في مجتمع مليء بالتكتُّلات والانتماءات والاتجاهات والمكوّنات رغم أن الشيخ عنده كثير من التوازنات الاجتماعية والمصالح والمفاسد التي يراعيها ويعمل على التدرُّج في مجتمع حسَّاس يدَّعي الرَّحابة بالنقد البنَّاء، وهو ليس كذلك.

مع ذلك ظهر له من يحاول أن يعرقل مسيرته الإصلاحية، وهذا أمر متوقَّع وطبيعي كنهج سائر الأنبياء والمصلحين، فالصواعق لا تضرب سوى قمم الجبال الشامخة أما المنحدرات لا تذهب إليها إلَّا المياه الراكدة، والمرء يُبتلى على قدر شموخه وهِمَّته ورفعته وشأنيته. وهو القائل عمَّن يُشكِّك ويعرقل مسيرته: «تلك كبسولات اعتدنا على شربها»!!

خامسًا: في خضم الفتن والاستقطاب الطائفي البغيض والمعارك السياسية الطاحنة التي تُوظِّف الدِّين أيَّما توظيف، التي تموج كموج البحر، انبثق سماحته لإطفاء تلك الحرائق بشتَّى الوسائل كمشعل تنوير وإرشاد وهداية، ولم يتورَّط في أوارها كما تورَّط حتى الذين كانوا يدعون إلى الوحدة والسِّلم الاجتماعي تنظيرًا! وهذا مسلك الحكماء في الفتن، فالفتنة إذا أقبلت عرفها الحكماء، وإذا أدبرت أدركها كل أحد وعجز العقلاء عن دفع السفهاء، فالفتنة فاتنة تتزيَّن بثوب الغيرة على الدِّين.

سادسًا: خطابه وحدوي جامع استطاع من خلاله أن يستمع له الشيعي والسني والسلفي والليبرالي والمثقّف والمفكّر والمتديّن وغير المتديّن وكل من ينشد الخير للأمة الإسلامية والإنسانية. ولم يكن خطابه الوحدوي مجرَّد تنظير على المنابر، بل انعكس ذلك على مسلكه العملي وانفتاحه على جميع التيارات المتباينة، فكانت علاقاته أخطبوطية مع جميع الأطراف حتى المناوئة له. فآمن بمبدأ توطين التعايش كحدٍّ أدنى استراتيجيةً وليس تكتيكًا آنيًّا، فكان

رائدًا مبادرًا في فتح قنوات الحوار والتواصل مع مشايخ سلفيين كبار وأمراء ووزراء وشيوخ قبائل وأعيان ووجهاء ومثّقفين وأكاديميين وأدباء وصحفيين ومفكّرين وصوفيين وأباضيين وغير مسلمين... إلخ. ومع ذلك لم تجد منه ذوبانًا، بل منافحًا عمَّا يؤمن ويعتقد، وكانت إحدى مقولاته: إننا لا ندعو للتقارب بين المذاهب فهي متقاربة أصلًا بما نسبته ٩٠٪، إنما ندعو للتقارب بين أتباع المذاهب (وحدة الصف لا وحدة الرأي). ولا ندعو لإزالة الاختلاف إنما المطلوب ألَّا يكون هذا الخلاف سببًا للعداء والعدوان. فمسائل العقيدة ليست قضايا تجارية أو مفاوضات سياسية بحيث يتنازل هذا عن شيء ويتنازل ذاك عن شيء لنصل إلى منتصف حلول أو تسوية، وليس المطلوب أن تنصهر المذاهب في بعضها عقديّاً وفقهيّاً ولا حتى الإقرار بما عند الآخر. بل المطلوب عدم استفزاز الآخر في رموزه، والتسامح العمليّ، والانفتاح بالخطاب، وعدم إقصاء الآخر أو احتكار الحق لنفسه وإنكاره ذلك على الآخرين، والاعتراف بحق الاختلاف للآخر، ونتعاون فيما نتَّفق عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف عليه. فالاختلاف سنة كونية واجتماعية فحتى الأنبياء اختلفوا كما هو الحال بين سليمان وداود وموسى وهارون وموسى والخضر(!).

أخيرًا: بعد كل هذه الصفات لم يُصب فضيلته بتضخُّم الذات التي أصابت الكثير وإن أظهروا غير هذا. فسماحته أمة في رجل بحق، ورجل المرحلة في منطقتنا، وقائد ملهم بصير، يمثّل مدرسة تستشرف المستقبل، ويمتلك مشروعًا واضح المعالم، فهو كشجرة طيبة، والمؤمن أينما وقع نفع.

فما أحوجنا اليوم لمثل الصفار كنماذج وقدوات واعية تُنير لنا الطريق.

فؤاد عبداللَّه المرهون

الشيخ حسن الصفار..
كاريزما خاصة

الأستاذ كمال أحمد المزعل[1]

تحتاج المجتمعات لتنهض إلى كل فرد وكل طاقة، إلى كل فكرة وإلى كل برنامج، لتصب في النهاية في مجرى واحد، قادر على تحقيق أهدافها وتطلُّعاتها، إلَّا أن هذه الطاقات الفردية والبرامج المتنوِّعة، إذا ظلّت مشتَّتة ودون توجيه أو رعاية، فإنها ولا شك ستنتهي وتزول، وقد يكون لها أثر سلبي عبر تشتُّت الجهود وربما تضاربها وتصارعها أحيانًا.

من هنا كان من الضروري أن يتوفَّر للمجتمعات قيادة تسعى لتنظيم العمل والجهود، تمامًا كما يعمل قائد الأوركسترا، الذي يُوجِّه فرقته ذات اليمين وذات الشمال، بحركة من يديه، ليخرج برائعة موسيقية لا يُشقُّ لها غبار.

لذا فالمجتمعات الحية الراقية والمنظمة، هي التي تمتلك قيادات فذَّة

(١) رجل أعمال وكاتب – سيهات.

تنهض بها، وتشحذ همم أفرادها، وتُوفِّق بين طاقاتها وكفاءاتها، وتساعد أفرادها وتوجِّههم وتُؤلِّف بين قلوبهم، وتسعى لحل مشاكلهم. فوجود كفاءات وكوادر وطاقات فردية، أمر مهم جدًّا، إلَّا أن الأهم هو من يأخذ بيد كل هذه الطاقات ويُحوِّلها إلى قوة فاعلة متعاونة، قادرة على عمل الكثير، وهذا لا يكون إلَّا بوجود قيادات حكيمة وقوية وقادرة.

لذا فإن سماحة الشيخ حسن موسى الصفار، بما امتلكه من ثقافة واطِّلاع واسع، وسعة أفق، وعلاقات واسعة، وخبرة في مختلف المجالات أهَّلته ليكون رمزًا وطنيًّا بارزًا، وقائدًا من أبرز قيادات المجتمع التي يشار لها بالبنان، ويقصدها الجميع في مختلف الأمور.

فالقائد لا يفرض نفسه على الآخرين، بل إن الآخرين هم من يجدونه ممثِّلًا لهم، وقادرًا على حل مشاكلهم، وممتلكًا للرؤية الواضحة التي يأملون عبرها الوصول إلى نهوض مجتمعاتهم في مختلف الجوانب.

فالقائد بالنسبة للمجتمع هو مقصدهم في المُلمَّات والأحداث، لذا تجد الجميع يطرق بابه، فهو ملجؤهم في القضايا الشرعية المختلفة، وفي المشاكل الاجتماعية بين أفراده، بل وفي المشاكل الأسرية، ويتعدَّاها إلى الخلافات الاقتصادية بين الفرقاء، لثقتهم في موقفه وقراره وحكمته، وكذلك القضايا المحلية والوطنية المختلفة.

هذ الإمكانيات لدى سماحة الشيخ حسن الصفار لم تأتِ من فراغ، بل تبلورت عبر دراسة دينية معمَّقة استمرت عقودًا، وخبرة في التعامل مع المجتمع، واطِّلاع واسع كان نتاجها ما يزيد على ١٥٠ كتاباً في مختلف قضايا الحياة، ثم علاقات متنوّعة ومتعدّدة، ويمكننا أن نعتبره أستاذًا في

التواصل والعلاقات العامة، انعكس ذلك في تعامله مع الجميع بيسر وحب وتفانٍ، وأكسبه المحبَّة والتقدير والاحترام، من قِبَل الصغير والكبير، يُرحِّب بالصغير في مجلسه وفي صلاة الجمعة ويُثني عليه، ويهتم بالكبير ويسأل عن أوضاعه وأوضاع عائلته، متابعًا مختلف التفاصيل لكل شخص، وقادرًا على تذكُّرها والتفاعل معها، نموذجًا مميزًا في عدم العتاب، لا يمكن أن تراه يعاتب شخصًا بأمر ما، أو لانقطاعه الطويل عن رؤيته، بل يتجاوز أمر الغياب ويلتمس العُذر لمن يتحدَّث معه، لا يُحرجه بسبب انقطاعه عن زيارته، وتلك لعمري ميزة قلَّ من يمتلكها من الناس، سواء بين الأقرباء أو الأصدقاء .

جريدة (الديلي ميل) البريطانية ذكرت أن هناك سبع صفات أساسية ينبغي أن تتوفر، لدى القائد، وأجزم أنها كلها تتوفَّر لدى سماحة الشيخ حسن الصفار، وهذه الصفات حسب (الديلي ميل):

١- التواصل الجيّد مع الغير:

الشيخ حسن الصفار يتواصل بشكل كبير مع مختلف الأفراد وعلى مختلف المستويات، سواء المحلية أو الخارجية، عبر اللقاء المباشر معهم إن أمكن، أو في داخل البلاد عبر الاتصال التلفوني، أو عبر إرسال مجموعة من كتبه لهم. أما عن تواصله مع شخصيات الداخل فإنه دائم الزيارات لمختلف الفئات، ويكاد يكون ضمن برنامجه اليومي، وغالبًا ما تكون الزيارة لأكثر من شخصية في يوم واحد، إذا كان هناك متسع من الوقت، وإذا لم يكن هناك مجال للزيارة، فإنه يقتنص أي مناسبة للتواصل مع الآخرين. أما صدور كتاب أو كتابة مقال أو محاضرة أو كلمة قيِّمة لتلك الشخصية أو لذلك الفرد، فتكون مدخلًا للتواصل، الممتزج بالعديد من عبارات الثناء والمدح لذلك

الكتاب أو لتلك المحاضرة، علمًا أنه لا يتوانى عن الاتصال حتى بكاتب مبتدئ عندما يعلم أنه كتب مقالًا لأول مرة، حيث يبادر إلى تشجيعه والتأكيد على الاستمرار في الكتابة، لذا فالتواصل لديه مفتوح على مختلف الفئات وعلى مختلف المناسبات، بل حتى على مستوى المسؤولين المحليين.

هذه الميزة -أيضًا- من الميزات التي تجدها لدى الشيخ حسن الصفار، فأينما حل فإنه يبادر الى تكوين فريق عمل يساعده على إنجاز مهامه المتعدّدة والمتشعّبة وعلى مختلف السبل، وهذا ما يُسهِّل عليه تنفيذ الكثير من مشاريعه الكثيرة والطموحة، ولولا وجود مثل ذلك الفريق لما أمكنه القيام بالكثير من تلك البرامج والمشاريع.

٣- الثقة بالنفس:

لا شك أن ثقة الشيخ بنفسه كبيرة، ولعل هذه الثقة ترسَّخت منذ الصغر، حيث كان واثق الخُطى من بدايات حياته، ولعله يكون أصغر خطيب بدأ الخطابة في المحافظة، حيث كان يُطلق عليه الملا الصغير. هذه الحالة من القدرة على الإلقاء أمام الجمهور رغم حداثة سِنِّه، تشير إلى حجم الثقة بالنفس التي تميَّز بها. وهي بالطبع لازمته حتى الآن، وتبلور ذلك في مشاريعه وبرامجه ولقاءاته المختلفة التي تشير بشكل واضح إلى هذه الصفة المهمَّة.

٤- التحلِّي بروح الدعابة:

تشير أكثر من دراسة إلى أن الروح القيادية تمتزج بتوفُّر روح الدعابة عند الأفراد، وجريدة (الديلي ميل) تشير إلى ذلك أيضًا. وهي بلا شك ميزة وصفة من الصعب امتلاكها، فروح الفكاهة في الخطابات المختلفة، وخاصة

لرجل الدين، تحتاج إلى الكثير من الحذر، والكثير من التدقيق. ومن الجدير بالذكر أن الشخصيات العالمية، هناك مَنْ يُجهز لهم هذه الفقرات لخطاباتهم الجماهيرية، نظرة لأهميتها، والأهم من ذلك هو امتلاك الشيخ لسرعة البديهة في اختيار المواقف الطريفة في اللقاءات العرضية، وتلك أصعب من اللقاءات المحضَّرة سابقًا. روح الفكاهة هذه تربط الشخص بالمتحدّث نفسيًّا حتى دون أن يشعر، وينجذب إليه بصورة عفوية.

٥- التواضع:

هذه الصفة متجذِّرة في نفسية الشيخ، فهو متواضع في تعامله مع الجميع من الشخصية البارزة حتى العامل العادي والسائق، عندما تزوره في مجلسه العام تجده يقوم احترامًا لكل ضيف صغيرًا أو كبيرًا، دون كلل أو ملل، وذلك يعكس الكثير من الاحترام والتواضع لضيوفه.

أما في النقاشات فإنه حتى مع علمه بصوابية رأيه فإنه وأمام الآخرين يتواضع في موقفه، ولا يُظهر الانتصار عندما يتّضح أنه كان على صواب، حيث أتذكر أنه وخلال نقاش حول مسألة من المسائل، ذكر أحد الأرقام، فما كان من أحد الحضور إلَّا أن اعترض على صحّة ذلك الرقم وبقوة، عندها ذهب سماحة الشيخ إلى مكتبه وأحضر ما يثبت كلامه، دون أن يحاول بعدها الإساءة الى ذلك الضيف ولو بصورة غير مباشرة أبدًا، وكأن شيئًا لم يحدث.

٦- الإنسانية:

الشيخ حسن في تعامله مع من يذهب ويتنقل معه تعامل الأخ لأخيه، فيناقش معه مختلف القضايا والأمور، فهو مرافقه وليس سائقه، ولذا نجد من

معه مُلمِّين بالكثير من القضايا ولديهم رأي فيها، تولَّد عبر الحديث والنقاش. وأتذكَّر في زيارة من الزيارات لبعض مدن المملكة، أنه سأل عن السائق المرافق لنا، وطلب أن يحضر معنا وجبة الغذاء، معتبرًا أن الجميع إخوة، وأن وجبة الغذاء للجميع، هذا هو ديدنه في التعامل مع الجميع وبدون استثناء.

٧- النشاط الدائم:

هذه من أبرز الأمور الواضحة في شخصية الشيخ حسن الصفار، فهو في حركة دائبة لا تتوقَّف، من زياراته المستمرة طوال العام، إلى مشاركاته في مختلف مدن المحافظة وخارجها بل وخارج المملكة، إلى إنتاجه الثقافي الغزير، إلى برامجه وأنشطته المختلفة التي يقيمها في مجلسه، والتي يدعو لها مختلف القطاعات في المحافظة، إلى دعمه لأغلب الأنشطة والبرامج المحلية، لذا نجده قِبلة لكل صاحب مشروع من أجل الدعم والمشورة. إنك لتعجب من هذه الروح المتوقِّدة التي لا تتوقَّف عن العمل والنشاط، ونحن نعلم الجو الاجتماعي المتعب المحيط بالناشطين الاجتماعيين، وحشود المنتقدين والسلبيين، التي تفتُّ من عضد كل مبادر وناشط وعامل، والأمثلة أمامنا كثيرة، إلَّا أنه مستمر في أنشطته وأعماله وبرامجه، بل الأهم من ذلك أنه يدفع الآخرين للنشاط والعمل والمبادرة، فروحه المتحفِّزة قادرة على دفعه للعمل، ودفع الآخرين دون هوادة.

خلاصة القول: إن سماحة الشيخ حسن الصفار يمتلك كاريزما خاصة، أهَّلته ليكون شخصية قيادية متميّزة، تبلورت على مدى عقود، وسخّرها لخدمة مجتمعه، وهو يواصل هذا الدور القيادي بلا توقُّف، من أجل مجتمعه ووطنه. نرجو من اللَّه أن يوفقه لما يحب ويرضى، وينفعنا جميعًا بعمله وجهده.

قيادة تصنع الوعي
الشيخ الصفار رائداً

الأستاذ كميل بن علي آل إبراهيم[1]

يُعرّف المصلح على أنه صالح في نفسه، ويتعدَّى هذا الصلاح بتبنيه فكر الدعوة للآخرين بالصلاح والالتزام بالسلوكيات الحسنة في الأقوال والأفعال والممارسات.

كما يتَّفق علماء الاجتماع على أن معيار التقدُّم المجتمعي يُقاس بمدى وعي المكوِّن لهذا النسيج، بل هو الركيزة الأساس لبناء أفراده وتشكيل جماعاته وبناء مكوِّنه الداخلي.

ويُعرَّف الوعي الاجتماعي على أنه (الإحاطة) بالمشكلات والعقبات والأزمات التي تواجه المجتمع، والبدء بوضع الحلول والبرامج لمواجهتها، ووضع البدائل المناسبة لمنع تكرار هذه المشكلات. وهذا ما يُسمِّى بتراكم الخبرة الاجتماعية لدى المكوِّن الاجتماعي.

(١) تربوي ورئيس نادي الصفا الرياضي سابقًا - صفوى.

وتُقاس علامات النهوض الحضاري بمقدار التفاعل لسلوك الأفراد تجاه تلك المكوّنات والجماعات، حيث يمكننا وضع مقياس حقيقي لمعرفة درجة التفاعل والتأثر والتأثير لهذا التشكيل، بحسب ما وصل إليه هذه المجتمع وفق سُلَّم المعيار المشار إليه آنفًا.

وهنا مواجهة التحدّيات لا تعني بالضرورة بحث أسباب ومسبِّبات نشوء المشكلة فيها أو تبني وضع حلول جذرية فيما بعد، أغلب من يصادفونها في طريق بناء الذات يُفضِّلون استخدام أسلوب التجاوز الهادئ، فلا يكون هنالك تأثر أو تأثير في محطات الالتقاء أو التصادم.

غير أن هنالك من يبحث عن مثل هذا العناء الذي قد يُكلِّف صاحبه فترات توقّف إرادي، وانحراف مسار إجباري، وتعديل أسلوب، وتبديل هوية، بغية إيجاد حلٍّ جذري دائم لعقبات قد تمنع شريحة كبيرة من أبناء مجتمعهم من إكمال مسيرة اللحاق بركب التقدُّم الاجتماعي الطبيعي، وإفراز طبقة نخبوية تكون منفصلة وبعيدة عن الجسم المجتمعي.

لا شك أن هنالك فروقات بين أبناء أيِّ مجتمع إنساني تجعل ما أشرنا إليه واضحًا وجليًّا، غير أن النسبة قد لا تكون طبيعية في مثل وجود موانع وعقبات ومشاكل أصبحت مع مرور الزمن من المستحيلات تغييرها وتبديلها بما تلبَّسته من عباءات اجتماعية وسياسية واقتصادية صنعت منها موانع يستحيل التعامل معها.

مصلح من نوع آخر:

من هنا نبدأ في حديثنا عن دور (المصلح) غير التقليدي الذي ينظر إلى دائرة مجتمعه بقطرها الواسع الشامل المتأصِّل في جذوره، بما يعطيه كامل

الحقوق لمشاركة بقية أبناء مجتمع وطنه في هذه الدائرة الواسعة.

سميرنا في هذه العجالة هو واحد من وجوه التغيير والإصلاح في تاريخ المملكة، تشكَّلت شخصيته، وبدا عليه سيماء التفرُّد والتميُّز بين أقرانه في مطلع العقد الثاني من عمره يوم كان ابن الثانية عشرة من عمره، مارس الخطابة ومواجهة الجمهور بثقة كبيرة، جالس العلماء والأدباء والمفكّرين فكان لهم من شخصيته نصيب وافر، درس تجارب الإصلاح في محيطه العالمي، امتلك كاريزما القائد المؤثِّر، فبسط يده على من حوله بما أفاض اللَّه عليه من علم وحلم ودراية وشغف بالعمل والمعرفة، استطاع في أوقات عصيبة وقصيرة من تشكيل جمعي ساهم في إيصال ما يتبنَّاه من أطروحات اجتماعية وثقافية واقتصادية، كان لها بالغ الأثر في المجتمع، ذلك هو سماحة الشيخ حسن بن موسى الصفار حفظه اللَّه.

الصفار مفكرًا وطنيًا ومنظِّرًا إصلاحيًّا:

يُدرك المتابع لأنشطة الشيخ حسن أنه ومنذ عودته للوطن، قبل زهاء الثلاثة عقود من الزمن، حمل معه عدَّة مشاريع انصبَّت جميعها في عنوان واضح هو «المواطنة» لأبناء مجتمعه ولسائر أبناء المملكة، وذلك عبر مشاريع وأعمال ورؤى وأفكار ومبادرات فريدة من نوعها، عمل على تأسيسها لإيصال ما يعتقد بوجوب العمل به في ذلك الوقت، استشرافًا لمستقبل قريب سوف تُمكِّن الجميع من التشارك والعيش المشترك وقبول الآخر، وهذا ما يُسمَّى في وقتنا الحاضر بقوانين المواطنة.

وقد أدرك سماحة الشيخ حسن حاجة مجتمعه لبناء فكر التشارك بين بقية المكوِّنات الاجتماعية في البلاد عبر سلسلة من العناوين، التي بدأها منذ

عودته للوطن، عبر البرامج واللقاءات والاطروحات والمشاريع التي تصبُّ في بوتقة المواطنة والانفتاح ومعرفة الآخر وقبوله كمكوِّن اجتماعي لا غنى عنه في بناء هذا الوطن الواحد، وهذا ما نراه بارزًا في مؤلفاته التي تنيف على المائة وثلاثين، وتمتاز بالجرأة في الطرح والتنظير التحليلي للقضايا التي يتناولها.

الشيخ الصفار ينال الدكتوراه في الإبداع:

من أهم المؤهِّلات في شخصية الشيخ الصفار هي مكانته العلمية المرموقة، ولمن لا يعرف المكانة العلمية لسماحة الشيخ الصفار كشخصية وطنية جمعت ما بين المنهج الحوزوي والأكاديمي، فإننا نُنوِّه إلى أنه نال شهادة الدكتوراه من جامعة الإبداع التابعة للاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية، يقول عنه الدكتور أسعد علي في حفل تكريمه بمناسبة حصوله على شهادة الدكتوراه:

«كان لحصول الشيخ الصفار على الدكتوراه مراحل ثلاثة؛ أولها الترشيح حين أُبلغ بذلك وكتبت له مقدمة كتابه (المرأة العظيمة)، وثانيها قبل عامين حين منح عضوية مجمع نهج البلاغة العالمية قبل عامين هنا وبمناسبة مماثلة، وثالثها اليوم حين وصل إلى مرحلة الإشراق ووصل عدد مؤلفاته إلى ٦٥ كتابًا، وهو مطالب بخمسة أخرى يُحدِّدها له الاتحاد حتى تصبح دكتوراه الإبداع في حالتها الإشراقية. يقول نص بيان الاتحاد:

«بناء على دلائل معنى المعنى المرشدة إلى غاية تأسيس الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية - ويشيرون أدناه إلى الوثائق التي تدعم هذا القول، وبناء على مقتضى المعنى الموجَّه إلى استحداث دوائره الجامعية والمجمعية

والموسوعية، وبناء على تقدير لجنة تنسيق المؤلفات العالمية لآثار الشيخ حسن الصفار والتفاصيل في ملف موجبات اختيار الصفار لدكتوراه الإبداع، وبناء على تميُّزه في التطلُّع إلى الأهم والأنفع والمشاركة في توصيله الأقوم والأبدع، وبناء على حماسة أطروحته الإبداعية في الأثر الإعلامي الجامع، وبناء على تلهُّفه الدافق في أساليب توصيل أم اللغات في مثل الصوت الكوني، استحق الشيخ حسن موسى الصفار دكتوراه الإبداع في إعلاميات الإقناع، عن شخصية امرأه عالمية يقرؤها أكثر من ٧٠٠ مليون معجب وقارئ في العالم تلك هي المرأة الإنجليزية تلك هي القائلة (صوتوا للحب وقبّلوا ضوء القمر)؟ إنها بربارة كارتلاند هاملتون Mary Barbara Hamilton والتي لا يعرفها منا سوى الشيخ حسن الصفار»، وماري برباره (١٩٠١ - ٢٠٠٠م) هذه من أكثر المؤلفين على مستوى العالم، حيث قدر عدد مؤلفاتها بـ ٦٥٠ كتاباً.

الواقعية في فكر الصفار:

لم يكن الإصلاح من وجهة نظره في يوم من الأيام إلَّا ابنًا بكراً للواقعية السياسية، واقعيةً تنحاز فيها الخيارات لصالح الهدف وهو الإصلاح، ليس من باب البرجماتية أو الميكافيلية بقدر ما هو انحياز للحق وتحيُّز للمصالح العليا للأمة، إصلاح من داخل المنظومة المجتمعية بعيدًا عن ثقافة الإملاءات والشعارات الطنَّانة التي يتشدَّق بها المأخوذون بمنطق الشعارات الفارغة دون أدنى اعتبار لأبسط قواعد التغيير العلمية في علم الاجتماع مثلًا التي ترى أن لكل مجتمع خصوصيته ورؤيته المستقلَّة التي تتناسب مع طبيعته الثقافية ومكوِّناته الاجتماعية ونظامه، بعيدًا عن الإملاءات التي تحوّل الجماهير لمجرد قطيع يُغرِّد خارج السرب دون النظر للمكوِّنات والمآلات والزمن الذي يتطوَّر بشكل سريع ومذهل.

وعي القائد المتمايز:

إنه وعي القائد المتمايز الذي راكم تجارب الإصلاح بعد أن شخَّص الواقع وحدَّد الخطوط العريضة لمشكلاته الجوهرية وآفاته الاجتماعية، متبنِّيًا بذلك وجهة نظر الكثير من روَّاد الإصلاح. وفي مجال الحقوق تبنَّى سماحة الشيخ الصفار وجهة نظر سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي يرى أن الشيعة يجب أن يندمجوا ضمن أوطانهم، ويتعايشوا وفقًا لمتطلَّبات المواطنة، ويعملوا على الإصلاح ضمن منظومة دولهم القِطرية، تعزيزًا لقيمة أوطانهم، ودرأً للإشكالات الناجمة عن التداخل والالتباسات في المفاهيم الموجبة للتوجُّس وزعزعة الثِّقة.

مشاريع إصلاحية واعدة:

ولم يكتفِ سماحته بمطالعة وتبني نظريات الإصلاح، بل إنه أبدع في تخليق الحلول وفقًا لمطالعاته المعمَّقة، فقد دأب سماحة الشيخ الصفار على اجتراح الكثير من الحلول الإبداعية كقائد متمرَّس ومنظِّر إصلاحي، كان من أبرز هذه المبادرات الإبداعية:

- مد جسور التواصل مع فعاليات شركائه في المجتمع بكل أطيافه، من خلال مشاركته على سبيل المثال لا الحصر في إثنينية عبدالمقصود خوجة بجدة، وخميسية الشيخ حمد الجاسر بالرياض، وأحدية الدكتور راشد المبارك بالرياض، وصالون محمد سعيد الطيب بجدة، وصالون مركز ساس للاستطلاع الوطني بالمدينة المنورة، وسبتية الموسى بالأحساء، والنادي الأدبي بالمنطقة الشرقية. وهذه الزيارات وغيرها أفضت لارتياح كبير في أوساط العلماء، صرَّح من بعدها الشيخ العبيكان بالقول: «إنه لا يمكن وضع

الشيعة كلهم في سلَّة واحدة».

- شارك في مؤتمرات الحوار الوطني عبر مركز الملك عبدالعزيز التاريخي وغيره من قنوات الحوار الوطني.

- قدَّم مطالعات معمَّقة حول جذور التطرُّف والتباسات سوء الفهم الديني والتاريخي، بلغة رصينة من خلال خطاباته ومؤلَّفاته التي تنيف على المائة وثلاثين مؤلفًا، منها:

المذهب والوطن، التنوُّع والتعايش، المشكل الطائفي والمسؤولية الوطنية، الحوار والانفتاح على الآخر، السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل، رؤية حول السجال المذهبي، التنوُّع والحرية في الإسلام، «ولم يكتفِ بالإطار النظري لرؤيته، بل إنه عزَّز هذه النظريات وترجمها عمليًّا بزيارات جريئة لأبرز وأعلى الشخصيات الدينية في المملكة، كان من بينها زيارته لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز (١٤١٦هـ)، وابنه الشيخ أحمد بن عبدالعزيز بن باز في (١٤٣٤هـ)، وزيارته للشيخ عبدالمحسن العبيكان (١٤٢٦هـ)، وزيارته لمفتي المملكة عبدالعزيز الشيخ (١٤٢٩هـ)، ورئيس مجلس القضاء الأعلى الشيخ صالح اللحيدان، ووزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية ووزير العدل، والكثير من علماء المملكة، مترجمًا بذلك رؤيته بضرورة الانفتاح على الآخر.

- وضع يده على المُلحِّ الذي يُؤرِّق جراحات واقع الأمة المؤلم.

- جسَّر أواصر التواصل وكسر أغلال التفكير الطائفي المقيت الذي يُمزِّق الأمة عبر مفاهيم ومفردات موروث القراءات التي تستنقص من الدين والإنسان والمجتمع السعودي، فانتقد الواقع السلبي في الساحة الشيعية قبل

غيرها من باب الإنصاف.

- عمل على إشاعة ثقافة الوحدة الإسلامية عبر مشاركاته في مؤتمرات الوحدة بين أطياف المذاهب الإسلامية، مقدِّمًا أطروحاته الواضحة والجريئة من خلال نقده البنَّاء.

- قدَّم خطابًا إصلاحيًّا وطنيًّا، أعلى فيه قيمة الوطن والمواطنة، واقترح تجريم أيِّ فكر يمسُّ هذه الثابتة الكبرى في سُلَّم أولويات المجتمع، بغض النظر عن التناقضات الملتبسة، فحوَّل من خلالها مفاهيم التعدُّدية الدينية لفرصة للإصلاح بدل تحويلها لمادة لإذكاء الصراعات القبلية والمذهبية.

قيادة جريئة وخطوات شجاعة:

أيَّة قيادة تتبنَّى الإصلاح من الطبيعي أن تضع في اعتبارها ردود الفعل نتيجة تحريك المياه الآسنة، ومصداقية أيَّة فكرة تكمن في قدرتها على مواجهة موانع التغيير نحو الأفضل.

وعندما قدَّم سماحة الشيخ الصفار رؤاه الجريئة تصوَّر البعض أن سماحة الشيخ الصفار يحاول أن يُخاتل أو يُجامل أو يُحابي أو يستخدم التقية في معالجاته، ولهذا توجَّهت له وسائل الصحافة بأسئلة صريحة تجاوزت الخطوط التي كان يعتقد أنها حُمر وما هي إلَّا التباسات، كسر من خلالها سماحة الشيخ جليد التخلُّف المتراكم الذي أفضى لاختلاق ثقافة الارتياب داخل النسيج الاجتماعي بين أطياف المجتمع السعودي، كما يتضح ذلك في «حواره الجريء والساخن مع الصحفي عبدالعزيز محمد قاسم عام ٢٠٠٤ مع جريدة (المدينة) على مدى خمس حلقات».

وهذا هو ديدن القادة الكبار الذين تذوب على أيديهم جبال الوهم، ويتبدَّد بجهودهم ظلام التخلُّف، وما كان في يوم من الأيام حلمًا على لسان المثقَّفين أصبح جزءًا لا يتجزَّأ من أدبيات الصحافة والمناهج الأكاديمية والمدرسية، كمنهج التفكير الناقد، وأقلام كبار المفكّرين و المؤلّفين.

اليوم ساحاتنا الثقافية تنعم بحوارات شفَّافة ببركة هذه الجهود، وإن كان هذا لا يعني أننا وصلنا لمرحلة إتمام رسالة التغيير، ولكن كما يقول الفيلسوف الصيني المتوفَّى في ٥٣٣ ق.م «لاو تزو»: «بداية الألف ميل خطوة واحدة».

قامة وطنية وأيقونة جامعة:

أخيرًا نحن أمام قامة وطنية وأيقونة جامعة مانعة كبرى، استطاعت أن تشقَّ طريقًا للإصلاح، وتجترح طرقًا لا متناهية للتواصل الحضاري، وإعلاء قيمة المواطنة، وجمع أطياف المذاهب المختلفة تحت عباءة الوطن الكبير، الذي يكبر بإنسانية أهله، وبتوظيف مشتركاته لخدمة الأجيال القادمة، من خلال إيجاد معايير يكون بمقدورها تحييد طوفان السلبيات المعيقة لانطلاقة وطننا الكبير الحافل بمشتركاته الإنسانية، وهي أكبر ثروة تمدُّ العقول المتحاورة بكنوز وثبتنا الحضارية المرجوة لغدٍ واعدٍ.

رواد النهضة الثقافية
الشيخ الصفار نموذجًا

الأستاذ محمد جاسم محفوظ[1]

حينما نتحدَّث عن تجربة دينية أو فكرية أو سياسية، ونعمل على تظهير العناصر الإيجابية ونقاط القوة فيها، هذا لا يعني خلو التجربة من مطبات أو عيوب أو نواقص؛ لأن هذه من طبائع الأمور. وفي إطار استفادة الأجيال اللاحقة من هذه التجارب تتأكَّد الحاجة إلى تظهير عناصر القوَّة ومؤشِّرات التميُّز في هذه التجربة أو تلك؛ لأن هذا التظهير هو سبيل أخذ العبر والدروس من هذه التجارب في كل مراحلها وأطوارها. وهذا الكلام ينطبق على كل التجارب سواء كانت دينية أو ثقافية أو اجتماعية. وتنوُّع هذه التجارب لا يلغي حاجة المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة إلى الانفتاح والتواصل مع هذه التجارب بصرف النظر عن مآلاتها ونتائجها المباشرة. ففي كل الأحوال تتأكد حاجة الأمة الدائمة لفحص وقراءة تجارب علماء الأمة، ولا سيما من

(١) مفكر وكاتب – سيهات، رئيس تحرير مجلة الكلمة.

خاض غمار التحدِّي وتصدَّى لشؤون الأمة المختلفة في ظروف وأوضاع حسَّاسة ودقيقة على المستويات الثقافية والسياسية والأمنية.

وفي سياق ضرورة الاهتمام بمعرفة تجارب الإصلاح في الأمة جدير بنا أن نتوقَّف عند النقاط التالية:

١- الأمم الحيَّة هي التي تحتضن عظماءها وفعالياتها وزعاماتها، وتعمل على الاستفادة منهم إلى أقصى حدود. أما الأمم الميِّتة والخاضعة لتأثير ثقافات الجمود والاجترار، فهي تعمل على عرقلة مسيرة الإصلاح ومحاربة المصلحين، وإطلاق حروب الأوراق الصفراء ضدَّها، كوسيلة فعَّالة لمنع اتِّساع تأثير هذا المصلح، سواء على الصعيد الشخصي المباشر أو على صعيد خياراته العامة وأفكاره وأطروحاته الفكرية والحضارية.

وأحسب أن ما تتعرَّض إليه مشروعات الإصلاح وشخصياته من حروب متعدِّدة وتشويه متعمَّد تشترك فيه -لاعتبارات عديدة- جهات متنوِّعة، ساهم في منع بعض شرائح الأمة من الاستفادة من هذه التجارب والاستزادة من فكر وتوجيهات ودروس هذه التجارب.

وهذا يُحمِّل شرائح الأمة المختلفة مسؤولية صياغة رؤية حضارية في التعامل مع علمائها ومصلحيها، بحيث لا يتم الاشتراك في تعويق عجلة الإصلاح في الأمة، تحت يافطات وعناوين ليست دقيقة، وتساهم في عملية التسقيط المادي والمعنوي لكل راية وتجربة تحمل مشعل النور والتنوير في الأمة.

وتُعلِّمنا مختلف التجارب أن الأمة بكل فعالياتها تتحمَّل مسؤولية دينية واجتماعية وأخلاقية للوقوف في وجه كل الأطراف التي تشنُّ حروبًا ظالمة على المصلحين في الأمة. فلا يجوز الصمت والتواري عن الأنظار

في المرحلة التي تتَّجه فيها بعض الإرادات لاستهداف تجارب الإصلاح في الأمة. وأدنى ما يمكن أن تقوم به شرائح وفئات الأمة المختلفة هو عدم الاشتراك في مشروع الاغتيال المعنوي لأيَّة شخصية تحمل هم الإصلاح وتعمل من أجله.

٢- تجارب الإصلاح الديني والثقافي والسياسي في الأمة، ليست تجارب نهائية ومقفلة، وإنما هي تجارب مفتوحة على كل العطاءات التي تساهم في إدامة واستمرار هذه التجارب من جهة، ومن جهة أخرى مفتوحة على الإضافة ومشروع التراكم المعرفي والفكري؛ لذلك ثمَّة ضرورة معرفية وتاريخية لتزخيم التجارب الإصلاحية في الأمة بعطاءات نوعية، متميِّزة، ترفد الساحة بالمزيد من الرؤى والأفكار التي تستهدف تحرير الأمة من ربقة التخلُّف والاستقالة من المسؤولية. وكما يقول أحد المصلحين: «فعندما نكون أمة العقل، لا أمة الانفعال، وأمة الإرادة لا أمة الاسترخاء، وأمة اقتحام المستقبل، لا أمة النوم في انتظار المستقبل، فإننا نستطيع أن نتقدم».

٣- ثمَّة ضرورات عديدة ذاتية وموضوعية، تؤكِّد أهمية أن يلتقي أهل النور والتنوير والتجديد في الأمة بعضهم مع بعض، لتبادل الآراء والخبرات، وتطوير نسق التعاون والوصول بمشروع الإصلاح والتجديد إلى مديات واسعة.. فما يطمح إليه أهل التجديد والإصلاح في الأمة لا يمكن لأيِّ طرف بوحده أن يفي بحاجاته ومتطلَّباته، ولا خيار أمام الجميع إلَّا العمل على بناء كتلة واسعة من الإصلاحيين يُنسق بعضها مع بعض، وتدعم وتسند بعضها بعضًا، ويدافع بعضها عن بعض، وتعمل بشكل مشترك لبناء مشروعات مشتركة تُعزِّز من خيار الإصلاح والتجديد في الأمة. وذلك «لأن الإنسان في المفهوم الإسلامي يُمثِّل المخلوق الذي يتصل العمل بكل موقع من مواقع

وجوده بحيث يُمثِّل العمل مسؤولية كل طاقة من طاقاته، بحيث إنك ستسأل عمَّا عملت في عمرك، وعمَّا عملت في شبابك، وعمَّا عملت في عملك، وعمَّا عملت في مالك، وعمَّا عملت في كل ما يحيط بك، ليكون العمل هو حركة المسؤولية في كل حياة، وهذا ما نُؤكِّده فيما نستوحيه من التأكيد في القرآن الكريم على العمل كأساس لسلامة المصير إذا كان العمل إيجابيًّا، وعلى العمل كأساس لابتعاد المصير عن خط السلامة إذا كان سلبيًّا».

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

ولا بد أن نتذكَّر جميعًا أن أمة لا تدافع عن مصلحيها لا تبلغ الرفعة والتمكين، وأن أمة لا تقرأ تجارب مصلحيها ستُصاب بالضمور والتآكل الداخلي.

أسوق كل هذا الكلام في سياق تقديم كتاب تكريم الشيخ حسن بن موسى الصفار، وهو أحد أعلام منطقة الخليج العربي في شأن الدين والمجتمع، وهو أحد رُوَّاد النهضة الإسلامية الحديثة. ولو تأمَّلنا في العطاءات الثقافية والفكرية للشيخ الصفار نرى أن هذه العطاءات مرَّت بمرحلتين أساسيتين:

١- مرحلة تجسير العلاقة بين الإسلام والحياة، والعمل على إبراز الجوانب الاجتماعية والسياسية لأئمة أهل البيت عليهم السلام؛ لذلك عمل الشيخ الصفار في مرحلة السبعينات الميلادية إلى منتصف الثمانينات لإبراز هذا الجانب.

وكثرت في هذا السياق خطب الشيخ الصفار وكتاباته في خلق مصالحة فعَّالة بين الإسلام وشؤون الحياة المختلفة، حتى يتوفَّر الإطار النظري

(١) سورة الزلزلة، الآية ٧ - ٨.

للسعي في مشروع النهضة الإسلامية الحديثة. وتعدَّدت في هذا السياق كتابات الشيخ الصفار وخطبه في المناسبات الدينية المتنوِّعة في إزالة كل الرُّكام الثقافي الذي ينتمي إلى عصور التخلُّف والانحطاط الذي يمنع أبناء المجتمع الإسلامي من التفاعل والتصدِّي للشأن العام في الأمة.

٢- المرحلة الثانية مصالحة الإسلام مع قضايا الحرية وحقوق الإنسان، حتى يتمكَّن الإسلاميون شخصيات وجماعات ومؤسسات لإبراز جوانب الإسلام في هذه القضايا المصيرية.

وقد كان كتاب الشيخ الصفار (التعدُّدية والحرية في الإسلام - بحث حول حرية المعتقد وتعدُّد المذاهب) المطبوع عام ١٩٩٠م تدشينًا لهذه المرحلة، والتي امتاز فيها الشيخ الصفار في إبراز قيم الحرية والتعدُّدية وحقوق الإنسان والاعتراف بالآخر وجودًا ورأيًا وحقوقًا. ولدى الشيخ الصفار في هذه المرحلة العديد من المؤلفات والخطب والمحاضرات التي تبلور هذا الخيار وتدعو إليه.

لذلك فإن تجربة الشيخ الصفار الثقافية والسياسية والاجتماعية، غنية ومليئة بالدروس والعبر، وهي جدير بالقراءة والتحليل.

قراءة في التجربة الإعلامية للشيخ الصفار

الأستاذ محمد عبدالغفور الشيوخ[1]

مقدمة:

تستهدف هذه الورقة تقديم قراءة تحليلية في التجربة الإعلامية لسماحة الشيخ حسن موسى الصفار، خلال العقدين الماضين، وتحديدًا للفترة ما بين عام (١٩٩٥ - ٢٠١٥م)، مستندًا في ذلك على رصد بعض حواراته الصحفية التي ناهزت أكثر من مائة لقاء وحوار صحفي منشور في العديد من الصحف المحلية والخليجية على حدٍّ سواء، كصحيفة الوطن، والجزيرة، والمدينة، والشرق الأوسط، والحياة، وعكاظ السعودية، وجريدة الأيام البحرينية، والقبس والدار الكويتية مثالًا، مضافًا إلى لقاءاته المتنوّعة مع بعض وكالات الأنباء العالمية، كوكالة رويترز، ووكالة الأنباء القرآنية العالمية وغيرها، إلى جانب بعض المجلَّات التخصُّصية، كمجلة المواقف البحرينية، والعصر

(١) باحث وكاتب - تاروت.

الكويتية، والشرق السعودية، والعديد من المواقع الإلكترونية المحلية والخليجية المختلفة، كموقع إسلام أونلاين، وإيلاف، والعربية نت، وغيرها من المواقع طول تلك المدة الزمنية.

بكل تأكيد لا يسعنا في هذه الورقة تقديم قراءة متكاملة حول تجربة سماحته الإعلامية في كافة الوسائل الإعلامية المرئية والمقروءة والمكتوبة، وطوال تاريخ مسيرته الفكرية والثقافية التي ناهزت الخمسة عقود من الزمن وأكثر، أي منذ اعتلى منبر الخطابة في الحادية عشر من عمره، مرورًا بتجاربه المتعدِّدة في التبليغ الديني والتوجيه الاجتماعي في ساحات وبلدان مختلفة؛ لأن ذلك يحتاج إلى المزيد من الجهد والوقت. لكن يمكن أن تكشف هذه الورقة جانبًا كبيرًا من منهجية سماحته في الجانب الإعلامي طوال مسيرته الخطابية والوعظية والإرشادية.

لهذا سنكتفي في هذه الورقة بتسليط الضوء على المسار الإعلامي لسماحته لتلك المرحلة الزمنية اعلاه، والموجهة تحديدا للصحافة المحلية والخليجية والعالمية، للوقوف على ابرز مكامن القوة في الاداء الإعلامي لسماحته، وأهم ملامح خطابه الإعلامي والسياسي، سواء ذات الصلة بالحالة الشيعية العامة في المنطقة أو شيعة المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، إلى جانب ما يتَّصل بالواقع الديني والاجتماعي والسياسي والثقافي، على صعيد المجتمع المحلي أو الإقليمي أو الدولي، لتكوين فكرة عامة عن منهجية مقاربة سماحته لبعض الموضوعات والملفات الحسَّاسة، ضمن ظرفيها الزماني والمكاني. كما سيتم تسليط الضوء أيضًا على الأسباب التي دفعته لتكثيف حضوره الإعلامي خلال العقدين الماضين، عبر العديد من الوسائط الإعلامية، بما يتناسب والهدف المنشود من هذه الورقة.

وقبل أن نُخضع تجربة الشيخ الصفار الإعلامية للفحص، ينبغي التنويه إلى أنها تجربة فردية اجتهادية، صقلت بالخبرة والممارسة الطويلة زمنيًّا، لكنها تجربة موفقة وجديرة بالاهتمام والدراسة، بالرغم من أن سماحته ليس متخصّصًا في المجال الإعلامي كسائر المتخصّصين الأكاديميين في هذا الحقل، إلَّا أنه أبدع في هذا الميدان، ويمكن للكثير من المهتمين في المجال الإعلامي وكذلك الإعلاميين المتخصّصين في هذا الشأن الاستفادة من هذه التجربة والبناء عليها. وعليه فإننا سنعمد إلى تقسيم هذه الورقة إلى محورين بعد بيان المفاهيم المرتبطة بهما.

المفاهيم

هناك مفهومان أساسيان ذوا صلة بموضوعات هذه الورقة بحاجة إلى تحديد دقيق لفك الاشتباك بينهما من جهة، ولتكون بقية المفاهيم المرتبطة بموضوعات البحث أكثر وضوحًا وتحديدًا، وهما:

أ- **مفهوم التجربة الإعلامية**، ونقصد بالتجربة الإعلامية لسماحة الشيخ الصفار كل ما يرتبط بالمسار (المنهج) الإعلامي الذي اتّبعه في التواصل مع مختلف الوسائل الإعلامية، والمتمثّلة في اللقاءات والحوارات الصحفية، التي ناهزت أكثر من مائة لقاء إعلامي وحوار صحفي، حول العديد من الموضوعات الحسَّاسة، طوال الثلاثة العقدين الماضين.

ب- **مفهوم الأداء الإعلامي**، ونقصد به كل ما يتعلّق بخصائص الخطاب الإعلامي والسياسي لسماحته، مضافًا إلى أساليب النقاش وفنِّيات الحوار وطرق الإقناع المتَّبعة، لتوصيل مختلف الأفكار والرؤى والمواقف السياسية والاجتماعية على حدٍّ سواء، ولكافة الأطراف المعنيَّة بالحديث،

ليتمكَّن الطرف المتلقِّي من فهمها بشكل صريح وواضح ودون لبس وإبهام وغموض.

المحور الأول: دواعي الحضور الإعلامي:

يلحظ المتتبِّع للحوارات التي أجريت مع سماحته عبر مختلف الصحف المحلية والخليجية والدولية، أن حضوره الإعلامي كان مبكّرًا جدًّا (١٩٩٥م)، في الوقت الذي كان هناك حالة من العزوف لدى العديد من المحسوبين على النخبة الدينية والثقافية الشيعية عن مواجهة الإعلام. لا شك أن عدد الرموز الشيعية المنفتحة على الإعلام آنذاك كانوا قلَّة، وربما يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة، كما لم تكن لدى الشيعة في المنطقة آنذاك قنوات ومحطات فضائية تخاطب العالم إلَّا عددًا يسيرًا جدًّا، علمًا بأن المنطقة في ذلك الحين كانت تشهد أحداثًا سياسية كبيرة وفي غاية الحساسية، وتعيش إلى جانب ذلك ظروفًا طائفية خطرة وغاية التعقيد، وبالمثل كان الظرف السياسي للحالة الشيعية في العالم الاسلامي عمومًا والخليج خصوصًا والسعودية بشكل أخص، ليس كما هو الحال عليه اليوم. وهذا لا يعني بطبيعة الحال، أن ظروف المرحلة الراهنة باتت أفضل حالًا من ذي قبل، مع إقرارنا التام بتباين ظروف كل مرحلة عن الأخرى بالنظر لطبيعة أحداثها الخاصة.

في تقديرنا، إن الانفتاح المبكّر لسماحة الشيخ الصفار على مختلف الوسائل الإعلامية، لم يكن عفويًّا ومرتجلًا، بقدر ما هو مقصود ومخطَّط له أيضًا، ونابع من رؤية وتقدير موقف. وبمعنى آخر، هنالك ثمَّة دواعٍ مهمَّة وبواعث حقيقية حفَّزته للانفتاح على مختلف وسائل الإعلام باكرًا وبشكل مكثَّف أيضًا، ويمكننا هنا الإشارة إلى أبرزها:

١- حساسية الظرف السياسي للشيعة:

خلال العقود الأربعة الماضية، شهدت المنطقة أحداثًا سياسية عديدة وبالغة التأثير والأهمية، كالثورة الإسلامية في أيران عام١٩٧٩م، ثم الحرب العراقية الإيرانية عام١٩٨٠م، وغزو العراق للكويت، والوجود الأمريكي عام١٩٩٠م، والانتفاضة الشعبانية في العراق عام ١٩٩١م، والتفجيرات التي شهدتها المملكة في منطقة العليا بالرياض عام ١٩٩٥م وتفجيرات الخبر بالشرقية عام ١٩٩٦م، وكذلك انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠م، مضافًا لأحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، وما أعقبها من غزو أمريكي لأفغانستان وما تبعهما من أحداث، وكذلك سقوط نظام صدام في العراق، واغتيال رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق السيد الحكيم عام ٢٠٠٣م، وحرب إسرائيل على لبنان، وإعدام صدام فجر عيد الأضحى، وتفجيرات سامراء عام ٢٠٠٦م التي كادت أن تُشعل فتيل الفتنة بين الشيعة والسنة، وهي أحداث مرتبطة بنحو أو آخر بالحالة الشيعية العامة في المنطقة.

وكانت المنطقة في هذه الفترة الحساسة -أيضًا- تشهد تجاذبًا حادًّا بين الشيعة والسنة، وقد ساهمت العديد من القنوات الفضائية في تأجيج الحالة الطائفية والمذهبية، ولعل أبرزها قناة المستقلة وبعض المواقع الإلكترونية المقروءة والصوتية، وبالأخص منها حديثة النشأة كـ(برنامج البالتوك)، ممَّا أدَّى إلى رفع وتيرة التجاذب الطائفي بصورة عالية لم تشهده المنطقة طوال تاريخها الحديث، كما كان للفتاوى التكفيرية والتحريضية والصادرة من رموز التيار السلفي المتشدِّد دورًا بالغًا في زيادة منسوب الكراهية ضد الشيعة، وتحريض تنظيم القاعدة والجهات المتطرِّفة للاعتداء عليهم، كما

حدث بين عامي ٢٠١٤ - ٢٠١٥م، حيث تم استهداف دور العبادة للشيعة في الأحساء (حسينية المصطفى بالدالوة) والدمام (مسجد العنود) والقطيف (مسجد الإمام علي)، وكذلك طال الاستهداف شيعة الكويت (مسجد الإمام الصادق)، ونجم عن هذه الحوادث الإرهابية المؤسفة وذات البعد الطائفي سقوط العديد من الشهداء والجرحى من الطائفة الشيعية، ممَّا زاد من حِدَّة الاصطفاف المذهبي في المنطقة بصورة أكبر.

إن معظم تلك الأحداث السياسية خلقت مناخًا طائفيًّا محمومًا في المنطقة برمتها؛ لأن معظم تلك الأحداث كان لها صلة إما مباشرة بالحالة الشيعية أو غير مباشرة، الأمر الذي كان يتطلَّب على الدوام بروز مواقف صريحة حيال الأحداث الجارية تُعبِّر عن عموم الشيعة في المنطقة أحيانًا، أو عن بعض الوجودات الشيعية سواء في الخليج أو المملكة العربية السعودية، خصوصًا تلك الأحداث المرتبطة بمناطقهم الجغرافية بشكل مباشر.

لا شك أن هذه الأحداث الحسَّاسة، التي شهدتها المنطقة، ساهمت بشكل كبير في تحفيز الشيخ الصفار لتكثيف حضوره الإعلامي، للتعبير عن الموقف السياسي للحالة الشيعية في عموم المنطقة وشيعة المملكة العربية السعودية تحديدًا، خصوصًا في ظل وجود جهات وأطراف عديدة في المنطقة كانت على الدوام تسعى وبكل جهدها لتجريم الشيعة في هذه البقعة الجغرافية، وتخوينهم وتصويرهم وكأنهم أعداء لوطنهم وأدوات لتنفيذ أجندات خارجية. مضافًا إلى أن موجات التسعير الطائفي من شأنها أن تُهدِّد حالة السِّلم الأهلي في عموم المنطقة وليس الخليج أو المملكة وحدها، ممَّا يستوجب على الدوام بروز شخصيات مؤثِّرة في الإعلام لمواجهة كافة التحدِّيات والتخفيف من حِدَّتها.

وتجدر الإشارة إلى أن التحريض الدائم على الشيعة وتكفيرهم وتخوينهم، خلال الأربعة العقود الماضية، والذي كان يتم عبر العديد من القنوات الفضائية والوسائط الإعلامية، ومن بينها بعض الصحف والقنوات الرسيمة أحيانًا، دفع بعض الرموز الشيعية في المنطقة لمواجهة هذه الموجة المحمومة، وكان الدفاع متركِّزًا في الغالب عن الجانب العقدي للشيعة، وذلك عبر القنوات المتاحة آنذاك، وفي مقدّمها قناة المستقلة، عبر برنامجها الشهير «الحوار الصريح بعد التراويح»، والذي كان يديره المعارض التونسي السابق محمد الهاشمي الحامدي أوائل عام ٢٠٠٠م، كما دفع العديد من المرجعيات الشيعة في المنطقة إلى تأسيس العديد من القنوات الفضائية، كردٍّ فعل على هذه الحالة العدائية ضد الشيعة، وللتعريف بالعقائد الشيعية، والتحدُّث باسمهم، والدفاع عنهم، وإبراز هويتهم الحقيقية للعالم وبصورة موضوعية ومُتَّزنة، هذا فضلًا عن الدور التوعوي والتثقيفي للجمهور الشيعي والمناط بهذه القنوات الفضائية، والذي كان يأمله معظم الشيعة منها. ولكن لم تستطع تلك القنوات مجاراة الإعلام المناوئ أولًا، كما لم تستطع تقديم صورة الشيعة الحقيقية للعالم ثانيًا، ولم تتمكَّن -أيضًا- من الإسهام الأمثل في دورها التوعوي والتنويري الذي يعكس المفاهيم والرؤى والعقائد الشيعية.

يظهر أن قلَّة الخبرة والاحترافية في العمل الإعلامي، وغياب الوعي بالدور الحقيقي لهذه المنابر، مضافًا إلى عدم الإدراك الكافي بالتحدِّيات القائمة، كانت هي أبرز أسباب الإخفاق في التوظيف الأمثل لمعظم القنوات الشيعية.

وبالمثل، لم يكن في تلك الفترة العدد الكافي من الشخصيات والرموز

الشيعية، التي تبنَّت مسؤولية التعبير عن المواقف السياسية والوطنية للحالة الشيعية سواء في عموم المنطقة أو في الخليج والسعودية بشكل خاص، وبالشكل المتناسب وبحجم الأحداث والتحديات الكبيرة آنذاك.

في تقديرنا، إن الشيخ الصفار كان مدركًا جيدًا لمجمل هذه الظروف والتحديات المعقَّدة ومدى انعكاساتها على الشيعة في المملكة، وبالمثل -أيضًا- كان مدركًا حاجة شيعة المملكة الماسة لإبراز هويتهم الوطنية على الدوام وبصورة واضحة، للتخفيف من حِدَّة التأجيج الطائفي نحوهم، قدر الإمكان، مع تقديره التام بصعوبة هذا المهمة، بالنظر لتعقيدات المشهد السياسي، الذي كان يحتاج على الدوام إلى جهود إعلامية كبيرة وجهود أخرى رديفة متعدِّدة الأشكال لتخفيف حالة التوتُّر السائدة آنذاك.

٢- محاولة ملئ الفراغ والإجابة عن الإشكالات

كان لتسارع الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة، خلال العقود الأربعة الماضية، وفتاوى التكفير ضد الشيعة، وغيرها من العوامل التاريخية والاجتماعية المرتبطة بالواقع الشيعي، كان لها دور كبير في إثارة الكثير من الإشكالات الحسَّاسة وذات الطابع السياسي والاجتماعي والعقائدي في آن. هذا الواقع شكَّل ضغطًا كبيرًا على الشيعة، وجعل معظم نخبهم في حالة حرج وانزواء على الدوام. لكنه بالمقابل حفَّز آخرين للتصدِّي لهذه الحالة الحرجة، وللإجابة عن تلك الإشكالات المثارة، خصوصًا بعد أن أُتيحت لهم فرصة التعبير عن أنفسهم، عبر بعض المنابر الإعلامية المتاحة، وكان الشيخ الصفار أحد هؤلاء القلَّة القليلة، بل في مقدمتهم. ولكن لسوء الحظ أن معظم الشخصيات الشيعية التي تحمَّست للدفاع عمَّا كان يتعرَّض له الشيعة، اكتفت

بالإجابة عن بعض الإشكالات في بُعديها العقائدي والتاريخي، كما لم يكن أداؤها في معظم الأحيان مُلبِّيًا للحد الأدنى من طموحات النخبة المثقفة الشيعة، كما لم يكن مجاريًا للتحديات وحجم الهجوم الشرس والتمييز الممنهج الذي يتعرَّض له الشيعة. وكان لضعف الخبرة في مواجهة الإعلام والتعبير عن الذات بوعي النصيب الأكبر من الفشل في الأداء الإعلامي.

يظهر أن غياب النخبة الشيعية المحترفة إعلاميًّا، والاكتفاء بالمنبر الحسيني الذي غالبًا كان موجِّهًا لمخاطبة الجمهور الشيعي، وعدم إدراك بعض النخب الشيعية بضرورة الانفتاح على مختلف الوسائل الإعلامية التي أُتيحت لهم مؤخَّرًا، لمخاطبة الآخر وإيصال الصوت للعالم، كان له أثر سلبي على الحالة الشيعية، ممَّا ساهم وبشكل كبير -أيضًا- في حالة الانكفاء والإرباك وضعف الأداء الإعلامي، وعدم القدرة على مواجهة الحملات الإعلامية الشرسة الموجَّهة ضدهم، وبالتالي لم يتمكَّن عموم الشيعية في المنطقة، بأيَّة صيغة من الصيغ، من التعبير عن أنفسهم بشكل ملائم، كما لم يتمكَّنوا من الإجابة عن الإشكالات المثارة حولهم، إلَّا في حالات نادرة لا تفي بالغرض، سيما أنهم -ولفترات طويلة زمنية طويلة- كانوا لا يمتلكون وسائل إعلامية فاعلة تُمكِّنهم من التعبير عن عقائدهم ومواقفهم السياسية وتقدّمهم للعالم ومن حولهم بالصورة التي كانوا يتطلَّعون إليها.

وكان سماحة الشيخ الصفار من بين الشخصيات التي تلمس هذا الواقع المرير وبشكل مبكّر أيضًا، ثم حاول قدر المستطاع أن يسدَّ هذه الهُوَّة، بالتصدِّي للإجابة عن العديد من الإشكالات الحسَّاسة في شِقِّها السياسي والاجتماعي والتاريخي والعقدي والثقافي أيضًا.

أظن أن المراقب لتجربة الشيخ الصفار الإعلامية والمُتفحِّص لبعض حواراته الإعلامية والصحفية المتنوِّعة في العديد من الصحف المحلية والخليجية والدولية أيضًا، يلحظ العديد من الموضوعات الحسَّاسة ذات الصلة بالأحداث الجارية، تم مقاربتها ونقاشها بوعي وشمولية وموضوعية وبذكاء أيضًا. مثال ذلك، ملف المواطنة والسِّلم الأهلي، وولاء شيعة الخليج لأوطانهم، وعلاقتهم بالمرجعيات الدينية في العراق وإيران، وكذلك علاقتهم بالجمهورية الإسلامية الإيرانية، والتعدُّدية المذهبية، والعلاقة الشيعية - الشيعية، والعلاقة السنية الشيعية، والحرية في الاسلام، والعلاقة الشيعية السلفية، والتجديد الفكري، والتعايش السلمي، والتمييز الطائفي، وغربلة التراث، والوحدة الوطنية، والمرجعية الدينية، والحوزات العلمية، ومواجهة التطرُّف والإرهاب، والتشدُّد الديني والأداء السياسي للحركات الشيعية، والعقائد الشيعية كالتقية، والمتعة، والإمامة، والعصمة، والحوزات العلمية، والمرجعيات الدينية، والمنبر الحسيني، والحوار الإسلامي - الإسلامي، والتجديد الديني، والصراعات الطائفية، وعلاقة الشيعة بالأنظمة السياسية، وثورات الربيع العربي، وعلاقة الشيعة في المملكة مع السلفيين، وموقف الشيعة في المملكة من سقوط صدام، والانتخابات، إلى جانب الموقف من الحوار الوطني في المملكة الذي تم تدشينه عام ٢٠٠٤م، والانتخابات البلدية في المملكة عام ٢٠١٥م، وغيرها من الموضوعات الهامة، التي تناولها بشفافية ووضوح وببراعة فائقة.

٣- التعبير عن الحالة الشيعية السعودية:

كان على الدوام لدى عموم الشيعة نخبة تُعبِّر عن مواقفهم السياسية والوطنية، وتوضّح عقائدهم وكل ما يرتبط بهم، وكان بالمثل هناك ثمّة رموز شيعية تُعبِّر عن كياناتهم بحسب موقعها الجغرافي، سواء كان ذلك يجري

في إيران أو العراق أو لبنان أو الخليج أو مناطق اخرى. وبطبيعة الحال، فإن النخبة التي تعيش في جغرافيا سياسية معيَّنة لديها القدرة على التعبير عن ماهيتها وتحدّياتها وظروفها بشكل أوضح وأدق من غيرها.

وفيما يتعلّق بالحالة الشيعية في المملكة العربية السعودية، وبالنظر لخصوصية الظروف الاجتماعية والسياسية والمذهبية، كان الوجه الأبرز، الذي يُعبِّر عن الحالة السياسية الشيعية السعودية ولا زال، منذ ثلاثة عقود من الزمن على الأقل، هو الشيخ حسن الصفار. هذا لا يعني، بكل تأكيد، خلو المملكة من نخبة شيعية مثقّفة أو رموز دينية لديها القدرة على الانفتاح على الإعلام والتعبير عن الحالة الشيعية في هذه البقعة الجغرافية بطبيعة الحال. لكن، يحسب للشيخ الصفار حضوره المبكّر إعلاميًّا وتصدِّيه لهذا الشأن، وكذلك قدرته الفائقة على التعبير عن الحالة الشيعية السعودية التي تعيش ظروفًا سياسية ومذهبية في غاية التعقيد، وبشكل مُتَّزن أيضًا.

إن حجم الموجات الإعلامية والطائفية الشرسة التي كان يتعرَّض لها عموم الشيعة في المنطقة وشيعة المملكة على وجه الخصوص، كان يستدعي بروز نخبة فاعلة لديها القدرة على التصدِّي والتعبير عن الحالة الشيعية عقائديًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا على حدٍّ سواء. لكن هذا لم يكن متوفّرًا في معظم الساحات التي يتواجد فيها الشيعة، وبالحجم التي تفرضه التحديات القائمة. لا شك أن خطابات الشيخ الصفار السياسية والإعلامية المتعدِّدة والموجَّهة لمخاطبة العديد من الأطراف على الصعيد الوطني والخليجي والإقليمي، ساهمت في إبراز البعد الوطني الإيجابي والخلَّاق للحالة الشيعية في المملكة، وهو البعد الذي كانت أطراف عديدة تسعى لتغييبه ولعقود من الزمن وبشتى الطرق والأساليب.

المحور الثاني: مكامن القوة في الأداء الإعلامي:

ونقصد بمكامن القوة في الأداء الإعلامي لسماحته، كل ما يتعلَّق بخصائص خطاباته الإعلامية والسياسية، ومهارات الحوار، وطرق الإقناع المتَّبعة، لتوصيل مختلف الأفكار والرؤى والمواقف، لكافة الأطراف المعنية بالحديث، وبشكل شفَّاف أيضًا، ويمكن إجمالها فيما يلي:

١- الانفتاح على كافة القنوات والإشكالات:

في الوقت الذي كان حضور سماحته الإعلامي مبكّرًا، كان -أيضًا- مهتمًّا بأن ينفتح على جميع وسائل الإعلام المحلية والخليجية والعالمية، وكذلك بالمثل على كافة المواقع الإلكترونية كالعربية نت، وإيلاف، وشبكة رفيعة الثقافية، وموقع الإسلام أونلاين وغيرها من المواقع، إلى جانب ذلك البرامج الحوارية الصوتية وذلك بمعزل عن توجّهاتها.

منذ دخول الإنترنت للمملكة أواخر التسعينات، أتذكَّر أنني شخصيًّا دعوت سماحته للمشاركة في ندوة حوارية عبر برنامج البالتوك (برنامج صوتي يحتوي على غرف نقاشية، يشارك فيه نخبة من العلماء والدعاة والمثقّفين في العالم العربي)، وكانت بعنوان: «التحديات التي تواجه الشيعة في المنطقة»، وكان ذلك في منزل أحد الأصدقاء المهتمين بهذا الشأن، وما كان من سماحته إلَّا تلبية الدعوة سريعًا وبرحابة صدر أيضًا. وأعلم أن مثيل هذه الدعوة عشرات الدعوات قُدِّمت لسماحته من قبل أصدقاء أو آخرين، وكان الشيخ لا يتردَّد في الاستجابة لهم، لإدراكه التام بأهمية الانفتاح كافة الوسائل الإعلامية سعيًا منه للإسهام في معالجة بعض الملفات الحسَّاسة سواء المرتبطة بالحالة الشيعية أو نحوها. في المقابل أعرف وربما غيري

يعرف أكثر مني في هذا الشأن، أن العديد من الشخصيات الشيعية تلقَّت عدَّة دعوات من صحف محلية أو قنوات فضائية للمشاركة في بعض البرامج الحوارية ذات الصلة بالواقع الشيعي والوطني، ولكنهم -ولأسباب عدَّة- كانوا لا يستجيبون لتلك الدعوات.

يبدو لي أن أبرز العوامل التي دفعت سماحة الشيخ الصفار للانفتاح على كافة القنوات والوسائط الإعلامية، تتمثَّل في شعوره العميق بحجم التحدّيات التي تواجه الحالة الشيعية، كالتعتيم والإقصاء والتهميش والتشويه المبالغ فيه أحيانًا وغيرها من المشكلات، وكذلك افتقار الشيعة لمنابر إعلامية كافية لديها القدرة على مجاراة تلك التحدّيات، يضاف إلى ذلك محدودية الشخصيات الشيعية الماهرة في التعاطي مع الإعلام والمتصدِّية لهذا الملف بكل حمولاته وتعقيداته ومن جميع جوانبه واتّجاهاته، الأمر الذي يستوجب الانفتاح على كافة الوسائل الإعلامية، لسدِّ هذه الثغرة ولو بشكل ضئيل جدًّا.

كما تجدر الإشارة إلى أن التحدّيات التي كانت ولازالت تواجه الشيعة في المنطقة، وفي مقدّمها حملات التكفير والتبديع والتشكيك في ولائهم لأوطانهم، كل ذلك ساهم بشكل كبير في تشويه صورة الشيعة لدى محيطهم السني، كما ورفع منسوب مخاوف شريحة واسعة من نظرائهم السنة، خصوصًا بعد أن اصبح للشيعة ثقل سياسي في المنطقة، في العقود الأربعة الماضية. هذا الوضع -أيضًا- حفّز «شهيَّة» الكثير من القائمين على العديد من الوسائل الإعلامية محليًّا وإقليميًّا ودوليًّا لمقاربة الحالة الشيعية، ولمعرفة كل ما يتعلّق بمواقف نخبهم السياسية والوطنية، بغرض فكِّ حالة الغموض التي كانت ولازالت تكتنف الشيعة.

وفي تقديرنا، إن سماحة الشيخ الصفار أدرك بشكل جيّد هذه الرغبة، وانفتح على كافة القنوات الإعلامية «المتعطِّشة» لفهم الحالة الشيعية، لتقديم الصورة الحقيقية التي يأملها عموم الشيعة. وهذا الأمر، بطبيعة الحال، كان يتطلَّب منه الانفتاح -أيضًا- على كافة الإشكالات والتساؤلات السياسية والدينية والاجتماعية الحسَّاسة، لتقديم تفسيرات واقعية ومنطقية، سواء ذات صلة بالحالة الشيعية العامة في المنطقة أو بشيعة الخليج والمملكة العربية السعودية خصوصًا.

٢- القدرة على التصدي للقضايا الإشكالية:

من المؤكد أن قرار الشيخ الصفار بالانفتاح على كافة الوسائل الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة، على حدٍّ سواء، كان يستلزم بطبيعة الحال الاستعداد النفسي والفكري التام لمقاربة كافة التساؤلات الحرجة والإشكالات الحسَّاسة والملفات المعقَّدة، والتي كانت تبدو للكثيرين بأنها مغلقة بتاتًا أو بالحد الأدنى صعبة التناول إعلاميًّا. ويمكننا في هذا السياق تقديم ثلاثة نماذج للقضايا الإشكالية:

أولها: حوار سماحته مع جريدة (القبس) الكويتية في عددها (١١٠٧١) عام ٢٠٠٤م الذي تطرَّق فيه لأوضاع الشيعة في المملكة ومطالبهم الوطنية، والحوار الوطني، وملامح الإصلاح السياسي المنشود، وإشكاليات المناهج الدراسية، والضغوط الأمريكية على السعودية، وقابلية المجتمع السعودي للديمقراطية.

النموذج الثاني: حواره مع مجلة (الجسور) في العام ذاته، الذي تناول العديد من التساؤلات التي تدور في أوساط التيار السلفي تجاه المواطنين

الشيعة في المملكة، حول ولاء الشيعة وعلاقتهم بإيران، وسبّ الصحابة وتكفيرهم، والخلافات الشيعية السنية، والوحدة الوطنية، وطبيعة علاقة المُكوِّن الشيعي بالمرجعيات الدينية في إيران والعراق، ومدى تدخُّل المرجعيات في الشؤون السياسية للشيعة في أوطانهم، وطبيعة علاقتهم بنظرية ولاية الفقيه، وحقيقة انتماء شيعة المملكة العابر للحدود وعلاقتهم بحزب اللَّه، وعلاقة الشيعة بالمؤسسة الدينية في المملكة ومحيطهم السني، وعلاقة الشيعة بالتيار السلفي ورموزه، وحالة الإقصاء الذي يمارسها التيار السلفي حيالهم، وعلاقة الشيعة بأمريكا، وموضوعات أخرى لا تخلو من الحساسية كموقف الشيعة من حرب الخليج الثانية والاستعانة بالقوات الأمريكية للمشاركة في تحرير الكويت، وطبيعة اللقاءات التي دارت بين سماحته ومفتي المملكة الراحل سماحة الشيخ بن باز والشيخ اللحيدان، وموقف الشيعة من الخلفاء والصحابة. هذا فضلًا عن الموضوعات العقائدية كقضية الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، ومصحف فاطمة، وتحريف القرآن، وموقف الشيعة من كتب الشيعة الأربعة: الكافي والاستبصار والتهذيب ومن لا يحضره الفقيه والروايات الواردة فيها.

أما النموذج الثالث: فهو ما أدلى به سماحته من تصريحات إعلامية لوكالة الأنباء السعودية «واس»، في سبتمبر ٢٠٠٤، حول تقرير الخارجية الأميركية بشأن الحريات الدينية، حيث جاء فيها: «كيف يحقّ للأميركيين أن يتحدّثوا عن انتهاك الحريات الدينية وحقوق الإنسان في هذا البلد أو ذاك وهم يرعون ويدعمون أبشع ممارسات القتل والتدمير التي تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني المتمسّك بحقّه المشروع في الحرية والاستقلال؟!»، مُندِّدًا بـ«زيف الشعارات والتقارير التي تصدرها

الجهات الأميركية حول حقوق الإنسان وانتهاك الحريات الدينية»، في موقف واضح منه وصريح، يرفض فيه رفضًا قاطعًا استخدام شيعة المملكة كورقة ضغط وابتزاز في الملفات الدولية ضد وطنهم. وفي الوقت ذاته يطالب حكومة بلاده بتلبية ما يتطلَّع له المواطنون الشيعة وغيرهم من المواطنين السعوديين من مطالب مشروعة.

بقي أن نشير -أيضًا- إلى أن الإقبال المكثَّف لوسائل الأعلام المختلفة لإجراء حوارات صحفية، مع شخص سماحة الشيخ الصفار تحديدًا، سواء في موضوعات ذات صلة بالحالة الشيعية في المملكة أو الوضع السياسي العام في المنطقة، يعني فيما يعني ضمنيًّا أنه بات الأكثر قدرة على التعبير عن الحالة الشيعية في المملكة، وكذلك ربما الأكثر مهارة وخبرة في مقاربة العديد من الموضوعات السياسية في المنطقة ذات الصلة بعموم الحالة الشيعية.

٣- واقعية المقاربات والطروحات:

لم يكتفِ الشيخ الصفار بالانفتاح على كافة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة على حدٍّ سواء، والتصدِّي لمقاربة كافة الموضوعات الحرجة والملفات الحسَّاسة، المتصلة بالحالة السياسية والعقائدية للشيعة في المملكة، وإنما بذل جهدًا كبيرًا لإيصال مختلف الرسائل ولجميع الأطراف المعنيَّة بجرأة ووضوح وشفافية، وكانت مقارباته في غاية الذكاء أيضًا.

إن التصدِّي لمقاربة الملفات الشيعية الحساسة إعلاميًّا في منطقتنا، خصوصًا في ظل التعقيدات والتحديات القائمة، مسألة في غاية التعقيد، وتحتاج إلى شخص يمتلك العديد من المهارات، من بينها الموضوعية

والاتِّزان في الطرح، والقدرة على الإقناع، والسلاسة في الأفكار، والالتزام بأخلاقيات وضوابط الحوار، والتأصيل الديني للأفكار، وهذه هي أبرز ملامح خطاباته الفكرية والسياسية.

لكن لعل أبرز نقاط القوة في مجمل حضوره الإعلامي أمران:

أولهما: الذكاء الفائق في مقاربة الملفات الحسَّاسة، وتجاوز «الأفخاخ» المنصوبة، وعدم الانجرار للاستفزازات وللجدل العقيم والموضوعات غير المجدية، إلى جانب تصويب النقاش نحو الموضوعات الهادفة والجادَّة والحيوية والأكثر أهمية لإيصال رسائله المطلوبة، وذلك تقديرًا لرسالة المنبر الإعلامية، واحترامًا لوقت ووعي المتلقي وحرصًا على إفادته، رغم إصرار بعض مديري الحلقات النقاشية أو المداخلين في الحلقة التعمُّد بإحراج الضيف ووضعه في زاوية حرجة أو استفزازه لأخذ النقاش باتجاه آخر.

وثانيهما: المصداقية في طرح المواقف والرؤى والتصوّرات دون محاباة أو مجاملة أو تنازل عمَّا يؤمن به من أفكار وقناعات، سواء كان ذلك في الجانب العقائدي أو الاجتماعي أو السياسي أو الفكري. وكان يتحمَّل على الدوام كلفة هذه المواقف، وغالبًا ما تكون الكلف باهظة. ففي المجال العقائدي، على سبيل المثال، كان يُحرِّم سبَّ وشتم الصحابة والخلفاء، ويطالب بسنِّ قوانين لتجريم الإساءة لرموز وعقائد كافة الطوائف الدينية، وبالمثل كان يطالب بعض المجاميع الشيعية التي تمارس طقس التطبير في عاشوراء بالتبرع بالدم، لأنه كان يرى أن هذه الممارسة، وبمعزل عن الموقف الشرعي منها الذي هو محل خلاف بين الفقهاء، فإنها لا تليق بصورة الشيعة، بل تكرّس الصورة النمطية السائدة عنهم.

وفيما يتعلّق بالوضع السياسي المحلي، كان يرفض رفضًا باتًّا محاولات تدخُّل الجهات والأطراف الخارجية في شؤون المملكة، وفي الوقت ذاته يطالب حكومة بلاده بمعالجة كافة المشاكل. وبالمثل في الشأن السياسي العربي، كان يطالب النظم العربية في المنطقة كافة لتطوير أنظمتها السياسية، والنظر بعين الاعتبارات للتغيُّرات المحلية والدولية، والاستجابة لمطالب شعوب المنطقة في المشاركة السياسة، ومعالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، واحترام الحريات وصيانتها، ويؤكد على ضرورة قيام دولة المواطنة لضمان الاستقرار والعدالة.

مضافًا إلى ما سبق، لا شك في أن سماحته كان يتمتَّع بسعة الثقافة والمعرفة والوعي السياسي، والإحاطة الكافية بكل التوازنات المحيطة.

وبمعنى آخر، يمكن القول: إنه ليس بمقدور كل شخص واسع المعرفة ولديه إلمام كافٍ بضوابط الحوار، لديه القدرة على مواجهة الإعلام، ولديه الاستطاعة الكافية لمقاربة الموضوعات الشائكة.

وفي تقديرنا، إنه لو لم يكن الشيخ الصفار يتمتَّع بذكاء مميَّز، ونضج سياسي ملحوظ، ووعي كبير بما يجري من أحداث، وخبرة طويلة في الجانب الخطابي ومشافهة الجمهور، لما استطاع أن ينفتح على الإعلام ويُقارب تلك الموضوعات الحسَّاسة، رغم تعقيدات المشهد السياسي في المنطقة، والأهم من ذلك لن ولم تكن تجد معظم طروحاته ترحيبًا ورواجًا وتفاعلًا في أوساط وأروقة عديدة.

وبالعودة إلى اللقاءات الصحفية التي أجريت مع سماحته، سيجد الباحث الكثير من القضايا الإشكالية الفكرية والاجتماعية والسياسية

والعقائدية التي قاربها، وفق هذه المنهجية، التي تعتبر واحدة من أبرز عناصر القوة في مجمل خطاباته الجماهيرية ولقاءاته الصحفية وأدائه الإعلامي، إن لم تكن أميزها أيضًا.

كعادته في مجمل لقاءاته الصحفية وإطلالته الإعلامية، بل حتى حواراته في الندوات والمحاضرات السياسية تحديدًا، كانت مقارباته تتَّسم بالشمولية والواقعية والوضوح في آن. لهذا كان يسعى دائمًا لأن يُقدِّم للمتلقي رؤية تحليلية متكاملة وواقعية قدر الإمكان عن مسار الأحداث وانعكاساتها، بعد أن يستحضر كافة خلفياتها. وبهذا المنهج يفتح آفاقًا عديدة للمتلقي قد تتجاوز حدود الإشكال محل النقاش، علاوة على ذلك يجد المتلقي نفسه في الغالب متَّفقًا بدرجة كبيرة مع مقاربات سماحته. بكل تأكيد عامل الخبرة في هذا المجال يلعب دورًا كبيرًا.

بقي أن نشير إلى أن منهج المقاربات الموضوعية والواقعية هو الأكثر تأثيرًا وإقناعًا وقبولًا لدى المتلقي. وهذا ما عمد سماحته انتهاجه في مجمل لقاءاته الإعلامية. وفي هذا السياق يمكن تقديم الحوار المطوَّل الذي أجرته جريدة (المدينة) في ملحق الرسالة مع سماحته عام ٢٠٠٤م بعنوان: «مكاشفات»، الذي أجراه الإعلامي والصحفي السعودي عبد العزيز محمد قاسم، حول العديد من الملفات الحساسة، كنموذج بارز على هذا النهج، والذي أصبح محل إشادة من قبل العديد من الكتَّاب والصحفيين والباحثين، وقد كُتبت العديد من المقالات في هذا الشأن.

خلاصة القول: إن تجربة الشيخ الصفار الإعلامية من التجارب الجديرة بالدراسة بشكل أعمق وأوسع، خصوصًا من قِبَل المهتمين بالشأن

الإعلامي والسياسي والاجتماعي والديني على حدٍّ سواء، كما أن دراسة أبرز طروحاته السياسية والفكرية والاجتماعية، مضافًا إلى رصد تأثير حضور سماحته الإعلامي محليًّا وإقليميًّا، هي الأخرى موضوعات في غاية الأهمية، وبحاجة لمزيد من الدراسة والتأمُّل.

من ذكرياتي مع الشيخ

الأستاذ مهدي جعفر صليل[1]

مدخل:

ولدت في مدينة سيهات من والدين كريمين، أب تجلَّت فيه معاني الجد والكدح والعطاء، وأم غاية في الحنان والروحانية والولاء.

ثم قادني التوفيق للتعرف إلى رجل قلَّ نظيره في السمو والنبل والصفاء، فكان لي بمثابة الأب الثاني والمُعلِّم الأول.

إنه سماحة الشيخ حسن الصفار، المُعلِّم والملهم والقدوة.

ولأداء حقِّه يستجمع القلم مفردات الثناء، علَّه يبلغ مراد صاحبه، وأنَّى له ذلك؟!

(١) تربوي ومؤلف – سيهات.

قصص وذكريات وحوارات جميلة تَفَلَّتَ أكثرها من ذاكرتي، ولم يتبقَّ سوى شذرات!

كانت البداية قبل أربعين سنة حين التقيته خطيبًا بارعًا يأسر قلوب مستمعيه، ويمدُّهم بنبضه المعنوي المعبِّر عن صدق مشاعره، فالصدق هو الأس الأول الذي يُحلِّق به الخطيب، ويمتلك قياد النجاح.

ومن فضل اللَّه وتوفيقه استمرت علاقتي بسماحة الشيخ، وتوثقت بعد عودته من الهجرة سنة ١٤١٥هـ، فقد حضرت أغلب محافل الاحتفاء بعودته، وكتبت مقالًا يجمع ما أُلقي في تلك المحافل، ويصور الأجواء الجميلة التي عاشها المجتمع، وقد نُشر المقال في مجلة المرشد تحت عنوان (عودة القلب الكبير).

من تلك السنة وإلى اليوم وأنا أتابع نشاطات سماحته، وأقتنص الفرص للاستفادة من خطاباته وتوجيهاته.

ثمانٍ وعشرون سنة مليئة بالأحداث والمواقف والذكريات، والقليل منها مكتوب أو موثَّق، وهكذا ستجد -عزيزي القارئ- أن هذه الذكريات تفتقر إلى ذكر التفاصيل وتحديد الزمن بدقَّة.

في صومعة الشيخ:

أسميها الصومعة لأنني اخترت من مكتب الشيخ زاوية صغيرة لا تتجاوز خمسة أمتار مربعة، أجلس فيها كل يوم للكتابة والقراءة، وتحرير إجابات الشيخ على الأسئلة التي ترده عبر البريد الإلكتروني، كانت مشاركتي مع سماحة الشيخ بمثابة مدرسة ثريَّة تعلَّمت منها الكثير، وسأشير إلى بعض هذه الفوائد، وإلَّا فإن التجربة تملأ صفحات لا تناسب المقام.

الشيخ يحضر الشاي:

اعتاد سماحة الشيخ استقبال ضيوفه في مكتبه صباحًا وليلًا، أما وقت العصر فقد خصَّصه للقراءة والكتابة، وشؤونه الخاصة، وقد حظيت بلقائه في هذا الوقت بشكل شبه يومي طوال عدة سنوات، تعلَّمت فيها الكثير، ورأيت خلالها أخلاقه وتواضعه عن قرب، كان يحضر الشاي كل يوم ويُقدِّمه لي فأشعر بالخجل من كرم أخلاقه، حتى قرَّرت أن أتعلَّل بأني لا أحب شرب الشاي كثيرًا تهرُّبًا من الحرج.

من حقي عليكم:

يحرص سماحة الشيخ في كتاباته وخطاباته على الدِّقَّة في نقل الأحاديث، وتلاوة الآيات القرآنية بصورة صحيحة.

ذات مرة أخبرته بأنه أخطأ في نطق كلمة من آية قرآنية في خطبة الجمعة، فقال لي: لم تخبرني بعد الخطبة مباشرة!

قلت: لقد أخبرت فلانًا، وربما نسي أن يخبركم.

فقال: إذا حصل أن تنبَّهت إلى خطأ في المستقبل أرجو أن تُخبرني شخصيًّا.

وفي إحدى المرات شعر أني متردِّد في ذكر ملاحظة، فقال لي:

من حقِّي عليكم أن تُخبروني بأيَّة ملاحظة.

لا تتردَّد يا أبا حسين.

أسئلة وإجابات:

كانت الأسئلة والاستشارات تأتي لسماحة الشيخ عبر البريد الإلكتروني بشكل يومي، ولكثرة مشاغله والتزاماته كنت أُعينه في تحرير إجاباته.

يقول سماحته في مقدمة كتاب (أسئلة وإجابات):

ولكثرة الرسائل الواردة، مع انشغالاتي المختلفة، طلبت من الأخ العزيز الفاضل الأستاذ مهدي جعفر صليل مساعدتي في القيام بهذه المهمَّة، لثقتي بقدراته واستقامته وإخلاصه. فكان لي نِعْم المساعد والمُعين، جزاه اللَّه خير الجزاء، وأجزل له الأجر والعطاء.

كان سماحة الشيخ يشير عليَّ بالإجابة عن كل سؤال، فأصوغها وأعرضها عليه، فيقوم بتعديلها أو إمضائها، وبعد مدَّة من التعليم والتدريب صرت أكتب الإجابة وفق المنهج الذي استوعبته، وقد أشرت إليه في مقدَّمتي لكتاب (أسئلة وإجابات).

سمات منهج الشيخ في الإجابة:

أولًا: تشجيع السائل على حل مشكلته:

في ذات الوقت الذي يضع خطوات الحل، يُحفِّز صاحب المشكلة على المبادرة والعمل والتحرُّك من أجل التفكير والسعي للحل، فيُحمِّله المسؤولية ويشاركه الفكرة.

ثانيًا: استثمار فرصة النصيحة والموعظة:

يُركِّز سماحة الشيخ على النصح والتوجيه والإرشاد، ولا يكتفي بمجرد

الإجابة في حدود السؤال، بل يردف إجابته بالتذكير والنُّصح المؤثِّر.

ثالثًا: الرجوع إلى المصادر المتخصصة:

في المسائل التربوية أو الطبية التخصصية يُؤكِّد سماحته على ضرورة الرجوع لأهل الاختصاص، حتى تؤدِّي الإجابة غرضها.

رابعًا: المتابعة المباشرة:

تحتاج بعض الحالات الخاصة إلى متابعة مباشرة من سماحته، وعلى الرغم من كثرة التزاماته ومشاغله إلَّا أنه -بقلبه الكبير وصدره الواسع- يتابع ويسأل ويتأكد من قضاء حوائج الناس.

خامسًا: حمل الهم الوطني العام:

لا ينظر سماحته للقضايا التي تأتيه من منظار مذهبي خاص، بل إنه يُؤكِّد على التفاعل مع جميع المواطنين، بغض النظر عن انتماءاتهم المذهبية.

سادسًا: الرحمة والشفقة بالسائل:

تحمل بعض الرسائل اعترافات أصحابها بذنوب وآثام ارتكبوها، فيقابلها سماحته بكلمات العطف والشفقة ولين الخطاب، بكلمات متوازنة تفتح أمامهم الآفاق بسعة رحمة اللَّه تعالى وتشجعهم على الانطلاق في الحياة وطي صفحة الماضي.

بالفعل كانت سنوات جميلة بما حوت من نقاشات حول مشاكل الناس النفسية والاجتماعية، وأسئلتهم الفقهية والثقافية.

ذات مرة كتبت إجابة لرسالة وردتنا من إحدى الأمهات تشكو حال

ابنها وتمرُّده، وعرضتُ الإجابة على الشيخ، فقال لي: لقد قسوت على الولد! أعد صياغة الإجابة.

وهكذا في كل يوم أتعلَّم من سماحته شيئًا جديدًا.

رزْقٌ ساقه اللَّه إليك:

بهذه العبارة بدأ مكالمته معي في الهاتف الداخلي للمكتب، ثم قال: عندي رجل لا يعرف الصلاة، ما رأيك؟! ثم أردف: فرصة لتحصيل الثواب.

وبالفعل التقيت بالرجل وأخبرني عن تألُّمه من عدم معرفته بالصلاة وقد تجاوز الأربعين من عمره!

هكذا وجدت سماحة الشيخ في تذكيره بالثواب والأجر عندما يطلب مني أن أساعده في بعض الأعمال والمهام.

وصاياه قبل السفر:

في كل مرة ألتقيه قبل سفري، يوصيني بوصاياه:

تفقد أحوال الأصدقاء، وإرسال الكتب إليهم، والتعرف على الكتب الجديدة التي صدرت.

وهذه نماذج من المواقف والشخصيات التي التقيتها:

محبوب صومجي:

سنة ٢٠١٦م سافرت إلى تنزانيا، والتقيت بالحاج محبوب صومجي، صاحب دار العترة للنشر، فتبادلنا أطراف الحديث، ثم تحدثنا عن النهج الذي

تسير عليه الدار، فقلت: إن المجتمعات تحتاج إلى ثقافة وإعلام يُوحِّدها وينشر أجواء الوحدة والمودة...

عندها ابتسم الحاج وقال: نحن نسير على نهج الشيخ حسن الصفار، ونطبع كتبه باللغة السواحيلية، فهو يدعو إلى الوحدة والتعايش، وهذا ما نقوم به حتى مع المسيحيين، ودائمًا نُوزِّع كتبه في الجامعات وتأتينا رسائل شكر وثناء.

ذات مرة طلب منا رئيس الوقف السُّني خمسين نسخة من كتاب (الأحادية الفكرية) للشيخ الصفار، كي يُوزِّعها على أئمة الجمعة والجماعة، ليعتمدوا نهج الوحدة في خطاباتهم.

الشيخ يعقوب:

إمام جماعة في أحد مساجد دار السلام، أصله من نيجريا، لكنه مقيم في تنزانيا، التقيت به مصادفة في أحد فنادق دار السلام، وما أن علم أني من القطيف حتى كرَّر التحية، وبدأ يسأل بلهفة وشوق عن سماحة الشيخ حسن الصفار، قائلًا: أنا مشتاق كثيرًا لرؤية الشيخ حسن.

قلت: من أين تعرفه؟

قال: علاقتنا منذ الثمانينات، حيث تعرَّفت عليه في إيران، وترجمت له في تلك الفترة ثلاثة كتب إلى لغة الهوسا:

١- مسؤولية الشباب.

٢- مسؤولية المرأة.

٣- النفس منطقة الخطر.

وفي هذه السنة ترجمت لسماحته كتاب (الشباب وتطلُّعات المستقبل) إلى اللغة الإنجليزية.

ثم يضيف كانت لنا معه ذكريات جميلة، حيث كان يغمرنا بكرمه وجميل أخلاقه، وأتذكَّر أنه كان يحضر لنا الإفطار في شهر رمضان المبارك.

حميد رضا آژير:

قبل حوالي ثماني سنوات التقيت بالأستاذ حميد آچير مترجم كتاب (التعدُّدية والحرية في الإسلام) إلى اللغة الفارسية، فقال لي عبارة لازلت أتذكرها:

هذا الكتاب سبق زمانه.

فقد طبع في بداية انتصار الثورة الإسلامية في إيران بعنوان: (چندگونگی وآزادی در اسلام)، ولم تكن فكرة التعدُّدية مطروحة بالشكل التي هي عليه اليوم.

كما أعاد ترجمة الكتاب وطبع بعنوان: (كثرت‌گرايى وآزادى در اسلام).

السيد علي باقر عابدي:

في نهاية ٢٠١٩م عزمت على السفر إلى الهند فأخبرت سماحة الشيخ، فقال لي: أي المدن ستزورها في الهند؟

قلت: مومباي ولكنهو.

فقال: لا تُفوِّت زيارة مدينة بنكلور، فهي من أجمل المدن الهندية،

وهي آخر مدينة خرج منها الاستعمار البريطاني.

بالفعل وجدتها كما قال سماحته، وهناك تعرَّفت على سماحة السيد علي باقر عابدي، الذي حدَّثني عن معرفته بسماحة الشيخ من أيام تواجده للدراسة في (السيدة زينب)، ثم قال: لازلت إلى اليوم أستفيد من محاضراته وأفكاره.

وقبل شهر من كتابة هذه السطور أخبرني سماحة السيد عابدي عن فراغه من ترجمة كتاب (التنوُّع والتعايش) وكتاب (التعدُّدية الدينية.. قراءة في المعنى) إلى لغة الأوردو.

في ختام هذه السطور أقول: إنها مجرَّد شذرات، لا تُعبِّر عن المراد والطموح.

أسأل اللَّه أن يُوفِّق سماحة الشيخ ويمدَّه بطول العمر والصحة والعافية، ويتقبَّل منا ومنه صالح الأعمال.

مهدي صليل

٣٠ رجب ١٤٤٣هـ

الشيخ الصفار..
انطباعات شخصية

الأستاذ يوسف أحمد الحسن[1]

كانت أول مرة أرى فيها سماحة الشيخ حسن الصفار في إحدى الحسينيات في حي التعاون بالهفوف (١٩٧٨م)، حيث دُعي إلى هناك في إحدى المناسبات، ولم أكن قد شاهدت صورته من قبل، وذلك لقلَّة انتشار الصور في ذلك الوقت. وعندما سمعت عن قدومه قرَّرت أن أذهب إلى تلك الحسينية لأول مرة، وذلك مع صديقي القديم الجديد الدكتور عباس العمران، حيث ذهبنا بسيارته وجلسنا بجانب المنبر. وكان الخطيب الذي سبقه يتكلَّم في موضوع تقليدي جدًّا، هو عبارة عن أحكام شرعية، وهو السائد آنذاك في المجالس الحسينية، إضافة إلى السرد التاريخي لمصائب أهل البيت عليهم السلام.

وبعد أن أنهى الخطيب الأول حديثه توجَّه سماحة الشيخ حسن إلى

(١) كاتب – الاحساء.

المنبر، وكان أول انطباع إيجابي تشكَّل لديَّ عنه أنه في طريقه من بداية المجلس إلى المنبر كان يُسلِّم على الحضور وهم جلوس على الأرض. وقد كان هذا الأسلوب يدلُّ على مستوى من التواضع، ورغبة منه في التقرُّب من الناس، ولم يكن ذلك سائدًا لدى أكثر الخطباء الذين كانوا يتخطَّون رقاب الحضور بصمت ورزانة -أحيانًا تكون مصطنعة- ونادرًا ما كانوا يُسلِّمون على الحضور أثناء توجُّههم إلى المنبر، أو على الأقل كان هذا هو الانطباع لديَّ آنذاك.

وأتذكر أنه ألقى محاضرة جميلة، ذكر فيها حديثًا شريفًا هو «العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان»، وبعد الكلمة كانت هناك فقرة أسئلة وأجوبة أدارها الشيخ أمين البقشي، وقد سألته عن معنى ذلك الحديث، خاصة وأنني كنت في بداية دراسة الهندسة في الجامعة، وقد أجاب حينها عن سؤالي بإجابة شافية.

التقيت الشيخ بعد ذلك في منزله في القطيف مع ثُلَّة من شباب الجامعة، وكان آنذاك يدعونا إلى التفرُّغ للدراسة الدينية، كما حضرت بعض محاضراته، ثم لم ألتقه إلَّا بعد ذلك بسنوات.

والحقيقة أنه يُعجبك في الرجل أمران: الأول دماثة الأخلاق، والثاني العمل الدؤوب المستمر دون كلل أو تعب.

فالشيخ يتعامل في غاية الأدب مع الجميع الصغير والكبير في العمر والمقام العلمي أو السياسي. كما يتمثَّل خلقه الرفيع في تعامله مع من يختلف معه في التوجُّهات والرؤى، وقد شهدت عشرات المواقف على حسن تعامله مع المختلفين معه، ما أدَّى إلى تحول حالات العداء إلى محبة ووئام.

أما عمله الدؤوب فشاهد عليه ما يقوم به من عمل منذ الصباح الباكر وحتى عودته إلى منزله في المساء، لا يقطعه سوى فترة الظهيرة من غداء وقيلولة، وذلك في مختلف المواقع والدول التي تنقَّل بينها. وقد كان يومه مقسَّمًا بين اللقاءات الفردية أو الجماعية الخاصة بالعمل، والقراءة والكتابة والزيارات المجدولة له مع الشخصيات والجهات الأخرى.

وقد استطاع أن يكتب عشرات الكتب في مختلف المجالات ركَّز فيها على التغيير الاجتماعي ومقاومة الواقع السيِّئ. وامتازت كتاباته بسهولة الطرح وجمال الأسلوب، ما يجعلها تترك الأثر المطلوب على الفئات المستهدفة منها، وقد تُرجم عدد من كتبه إلى لغات أخرى.

وعندما تجلس إليه فإنك لا تشعر بالملل؛ لما يُحيطك به من معلومات وأفكار متنوِّعة ومتعدِّدة الجوانب، أو من لفتات جميلة. وكثيرًا ما تتميَّز أفكاره بجوانب تغيب عن أذهان الكثيرين، حيث يمزج الجانب الديني بالمعلومة الحديثة بآراء العلماء القدامى والمعاصرين، مستخلصًا منها ما يتناسب والبيئة المحلية للموضوع محل النقاش.

وممَّا يُثير الإعجاب في شخصيته كذلك قدرته على إقناع الطرف الآخر بأفكاره. وندر أن يدخل عنده شخص ما إلَّا ويقتنع بما لديه، وذلك لما يتمتَّع به من قدرة على توظيف الأسلوب والمعلومة وقولبتها بما يناسب الشخص المعني.

صفات شخصية رائعة يتميَّز بها الشيخ حسن الصفار، ممَّا يمكن أن نملأ بها صفحات عدَّة كتب، ركَّزت فيها من خلال هذا المقال القصير على انطباعات سريعة عن سماحته من خلال معايشتي له لعدَّة سنوات.

الشيخ حسن الصفار

عالمًا
مفكرًا
مصلحًا

الفصل الثاني

الشيخ الصفار

في وحي الشعر

جبل الشموخ

الشيخ سعيد مكي الخويلدي[1]

ما لاح في الوادي ربا سقياه ... إلَّا تفجر بالصخور مياه
فترف من سحر القريض قصائدي ... مياسة منقادة بهواه
قبس سماوي تلألأ ساطعا ... بالمكرمات يزينه سيماه
رصدا شهابا راميا متفوقا ... في أفقه قد حصنته سماه
من كل شيطان رجيم حارسا ... ما حاولوا لا يبلغون مداه
يحمي الشريعة فهي في مكنونه ... قد نالها عطب الردى لولاه
ما اسطاع يحمل روحه في كفه ... وجعا ويغسل بالهموم دماه
ماضره نفث الشراذم انه ... سيل طغى فتحطمت بطباه
يجتاح كل سفاهة وتفاهة ... بمطارف الخلق الكريم تراه
بحر تفجر حاملا في موجه ... سفن اللآلئ صاغها معناه

(١) خطيب ومؤلف، إمام مسجد الإمام زين العابدين -صفوى.

نثرت على جيد الحقيقة فازدهت وضـــاءة كـيـمـا تـشـيـر يـداه
جبل الشموخ فكل من في ظله يـرد المعين ويحتمي بحماه
الـلـه. مـا هـذا الـرواح كأنه يعقوب وهـو يشم ريـح فتاه
هذي السماحة والشجاعة تزدهي مـن مقلتيه تحوطها عيناه
يـزن الأمـور بحكمة فكأنه القسطاس لو ماجت به طرفاه
تلك القيادة والسياسة وهي من بعض الفنون بما حـوت يمناه
فـاذا تكلم لاح مـن فلتاته سحر البديع بما اكتسى معناه
سـيـان كـان حديثه أو صمته أو سمته أو تمتمت شفتاه
تلقاه فـي كـل المواقف رائعا كـالـبـدر حين يشع منه سناه
هـونـا على الأرض البسيطة دائـبـا متفكرا فـي مشيه تلقاه
وصنائع المعروف تلك حكاية أخـرى تقص فصولها الافـواه
مـازال ترسم بالجميل حروفها أيـد لـه و تـحـوكـهـا قـدمـاه
هذي الجموع أتت وملء نفوسها شـوقـاً لـه قـد أصـحـرت بفناه
هي ذي الـرجـال بفكره وبحبه خير الـرجـال وغيرهم أشباه
فامسح بكلتا راحتيك جراح من بـالـغـم قـد نـاداك واغـوثـاه
واضمم اليك يتيم من قد غاله غـدر الـزمـان فـصـاح وا أبتاه
كيوان في أفـق الرسالة يقتدي هـذا الـسـواد ويـهـتـدي بهداه
يقظان من هم الخليقة ساهرا مـتـفـكـرا مـا هـومـت عيناه
تلك الكلوم وكـل ما قد نابنا هـم لـديـه وقـد وعـت اذنـاه
واذا أحـاط بربعه جيش الـردى حـمـلـت عـلـيـه نـبـالـه فـرمـاه
عـونـا كـريـمـا بـاذلا ومـبـادرا لا يشتكي مهما اشتكى جنباه
هذي المحامد والمحاسن كلها طابت لديه وطـاب مـن سماه

عبثا أحــاول أن أروم بأحرفي مـعـنـى لــه لـكـنـنـي أخـشـاه
فـاذا مضت سفن القصيد ببحره غـرقـت ومـزقـهـا رجـيـع صـداه
فالقلب يهتف من حقاق مفاصلي شـغـفـا بــه مــا نــابــه اكــراه

أُبوّةٌ بامتداد الأفق

الأستاذ سعيد محمد آل ارهين[1]

إلى كنز الحكمة، و باعث الفكر الأصيل. إلى القامة السامقة التي تعانق الضياء، وتبثُّ الأمل في الأرجاءِ.

إلى سماحة العلامة الملهِم الشيخ / حسن موسى الصفار (حفظه اللَّه تعالى).

سحرُ القصيدِ على أنوارِكَ اندلقا
يُعانق الضوء والآياتِ والألقا
وازيّنتْ من قوافي الشعر خُرَّدُها
كيما تُوافيكَ قَرْمًا سيّدًا لَبِقا
من أيّ دُرّي نجمٍ لحتَ مُنبثقًا
ففاضَ فجرٌ على الأرجاءِ وانبثقا

(١) تربوي وأديب – صفوى.

وهــامَ فــي فكــرِكَ الوضّــاءِ ذو دَلــهٍ
وهــل يُــلامُ علــى التصريح مَن عشِــقا
أتــرع كؤوســكَ حُبًّــا فــوقَ نشــوتنا
فالــكأسُ يَطــربُ إنْ كنتَ الــذي دَهَقا
وبامتــداد اتِّســاعِ الأفــقِ اِمــضِ بهــا
أبــوةً تَهــزم الأغــلاسَ والغســقا
أنت ابنُ موسى... ألا فاضربْ صخورَ أسىً
ببعــضِ أحلامنــا كــي تُوقــظَ الفلقــا
فجّــر لنــا مــن عيــونِ الحِلــم أعذبها
ثــم اســقنا مــن فــرات الفكر مــا غَدقا
واتــرك لنــا البحــرَ رَهْــوًا كــي نُروّضه
فــلا نهــابُ عُبــاب المــوج والغرقــا
فأنــت والنخــلُ -مُــذ ألهمتَه شَــممًا-
أراكمــا ســامقًا يُحيــي الــذي سَــمَقا
إذا أصختَ احتفى الإصغاءُ... أو رسمَــتْ
ألفاظُــكَ البــوحَ أعجــزتَ الــذي نطقا
وإن تُشِــرْ نحــو بــابٍ خلفَــه فتــنٌ
تحيّــرَ البــابُ بالفتنــاتِ وانغلقــا
أنــت التفــرّدُ فــي أبهــى محاســنه
في حمرةٍ لا نُســاوي الشــمسَ والشّفقا
هونًا على الأرضِ تمشــي... الكبرُ منتحرٌ
ولــو تُبــارى لحــزتَ السّــبْقَ والسَّــبَقا

خمســون عامًــا ونيفٌ مــا كللــتَ وما
حــادتْ عُزُومُــكَ عن خيرٍ وفيــضِ تُقى
خمســون عامًا بــذرتَ الحُبَّ فــي طُرقٍ
لطالمــا أنجبــتْ أجنابُهــا الفَرَقــا
كــم أشــعلَ التّيْــهُ نيرانًــا مســعّرةً
أطفأتهــا... وبغيــظٍ تيهُهــا احترقــا
لُقمانــك الفــذُّ قــد شــاعتْ مواعظــه
والحــزمُ والليــنُ فــي بســتانكَ اتفقــا
أطعمــتَ جادبــةَ الأفهــامِ تجربــةً
فراتهــا العــذبُ أصحابَ العقول ســقى
وتُلقــمُ الفكــرةَ المُثلــى مثيلَتهــا
والبــرقُ لــولا اِلتصــاق الغيمِ مــا بَرَقا
يــا دينــكَ الحبّ... مــا أنقى شــريعته!
طوبــى لقلــبِ مريــدٍ هديَــه اعتنقــا
لا غــروَ إنْ هــامَ جُــرحٌ فيــكَ مفتتنًــا
فالفتــقُ يعشــقُ كفًّــا حانيًــا رَتقــا
هــا قــد أتتك علــى اســتحياءِ مِشــيتها
(صفوى) فخذها يَطبْ عيشٌ وحســنُ لِقا
لا تأجُــرنَّ أباهــا العشــرَ مــن حِجــجٍ
وسِــرْ إلــى الأيمــنِ الــواديّ مُنطلِقــا
إن لــم تســعْكَ (الصفا) بــدوًا وحاضرةً
فاســكنْ -فديتُــكَ- ممّا أهلهــا الحدقا

لا يُوقِــفُ الشِّــعرُ فــي مَرْســاكَ قافيــةً
إلَّا وســيلُ قــوافٍ إثْرَهــا لَحِقــا
فكيــف أســطِيعُ ختــمَ القافيــاتِ ومــا
حولــي يقفّــي بأعلــى صوتــه (صَدَقَا)
حســب القريــض افتخــارًا أنّ مُنشــدَه
بــابَ القداســةِ مــن معنــاكَ قــد طرقا

سعيد آل ارهين

٢١/ ربيع الآخر / ١٤٤٣هـ

سيرة لوهج المشكاة

الأستاذ فريد عبدالله النمر[1]

لصلوات الحب السامقة وهي تبث أريج معارفها على المدى ونفحاتها الملحة كسماء تجيد مباركة الحياة الأسمى لكائنها الوجودي.

لسماحة المفكّر العلَّامة الشيخ حسن بن موسى الصفار حفظه اللَّه وهو يُشعل فتيل المحبة والإنسان في مجتمع القيمة والسلام.

وردٌ كـــوردِكَ للهدى مشكاةُ ... وضـيـاءُ حـرفِـكَ للصلاةِ صلاةُ
ونـوافـلُ الـحـبِّ التي وزَّعتها ... جهةَ الدُّنا بضميرِها النفحاتُ
يا ابـنَ البصيرةِ لاكتمالِ بشارةٍ ... منحوتةٍ وجـمـارُهـا الآهـاتُ
وابن الضيا المقطوفِ من فردوسِهِ ... مـذ أرضـعـتْـهُ مـسـلّـةٌ ودواةُ
لك في امتدادِ الوقتِ مسرحُ روعةٍ ... للحبِّ مـا امـتـدَّت هناك حياةُ
يـا عالمًا نقشَ الـرؤى نبويَّةً ... مـن هـديـهـا تـتـأنـقُ الآيـاتُ

(١) أديب وكاتب – العوامية.

لك همسةٌ تخضرّ صوت إرادةٍ رجحت بها السنواتُ والغاياتُ
وعبرتَ منها صوبَ أشرفِ رحلةٍ تطفو ونافلةُ الهديلِ عظاتُ
ولأنَّ نبضَكَ مـن سـلالـةِ آيـةٍ وسعتْكَ منها مناهلٌ ولغاتٌ
أحييتَ من لغةِ الكرامةِ فرعَها الـ ـأعلى وغايةُ قصدِكَ المرساةُ
لم تعرف الفأس البغي وبغضه يـومًـا تضجُّ بغصنِهِ الغاباتُ
بل كنتَ كالغرسِ الجميلِ تحفُّهُ روحُ السكينةِ والجنا الخضلاتُ
يا مشعلًا أهـدى الحياةَ صفاتِهِ فنمتْ تشجّر روحَـهُ الخطراتُ
من حضنِ عاشوراء تنبتُ مهجة مـراتُـهَـا مـن طَـفِّـه هيهاتُ
ربّـتَّ فـوق الجرح ذات تدفق وأضـأتَـه فاستعذبَ الميقاتُ
وكبرتَ تهتفُ في شظيّ ظلامِها حتى انمحى عند الهجيرِ سباتُ
يا سيَّدَ الأعـوادِ في مدلولِهِ الـ ـمازال تسمو بوحيِهِ القسماتُ
هذي القرى من أصغريك تسلَّمت روحَ النَّما وتشدّها الـراحـاتُ
ولكم دفعت النشء نحو منابع في العاشقين تحثها الخطوات
لك في الضلوعِ مبادئ أعليتَها بهويةِ الإبـداعِ وهـي سماتُ
لم تكتفِ بالضوءِ يَقْمُرُها مدى بل كنتَ ما صقلتْ له الفرشاةُ
علَّمتها أن الحقيقة كوكبٌ في الغيبِ يُدني شمسَها الإنصاتُ
وأريـتَـهـا الـتـاريـخَ عبرَ نسائمٍ فيها الـبـلادُ عقيدةٌ وصِـلاتُ
إيهٍ زنـادَ الحبِّ تبتكرُ الندى الـ ـمزهوَ وهو إلى الطموح ثباتُ
كم كان قلبُكَ بالرسالةِ والرؤى تفتضحُ من شرفاتِها الغيماتُ
يا منبعَ الفكرِ الحصيفِ أصالةً حيث المسافةُ شوطُها النفحاتُ
خذ ما تريد من المحبَّةِ والمُنى فـإلـيـكَ أغـنـيـة هـي الـنـايـاتُ
يا موطنًا للفكرِ رتَّلكَ المدى فتعاظمتْ فـي وجـدِهِ الآيـاتُ

مـا قـصـةُ الإنـســانِ إلَّا همزةٌ ... تسمو على أصدائِها الجمعاتُ
فـإذا حديثُك وهـو وجـهُ فقاهةٍ ... تـخـضـرُّ مـنـه لـلـحـيـاةِ جـهـاتُ
ومُـبـصِّـراً ضـوءَ الأثـيـرِ بحكمةٍ ... كادت تضيءُ بِحُسْنِها الكلماتُ
لـك بالسنين مـآثـرٌ مـنـذورةٌ ... كم أنت في صفحاتِها البركاتُ
يـا شيخَ معرفةٍ تقاسمَ فيضَهُ ... غصنُ المودةِ والصدى النحّاتُ
لك من مواقيتِ العمامةِ صورةٌ ... للجيلِ فيها لـلـمـروءةِ ذاتُ
هي قامةُ الإيـمـانِ حـوزةُ علمِهِ ... ورواتُـهـا مـا استأمنتْهُ صـلاةُ
يا أيها المنذورُ حيث تجمهرت ... للعاشقين روائـعٌ وهـبـاتٌ
ستون عامًا سيرة الضوء التي ... من خصبِها تتعملق المشكاةُ
يا عبقريَّ القلبِ كيف تمازجت ... فـي جانحيك رسـالـةٌ وشتاتُ
فروتْك من سِوَر الجلالِ فضيلةٌ ... نبتت تُثيبك لـلـوجـودِ نـواةُ
وتوسَّمتْك إلـى حديقة غرسها ... وردًا تشاغب عطره المسحاةُ
يا صـورةَ الإنسانِ يا مَثَل التُّقى ... وإضـاءةُ التقوى له البسماتُ
ذا ثغرُك الأشهى كتابٌ خالدٌ ... أمـشـاجُـهُ الـنـظـراتُ واللفتاتُ
فـإذا تفتَّح مـن عـراقـةِ منهجٍ ... حملتْه للمهج اليباب حـداةُ
وتـفـتَّـقـت مـنـه مـنـابـرُ قـدرةٍ ... تنسابُ منها مـعـارف وغـداةُ
يا مرفأَ الحيرانِ في خلجاتِهِ ... والوعي ما اكتملت به الخفقاتُ
ها أنت في مـدنِ الـدرايـةِ كنزها ... بين الـرجـالِ تـقـودُك الغرباتُ
ولعل مـيـراث المرايا أن تعي ... نفْسٌ يرقرق حلمها الحسناتُ
يا ابن السماحةِ في حبورُ تراثِها ... وابـنَ الحقيقةِ والـرؤى قاماتُ
آثـرتَ قلبك لـلـحُـنـوِّ قيامة ... كبرى لتزهرَ للهدى الأوقـاتُ
ونقشتَ خارطةَ المدى وطنيةً ... بالفكرِ حيث أثيرُها الشذراتُ

هـذي الـبـلادُ تفيكَ مـن آلائِها ... أرضًـا تشيد سموّها الطاقاتُ
حتى إذا غنَّتك لحنَ جمالِها ... غـنَّـتـك فـيـهـا أمـاجـد وثـقـاة
واستقبلتك الناسُ قمة عشقها ... حيث القطيفُ نثارُها الصلواتُ
ها أنت أنت إذا انكشفتَ بلهفة ... مـن ظـلّـهـا تتغنج النغمات
وأنـا المغنِّي كلما أيقظتُني ... فـي قـامـةٍ للشعرِ وهـي حصاةُ
ألفيتُني بـحـرًا وأنـت شـراعُـهُ ... مـا بيننا تـتـجـمَّـلُ الأبـيـاتُ
ولأنت من روح القصيدةِ عَرفها الـ ... ـكوني تشذو والـرُّبـى الـمـرآةُ
يا منتهى الطينِ الـمـدرّب ذاتَـهَ ... جهة السنا وحـديـثُـهُ القبلاتُ
ما أجملَ الشوطَ الذي اشتجرتْ به ... روحٌ لديك تُعيدُها اللحظاتُ
هـذا بـيـانُـك مـنـذ أن ربيتَه ... حلمًا تجلَّت بالصدى المرفاة
وحملتَ مشعلَك العظيمَ تقودُه ... نحو انتباهِك أنـجـمٌ ألـقـاتُ
ورسمتَ منهجَك القويمَ منارةً ... للضوءِ تعلو باسمِها الغاياتُ
يا ابن السنا المعجونُ من ألقِ النهى ... بين الأفـاضـلِ والسنا شرفاتُ
هـذي سماحتُك التي غذّيتها ... بالحبِّ فاضت حولَها القرباتُ
لا لم تزل رئة الحقيقة وردها الـ ... ـينمو وفيضك هـالـة وغـداةُ
فلك الـمـرايـا جـمّـة لـو شئتها ... لا تنتهي في بحرِك القطراتُ
حبّاً سيرسمُك القصيدِ لروحِهِ ... معنىً تـرتِّـل خفقه السنواتُ
يا سـورةَ الإنـسـانِ في تكوينها ... والفجرُ مـن تكوينه الأوقـاتُ
يبقى سؤالُك محرَّمًا فيه المدى ... ولأنـت فيه مـنـاسِـكٌ وهـبـاتُ

١/ ربيع الثاني / ١٤٤٣هـ

طيفٌ يختزلُ الرؤى

الأستاذ ياسر عبدالله آل غريب[1]

إلى سماحة الشيخ حسن الصفار -حفظه اللَّه- الذي تعلَّمنا من سيرته كيف يُجدِّد الإنسان أنفاسه كما يُجدِّد البحر أمواجه، ليصنع حياة أخرى..

كالنَّخلِ في أرضِ القطيفِ مُبَجَّلُ ... يعلو بك المعنى ووجهُكَ مَشْعَلُ
لك سيرةٌ في الأرضِ يكتبها الضحى ... ويقصُّها البدرُ الأتمُّ الأجملُ
كوّنتَ ذاتَكَ بانفتاحِ بصيرةٍ ... فإذا بها جهةَ الرؤى تتشكلُ
وبنيتَ صرحَ الوِحْدَوِيَّةِ شامخًا ... حتى تحيّرَ من علاهْ المِعْوَلُ
ومراحلٌ شتَّى سلكتَ غمارَهَا ... والمجدُ في آفاقِهِ يَتَمَرْحَل
ما كنت رُبّانًا فحسبُ، وإنما ... من خافقيك سرى الشراعُ الأوّلُ
دورٌ رياديٌّ سموتَ بهِ إلى ... حيثُ العطاءُ الأريحيُّ الأنبلُ
وعبرتَ منعطفَ المسارِ بحكمةٍ ... والروحُ تبقى والسُّرَى يتبدَّلُ

(١) أديب وكاتب - صفوى.

منذ استـدارتْ بالجلالِ عمامةٌ ... إلَّا ورأسُـكَ بالضياءِ مُكَلَّلُ
ولبستَ من وشيِ الرسالةِ بردةً ... والـمـرءُ محكومٌ بما يتسربلُ
خمسونَ عامًا والخطابةُ تزدهي ... طابَ البيانُ، وطابَ فيكَ المِقْوَلُ
لـكَ منبرٌ أعلى اليقينِ محلُّهُ ... بـجـذورهِ عَـبْـرَ السنينَ مؤصَّلُ
وسـقـيـتَـنَـا نـبـعَ الـنـبـيِّ وآلـهِ ... ولكم يجودُ مدى الزمانِ المنهلُ
ومـددتَ طـاولـةَ الـحـوارِ محبةً ... أيّـامَ يغلي للتباغضِ مِـرْجَـلُ
يحلو بطاقاتِ الـزهـورِ تعددٌ ... حين التقى بـ(الياسمينِ) (قرنفلُ)
فلعلنا نمضي إلـى غاياتنا ... وعلى دروبِ الملتقى نسترسلُ
أيعيشُ قلبٌ دونما حـبٍّ بهِ؟ ... كالعقلِ دون تـدبّـرٍ يتعطلُ
ولوحدةِ الصفِّ انتميتَ كما انتمى ... يوما لضوءِ سمائهِ المستقبلُ
نحتاجَ مثلَكَ؛ كي نرمّمَ وقتنا ... فيعودُ وجـهُ صباحِنا المتهللُ
لم تتقدْ من شمعدانِكَ فكرةٌ ... إلَّا استضاءَ بوهْجِ روحِكِ محفلُ
وطلعتَ من رحمِ الحياةِ مُفكِّرا ... فـي كـلِّ أنـحـاءِ الـمـدى تتأمَّلُ
وكأنما القلمُ استعارَ صريرَهُ ... من صـوتِ هـمٍّ بالحشا يتغللُ
بين المعاني لم تـزلْ متراوحًا ... فكأنَّ بين (المروتينِ) تهرولُ
وجـهٌ قطيفيُّ الملامحِ يحتوي ... كلَّ الجهاتِ، فليسَ ثمّةَ معزلُ
بوركتَ يا (حسنَ) المحجةِ: ما الذي ... يبقى إذا اندثرَ الجمالُ الأمثلُ؟
ولكم شبعْنَا من نقائضِ أمَّـةٍ ... من ألفِ عامٍ والأذى يستفحلُ!!
هل يا ترى آخى (الفرزدقُ) صحبَهُ ... ورعى (جريرٌ) ودَّهُ و(الأخطلُ)؟
أم مـا تـزالُ عـداوةٌ مـا بينهمْ ... كـلٌّ بـرايـةِ حـزبـهِ يـتـكـتَّـلُ؟
لم تمتشقْ إلَّا السلامَ، ولم تكنْ ... إلَّا بمنهجِهِ تـقـولُ وتفعلُ
قل لي – وقد هامتْ بطيفِكَ أحرفي –: ... كم من رؤى الأغصان كفُّكَ تحملُ؟

ياسر آل غريب – ١٢ ربيع الآخر ١٤٤٣هـ

المحتويات

كلمة شكر وامتنان

◄ الأستاذ عبدالعظيم حسين الصادق ٧

بين يدي الكتاب الشيخ الصفار - هل هو بحاجة إلى تعريف؟

◄ السيد عدنان السيد محمد العوَّامي ٩

مدخل.. المشروع الفكري للشيخ حسن الصفار التسامح الديني والتعايش الوطني

الشيخ الصفار سعة علم ووعي عميق ١٥

◄ المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ٤٣

الشيخ الصفَّارعالم باحث ومفكر قدير

◄ المرجع الديني الشيخ جعفر السبحاني ٤٧

العلَّامة الصفار العالم والمعلِّم

◄ الشيخ حسين الخشن ٥٣

العلامة الصفار بين أصالة الماضي وشفرة التحديث

◄ السيد محمد رضا السلمان..... ٥٧

عن فضيلة الشيخ حسن الصفار

◄ الأب إلياس زحلاوي..... ٦٣

قبسات من سيرة الشيخ حسن الصفار

◄ الشيخ حسن مكي الخويلدي ٦٧

حسن الصفار... العالِم الرسالي الناجح

◄ الشيخ علي حسن غلوم علي..... ٧٩

الشيخ الصفار.. الشخصية والمشروع

◄ الشيخ حسن عبدالهادي بوخمسين ٨٥

الشّيخ حسن الصّفار والدّائرة الواسعة: قراءة عن قرب

◄ الشيخ بدر بن سالم بن حمدان العبريّ ٩١

سماحة الشيخ الصفار كما أعرفه

◄ الدكتور الشيخ محمد علوان اللواتي ١٠٥

تجربة في العبور من حواجز الخلاف المذهبي

◄ الدكتور توفيق محمد تقي آل سيف ١١١

العلَّامة الشيخ حسن الصّفار رجل التسامح والحوار

◄ الدكتور إدريس هاني ١٣٩

الشيخ حسن بن موسى الصفار (من مصابيح الفكر والمعرفة)

◄ الدكتور السيد محمد رضا بن عبدالله الشخص ١٤٥

حكيم القطيف

◄ الأستاذ الدكتور رضي حسن المبيوق ١٥١

المرأة في فكر الشيخ حسن الصفّار

◄ الدكتورة سميرة عبدالله البيات ١٦٣

جهود الرواد والمصلحين في فكر الشيخ حسن الصفار

◄ الدكتور وسام عباس السبع ١٧١

الشيخ الصفار وعبور الحقول

◄ الدكتور عبدالهادي عبدالحميد الصالح ١٨٩

العلّامة الصفار بين ثبات المبدأ وحيويّة المنهج

◄ الدكتور السيد محمد زكي العوامي ١٩٧

العلامة الشيخ حسن الصفار مد الجسور وسعي للإصلاح والاعتدال

◄ الدكتور منصور الشيخ عبدالأمير الجمري ٢٠٥

الشيخ الصفار ورؤى المستقبل

◄ المهندس جعفر محمد رضي الشايب..... ٢١١

رجل التنوع والتعايش الوطني

◄ المهندس علي بن حسين الملا..... ٢١٩

ملامح من شخصية الشيخ الصفار

◄ المهندس حسن مرزوق النخلي..... ٢٢١

المسألة الطائفية في خطاب الشيخ الصفار

◄ السيد إبراهيم شرف الزاكي ٢٣١

الشيخ الصفار المفكر العامل

◄ الأستاذ أمير موسى بوخمسين ٢٤٣

الشيخ الصفار وملامح خطابه الاجتماعي

◄ الأستاذ بدر شبيب الشبيب..... ٢٤٧

الشيخ حسن الصفار ومقومات القيادة

◄ الأستاذ جاسم حسين المشرَّف ٢٥٥

الشيخ حسن الصفار والموازنات الخمس
◄ الأستاذ الشيخ زكي عبدالله الميلاد ٢٥٩
الشيخ الصفار .. نظرة خاطفة على الجانب الخطابي
◄ الأستاذ سلمان محمد علي العيد..... ٢٦٧
عقليةٌ منفتحةٌ وبصيرةٌ واعية
◄ السيد شفيق محمد الموسوي..... ٢٧٧
الشيخ الصفار.. الدور الاجتماعي ومسؤولية التبليغ
◄ الأستاذة صباح عباس علي آل هاني..... ٣٠١
كلمة وفاء.. إضاءات في حياة الشيخ الصفار
◄ الأستاذة عالية مكي آل فريد ٣١١
النبي وآله في كتابات الشيخ حسن الصفار
◄ الأستاذ عبدالباري أحمد الدخيل ٣١٩
الصفار.. عندما تجسَّد العقل رجلًا
◄ الأستاذ علي حسن المسلمي..... ٣٢٩
قدرة الإدارة عند الشيخ الصفار
◄ الأستاذ عيسى محمد علي العيد ٣٣٥
الصفار رجل المرحلة
◄ الأستاذ فؤاد عبداللَّه المرهون..... ٣٤١
الشيخ حسن الصفار.. كاريزما خاصة
◄ الأستاذ كمال أحمد المزعل ٣٤٥
قيادة تصنع الوعي الشيخ الصفار رائداً
◄ الأستاذ كميل بن علي آل إبراهيم..... ٣٥١

رواد النهضة الثقافية الشيخ الصفار نموذجًا

◄ الأستاذ محمد جاسم محفوظ ٣٦١

قراءة في التجربة الإعلامية للشيخ الصفار

◄ الأستاذ محمد عبدالغفور الشيوخ ٣٦٧

من ذكرياتي مع الشيخ

◄ الأستاذ مهدي جعفر صليل ٣٨٧

الشيخ الصفار.. انطباعات شخصية

◄ الأستاذ يوسف أحمد الحسن ٣٩٧

جبل الشموخ

◄ الشيخ سعيد مكي الخويلدي ٤٠٣

أُبوّةٌ بامتداد الأفق

◄ الأستاذ سعيد محمد آل ارهين ٤٠٧

سيرة لوهج المشكاة

◄ الأستاذ فريد عبداللَّه النمر ٤١١

طيفٌ يختزلُ الرؤى

◄ الأستاذ ياسر عبداللَّه آل غريب..... ٤١٥

المحتويات ٤١٧